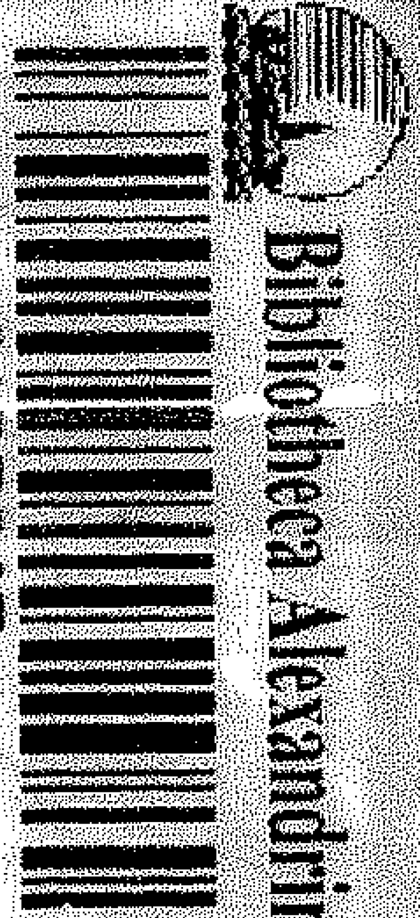
مدخل لمعرفة الإسلام

مقوماته .. خصائصه .. أهدافه .. مصادره

دكتور يوسف القرضاوي





الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة . تليفون ٣٩١٧٤٧٠

مدخل لمعرفة الإسلام

مقوماته .. خصائصه .. أهدافه .. مصادره

الدكتور يوسف القرضاوي

مدخل لمعرفة الإسلام

مقوماته.. خصائصه.. أهدافه.. مصادره

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - ت - ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى
١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقـــــدمة

الحمد لله وكفى ، وسلام على رسله الذين اصطفى ، وعلى خاتمهم المجتبى ، محمد وآله وصحبه ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين . .

أما بعد :

فهذا الكتاب نافذة على الإسلام ، أو مدخل للتعريف به ، لمن لا يعرفه ، أو يعرفه معرفة قاصرة أو مشوهة ، وتذكير وتأكيد لمن يعرفه ، والذكرى تنفع المؤمنين : تعريف بمقوماته الأساسية ، وبخصائصه العامة ، وبأهدافه الرئيسية ، وبمصادره المعصومة ، بالإضافة إلى بيان الحاجة إلى الدين عامة ، وإلى الإسلام خاصة .

وبهذا تحددت الأبواب التى يتكون منها هذا الكتاب :

الباب الأول : فى الحاجة إلى الدين : حاجة العقل والنفس والفِطرة فى الفرد ، وحاجة المجتمع إلى بواعث وضوابط .

والباب الثانى : فى مقومات الإسلام ، من العقيدة ، والعبادة ، والأخلاق ، والتشريع .

والباب الثالث : فى خصائص الإسلام ، من الربانية ، والإنسانية ، والشمول ، والوسطية ، والجمع بين الثبات والمرونة .

والباب الرابع : فى أهداف الإسلام ، من بناء الإنسان الصالح ، والأسرة الصالحة ، والمجتمع الصالح ، والأمة الصالحة ، والدولة الصالحة ، والدعوة لخير الإنسانية عامة .

والباب الخامس : فى مصادر الإسلام ، وهى القرآن الكريم ، والسُّنَّة النبوية مبينته وشارحته .

وقد استفدت فى بيان هذه الأمور الهامة فى الإسلام مما كتبته من قبل فى كتبى الأخرى ، مثل : الإيمان والحياة ، والعبادة فى الإسلام ، والخصائص العامة للإسلام ، والمرجعية العليا للقرآن والسُّنَّة ، وبينات الحل الإسلامى ، وغيرها .

فمن أراد أن يتوسع فى معرفة الفصول التى كتبتها هنا فليرجع إلى مظانّها فى كتبنا .

وأرجو أن يكون ما كتبته هنا كافياً للمسلم المعاصر للوقوف على الحقائق الكبرى المتعلقة بالإسلام ، وأن يمنحه زاداً من الثقافة الإسلامية اللازمة للإنسان المسلم فى عصرنا ، ليتعرف على جوهر دينه ، مبّرءاً من التجزئة والتجميد والتمييع والتشويه ، سالماً من تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين .

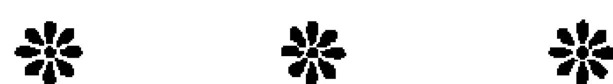
كما يمكن أن يعطى غير المسلم - الذى يرغب فى معرفة شىء عن الإسلام - صورة صادقة عن أساسيات هذا الدين ، الذى أنزل الله به آخر كتبه ، وبعث به خاتم رُسُله ، رحمة للعالمين ، وحجة على الناس أجمعين .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

الدوحة فى : رجب سنة ١٤١٦ هـ ، ديسمبر سنة ١٩٩٥م .

الفقير إلى مولاه

يوسف القرضاوى



الباب الأول

الحاجة إلى الدين

- معنى الدين .
- حاجة العقل والفطرة والنفس .
- حاجة المجتمع إلى بواعث وضوابط أخلاقية .
- العلم والفلسفة ليسا بديلين عن الدين .
- هل الدين أفيون الشعوب ؟

الحاجة إلى الدين

● **معنى الدين :**

قبل أن نتحدث عن الحاجة إلى الدين عامة ، وإلى الإسلام خاصة ، ينبغى لنا أن نبين المعنى المراد بكلمة (الدين) .

ولا نريد أن نطيل الحديث فى ذلك عند اللُّغويين وعند مؤرخى الأديان ، وفلاسفة المِلل والنحل ، وندخل فى الموضوع مباشرة .

وقد بحث ذلك شيخنا الدكتور محمد عبد الله دراز فى كتابه القيم (الدين) ثم خرج بالتعريف التالى للدين ، أى دين ، صحيح أو فاسد ، كتابى أو وثنى . قال رحمه الله :

الدين هو : « الاعتقاد بوجود ذات - أو ذوات - غيبية علوية ، لها شعور واختيار ، ولها تصرف وتدبير للشؤون التى تعنى الإنسان ، اعتقاد من شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذات السامية فى رغبة ورهبة ، وفى خضوع وتمجيد » وبعبارة موجزة ، هو « الإيمان بذات إلَهية ، جديرة بالطاعة والعبادة » . هذا إذا نظرنا إلى الدين من حيث هو حالة نفسية بمعنى التدين ، أما إذا نظرنا إليه من حيث هو حقيقة خارجة فنقول : « هو جملة النواميس النظرية التى تحدد صفات تلك القوة الإلَهية ، وجملة القواعد العملية التى ترسم طريق عبادتها » (١) .

فهذا التعريف يشمل الدين من حيث هو ، ولو كان قائماً على الشرك والوثنية . ذلك أن القرآن سمَّاه ديناً ، كما فى قوله تعالى : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ (٣) .

---

(١) الدين ص ٥٢ ، طبع دار القلم بالكويت .

(٢) الكافرون : ٦ (٣) آل عمران : ٨٥

وقد عرف علماء الإسلام الدين بأنه : « وضع إلَهى سائق لذوى العقول السليمة باختيارهم إلى ما فيه الصلاح فى الحال والفلاح فى المآل » .



● **الأديان السماوية ووحدتها :**

ومن المعروف للدارسين أن الأديان نوعان :

١ - أديان سماوية أو كتابية ، على معنى أن لها كتاباً نزل من السماء ، يحمل هداية الله للبَشر ، مثل (اليهودية) التى أنزل الله فيها كتابه (التوراة) على رسوله (موسى) عليه السلام . ومثل (النصرانية) التى أنزل الله فيها كتابه (الإنجيل) علي رسوله المسيح (عيسى) عليه السلام . ومثل (الإسلام) الذين أنزل الله فيه (القرآن) على خاتم رُسُله وأنبيائه (محمد) عليه الصلاة والسلام .

وفرق ما بين الإسلام والأديان الكتابية الأُخرى : أن الله تعالى حفظ أُصول الإسلام ومصادره بوصفه الرسالة الأخيرة للبَشر ، فلم يصبها تحريف ولا تبديل ، فى حين لم يحفظ مصادر الأديان الأُخرى وكتبها المقدَّسة ، فحُرفت وبُدلت ، أو ضاعت .

٢ - وأديان وثنية أو وضعية ، تنسب إلى الأرض لا السماء ، وإلى البَشر لا إلى الله مثل (البوذية) فى الصين واليابان ، و(الهندوسية) فى الهند ، و(المجوسية) فى فارس قديماً ، وغيرها من الأديان فى آسيا وأفريقيا . فهى إما من وضع البَشر أساساً مثل البوذية ، وإما أن يكون لها كتاب فى الأصل ثم ضاع ولم يبق له أثر ، كما فى المجوسية .

والأصل أن الأديان السماوية واحدة فى أصولها العقائدية ، وإن اختلفت شرائعها باختلاف أزمنتها ، وهذا ما بينه القرآن وأكده : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ

وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ (٢) .

بل قرر القرآن أن دين الله واحد ، أنزل به جميع كتبه ، وبعث به جميع رُسُله ، وهو (الإسلام) كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ ﴾ (٣) ، فكل رُسُل الله كانوا مسلمين ، ودعوا إلى الإسلام ، ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِياً وَلَا نَصْرَانِياً ، وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً ﴾ (٤) ، ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ : يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴾ (٥) ، وموسى قال لقومه : ﴿ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ (٦) ، والحواريون أصحاب عيسى : ﴿ قَالُوا : آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٧) .

ومحمد خاتم الرُّسُل بُعث بالإسلام - دين الرُّسُل جميعاً - مصدقاً لما بين يديه - أى ما تقدمه - من الأديان ، ومؤكداً لما تضمنته كتبها من حقائق الدين ، وقواعد السلوك ، كما جاء القرآن مهيمناً على تلك الكتب ، مصححاً لما أصابها من تحريف لفظى أو معنوى لكلمات الله فيها ، متمماً لمكارم الأخلاق التى جاء بها رُسُل الله من قبل ، حتى تبلغ غايتها بعد أن بلغت البَشرية أشدها ، واستكملت رشدها .

يقول تعالى مخاطباً رسوله محمداً عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ، فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ (٨) .

وسنبين فى هذا الباب حاجة الإنسان - فرداً ومجتمعاً - إلى الدين بصفة

---

(١) الشورى : ١٣ (٢) المائدة : ٤٨ (٣) آل عمران : ١٩
(٤) آل عمران : ٦٧ (٥) البقرة : ١٣٢ (٦) يونس : ٨٤
(٧) آل عمران : ٥٢ (٨) المائدة : ٤٨

عامة ، وإلى الأديان الكتابية بصفة خاصة ، وإلى الإسلام خاتمتها على وجه أخص .



● حاجة الإنسان إلى الدين :

إن حاجة الإنسان إلى الدين عامة ، وإلى الإسلام خاصة ، ليست حاجة ثانوية ولا هامشية ، إنها حاجة أساسية أصيلة ، تتصل بجوهر الحياة ، وسر الوجود ، وأعمق أعماق الإنسان .

وفى أقصى ما يمكن من الإيجاز - غير المخل - نبين هنا وجه الحاجة إلى الدين فى حياة الإنسان :

* حاجة العقل إلى معرفة الحقائق الكبرى فى الوجود :

١ - حاجة الإنسان إلى عقيدة دينية تنبثق - أول ما تنبثق - من حاجته إلى معرفة نفسه ومعرفة الوجود الكبير من حوله ، أى إلى معرفة الجواب عن الأسئلة التى شغلت بها فلسفات البَشر ولم تقل فيها ما يشفى .

فالإنسان منذ نشأته تلح عليه أسئلة يحتاج إلى الجواب عنها : من أين ؟ وإلى أين ؟ ولِمَ ؟! ومهما تشغله مطالب العيش عن هذا التساؤل ، فإنه لا بد واقف يوماً ليسأل نفسه هذه الأسئلة الخالدة :

(أ) يقول الإنسان فى نفسه : من أين جئتُ وجاء هذا الكون العريض من حولى ؟ هل وُجِدتُ وحدى أم هناك خالق أوجدنى ؟ ومَن هو ؟ وما صلتى به ؟ وكذلك هذا العالَم الكبير بأرضه وسمائه ، وحيوانه ونباته وجماده وأفلاكه ، هل وُجِد وحده أم أوجده خالق مُدبِّر ؟ (١) .

(ب) ثم ماذا بعد هذه الحياة . . . وبعد الموت ؟ إلى أين المسير بعد هذه

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم - ص ٥٢

الرحلة القصيرة على ظهر هذا الكوكب الأرضى ؟ أتكون قصة الحياة مجرد « أرحام تدفع ، وأرض تبلع » ولا شىء بعد ذلك ؟ وكيف تستوى نهاية الأخيار الطاهرين الذين ضحوا بأنفسهم فى سبيل الحق والخير ، ونهاية الأشرار الملوثين الذين ضحوا بغيرهم فى سبيل الهوى والشهوة ؟ أتختتم الحياة بالموت ؟ .. أم هناك وراء الموت حياة يجزى فيها الذين أساءوا بما عملوا والذين أحسنوا بالحسنى ؟

(جـ) ثم لماذا وُجِد الإنسان ؟ لماذا أُعطى العقل والإرادة وتميَّز عن سائر الحيوان ؟ لماذا سُخِّر له ما فى السموات وما فى الأرض ؟ أهناك غاية من وجوده ؟ أله مهمة فى حياته ؟ أم وُجِد لمجرد أن يأكل كما تأكل الأنعام – ثم ينفق كما تنفق الدواب ؟ وإن كانت هناك غاية من وجوده فما هى ؟ وكيف يعرفها ؟

أسئلة تلح على الإنسان فى كل عصر وتتطلب الجواب الذى يشفى الغليل ويطمئن به القلب ، ولا سبيل إلى الجواب الشافى إلا باللجوء إلى الدين ... إلى العقيدة الدينية الصافية . الدين هو الذى يعرِّف الإنسان – أول ما يعرِّفه – أنه لم يخرج من العدم إلى الوجود صدفة ، ولا قام فى هذا الكون وحده ، وإنما هو مخلوق لخالق عظيم ، هو ربه الذى خلقه فسوَّاه فعدله ونفخ فيه من روحه ، وجعل له السمع والبصر والفؤاد ، وأمده بنعمه الغامرة ، منذ كان جنيناً فى بطن أمه : ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاء مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴾ (١) .

وهذا الكون الكبير من حوله ليس غريباً عنه ولا عدواً له ، إنه مخلوق مثله لله لا يسير جزافاً ولا يمشى اعتباطاً ، كل شىء فيه بقَدَر ، وكل أمر فيه بحساب وميزان ، إنه نعمة من الله للإنسان ورحمة ، ينعم بخيراته ، ويستفيد

---

(١) المرسلات : ٢٠ – ٢٣

من بركاته ، ويتأمل فى آياته ، فيستدل به عن ربه : ﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ (١) ، ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِى الأَلْبَابِ ﴾ (٢) .

بهذه العقيدة يرتبط الإنسان بالوجود الكبير ، وبرب الوجود كله ، ولا يعيش منطوياً على نفسه ، معزولاً عما حوله ، أو خائفاً منه .

والدين هو الذى يُعرِّف الإنسان : إلى أين يسير بعد الحياة والموت ؟ إنه يعرِّفه أن الموت ليس فناءً محضاً ، ولا عدماً صرفاً ، إنما هو انتقال إلى مرحلة أُخرى . . إلى حياة برزخية بعدها نشأة أخرى توفّى فيها كل نفس ما كسبت ، وتخلد فيما عملت ، فلا يضيع هناك عمل عامل من ذكر أو أُنثى ، ولا يفلت من العدل الإلهى جبار أو مستكبر : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ (٢) بهذا يعيش الإنسان بوجدانه فى الخلود ، ويعلم أنه خلق للأبد ، وإنما ينتقل بالموت من دار إلى دار .

والدين هو الذى يُعرِّف الإنسان : لماذا خُلق ؟ ولماذا كُرِّم وفُضِّل ؟ يُعرِّفه بغاية وجوده ، ومهمته فيه ، إنه لم يُخلق عبثاً ، ولم يُترك سدىً ، إنه خُلق ليكون خليفة الله فى الأرض ، يعمرها كما أمر الله ، ويُسخِّرها لما يحب الله ، يكشف عن مكنوناتها ، ويأكل من طيباتها ، غير طاغ على حق غيره ، ولا ناسٍ حق ربه . وأول حقوق ربه عليه أن يعبده وحده ، ولا يُشرك به شيئاً ، وأن يعبده بما شرع ، على ألسنة رُسُله ، الذين بعثهم إليه هداة معلمين ، مبشرين ومنذرين ، فإذا أدَّى مهمته فى هذه الدار المحفوفة بالتكليف والابتلاء ، وجد جزاءه هناك فى الدار الآخرة : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً ﴾ (٤) .

---

(١) الأعلى : ٢ - ٣ (٢) آل عمران : ١٩٠
(٣) الزلزلة : ٦ - ٨ (٤) آل عمران : ٣٠

بهذا يدرك الإنسان سر وجوده ، ويستبين مهمته فى الحياة ، بيّنها له بارىء الكون ، وواهب الحياة ، وخالق الإنسان .

إن الذى يعيش بغير دين - بغير عقيدة فى الله والآخرة - إنسان شقى محروم حقاً . إنه فى نظر نفسه مخلوق حيوانى ، ولا يفترق عن الحيوانات الكبيرة التى تدب على الأرض من حوله . . . والتى تعيش وتتمتع ثم تموت وتنفق ، بدون أن تعرف لها هدفاً ، أو تدرك لحياتها سراً ، إنه مخلوق صغير تافه لا وزن له ولا قيمة ، وُجِد ولا يعرف : كيف وُجِد ، ولا مَن أوجده ؟ ويعيش ولا يدرى : لماذا يعيش ؟ ويموت ولا يعلم لماذا يموت ؟ وماذا بعد الموت ؟ إنه فى شك - بل فى عمى - من أمره كله : محياه ومماته ، مبدئه ومنتهاه ، كالذين قال الله فيهم : ﴿ بَلِ ٱدَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ ، بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ، بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾(١) .

وما أقسى حياة إنسان يعيش فى جحيم الشك والحيرة أو فى ظلمات العمى والجهل ، فى أخص ما يخصه : فى حقيقة نفسه ، وسر وجوده ، وغاية حياته . إنه الشقى التعيس حقاً ، وإن غرق فى الذهب والحرير وأسباب الرفاهية والنعيم ، وحمل أرقى الشهادات ، وتسلم أعلى الدرجات ! وفرق كبير بين إنسان كعمر الخيام يقول فى حال حيرته وشكه :

لبســـتُ ثوب العمر لم أستشـــر ... وحـــرتُ فيه بين شـــتَّى الفكر !

وسوف أنضو الثوب عنى ، ولم ... أدر : لماذا جـــئتُ ، أين المفر ؟

وبين آخر يقول فى يقين وطمأنينة :

ومـا المـوت إلا رحـــلة ، غير أنها ... من المنزل الفانى إلى المنزل الباقى !

ويقول عمر بن عبد العزيز : « إننا خُلِقنا للأبد ، وإنما ننقل من دار إلى دار » .

---

(١) النمل : ٦٦

إن حاجة الإنسان إلى الدين تنبثق - قبل كل شيء - من حاجته إلى معرفة حقيقة نفسه وإلى معرفة حقائق الوجود الكبرى ، وأول هذه الحقائق وأعظمها : وجود الله تعالى ووحدانيته وكماله سبحانه ، فبمعرفته والإيمان به - جلّ شأنه - تنحل عقد الوجود ، ويتضح للإنسان الغاية والوجهة ، ويتحدد المنهج والطريق .



* حاجة الفطرة البَشرية :

٢ - ما ذكرناه من حاجة الإنسان إلى الدين يتصل بحاجاته العقلية ، ولكن هناك حاجة الوجدان والشعور أيضاً ، فالإنسان ليس عقلاً فقط ، كالأدمغة الألكترونية ، إنما هو عقل ووجدان وروح ، هكذا تكوَّنت فطرته ، ونطقت جبلته . فالإنسان بفِطرته لا يقنعه علم ولا ثقافة ، ولا يُشبع نهمته فن ولا أدب ، ولا يملأ فراغ نفسه زينة أو متعة ، ويظل قلق النفس ، جوعان الروح ، ظمآن الفِطرة ، وشاعراً بالفراغ والنقص ، حتى يجد العقيدة فى الله ، فيطمئن بعد قلق ، ويسكن بعد اضطراب ، ويأمن بعد خوف ، ويحس بأنه وجد نفسه .

يقول الفيلسوف « أجوست سياتيه » فى كتابه « فلسفة الأديان » (١) :

« لماذا أنا متدين ؟ إنى لم أُحرِّك شفتى بهذا السؤال مرة ، إلا وأرانى مسوقاً للإجابة عليه بهذا الجواب ، وهو : أنا متدين ، لأنى لا أستطيع خلاف ذلك ، لأن التدين لازم معنوى من لوازم ذاتى . يقولون لى : ذلك أثر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج ، فأقول لهم : قد اعترضتُ على نفسى كثيراً بهذا الاعتراض نفسه ، ولكنى وجدته يقهقر المسألة ولا يحلها » .

ولا عجب أن وجدنا هذه العقيدة عند كل الأمم ، بداثية ومتحضرة ، وفى

---

(١) الإسلام فى عصر العلم ، للمرحوم محمد فريد وجدى .

كل القارات شرقية وغربية ، وفى كل العصور قديمة وحديثة ، وإن كان الأكثرون قد انحرفوا بها عن الصراط المستقيم .

يقول المؤرخ الإغريقى « بلوتارك » : قد وُجِدت فى التاريخ مدن بلا حصون ، ومدن بلا قصور ، ومدن بلا مدارس ، ولكن لم توجد أبداً مدن بلا معابد . . . .

ولهذا جعل القرآن الدين - بمعنى العقيدة - هو الفطرة البَشرية نفسها : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَتَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ (1) .



* حاجة الإنسان إلى الصحة النفسية والقوة الروحية :

٣ - وثمت حاجة أُخرى إلى الدين : حاجة تقتضيها حياة الإنسان وآماله فيها ، وآلامه بها . . . حاجة الإنسان إلى ركن شديد يأوى إليه ، وإلى سناد متين يعتمد عليه ، إذا ألـمَّت به الشدايد ، وحلّت بساحته الكوارث ، ففقد ما يحب ، أو واجه ما يكره ، أو خاب ما يرجو ، أو وقع به ما يخاف ، هنا تأتى العقيدة الدينية ، فتمنحه القوة عند الضعف ، والأمل فى ساعة اليأس ، والرجاء فى لحظة الخوف ، والصبر فى البأساء والضرَّاء ، وحين البأس .

إن العقيدة فى الله وفى عدله ورحمته ، وفى العوض والجزاء عنده فى دار الخلود ، تهب الإنسان الصحة النفسية والقوة الروحية ، فتشع فى كيانه البهجة ، ويغمر روحه التفاؤل ، وتتسع فى عينه دائرة الوجود ، وينظر إلى الحياة بمنظار مشرق ، ويهون عليه ما يلقى وما يكابد فى حياته القصيرة الفانية ، ويجد من العزاء والرجاء والسكينة ما لا يقوم مقامه ولا يُغنى عنه علم ولا فلسفة ولا مال ولا ولد ولا مُلْك المشرق والمغرب .

---

(1) الروم : ٣٠

ورضى الله عن عمر إذ قال : « ما أصبتُ بمصيبة إلا كان لله علىّ فيها أربع نِعَم : أنها لم تكن فى دينى . . . وأنها لم تكن أكبر منها . . . وأننى لم أحرم الرضا عند نزولها . . . وأننى أرجو ثواب الله عليها » (١) .

أما الذى يعيش فى دنياه بغير دين ، بغير إيمان ، يرجع إليه فى أموره كلها - وبخاصة إذا ادلهمت الخطوب ، وتتابعت الكروب ، والتبست على الناس المسالك والدروب - يستفتيه فيفتيه ، ويسأله فيجيبه ، ويستعينه فيعينه ، ويمنحه المدد الذى لا يغلب ، والعون الذى لا ينقطع - الذى يعيش بغير هذا الإيمان - يعيش مضطرب النفس ، متحير الفكر ، مبلبل الاتجاه ، ممزق الكيان ، شبَّهه بعض فلاسفة الأخلاق بحال « راقاياك » التعس ، الذى يحكون عنه أنه اغتال الملك ، فكان جزاؤه أن يُربط من يديه ورجليه إلى أربعة من الجياد ، ثم ألهب ظهر كل منها ، لتتجه مسرعة ، كل واحد منها إلى جهة من الجهات الأربع ، حتى مُزِّق جسمه شر مُمزَّق !

هذا التمزق الجسمى البشع مثل للتمزق النفسى الذى يعانيه مَنْ يحيا بغير دين ، ولعل الثانى أقسى من الأول وأنكى فى نظر العارفين المتعمقين ، لأنه تمزق لا ينتهى أثره فى لحظات ، بل هو عذاب يطول مداه ، ويلازم مَن نُكِب به طول الحياة .

ولهذا نرى الذين يعيشون بغير عقيدة راسخة يتعرضون أكثر من غيرهم للقلق النفسى ، والتوتر العصبى ، والاضطراب الذهنى ، وهم ينهارون بسرعة إذا صدمتهم نكبات الحياة ، فإما انتحروا انتحاراً سريعاً ، وإما عاشوا مرضى النفوس ، أمواتاً كالأحياء ! على نحو ما قال الشاعر العربى قديماً :

ليس مَن مات فاستراح بميت … إنما الميت ميت الأحياء !
إنما الميت من يعيش كئيباً … كاسفاً باله قليل الرجاء !

---

(١) انظر موضوع « الثبات فى الشدائد » من كتابنا « الإيمان والحياة » ، وكذلك موضوع « القوة » - طبع - مؤسسة الرسالة ببيروت ، ومكتبة وهبة بالقاهرة .

وهذا ما يقرره علماء النفس وأطباء العلاج النفسى فى العصر الحديث . وهو ما سجَّله المفكرون والنُقَّاد فى العالَم كله .

يقول المؤرخ الفيلسوف « آرنولد توينبى » :

« الدين إحدى المَلَكات الضرورية الطبيعية البَشرية ، وحسبنا القول بأن افتقار المرء للدين يدفعه إلى حالة من اليأس الروحى ، تضطره إلى التماس العزاء الدينى على موائد لا تملك منه شيئاً » (١) .

ويقول الدكتور « كارل بانج » فى كتابه « الإنسان العصرى يبحث عن نفسه » : « إن كل المرضى الذين استشارونى خلال الثلاثين سنة الماضية ، من كل أنحاء العالَم ، كان سبب مرضهم هو نقص إيمانهم ، وتزعزع عقائدهم ، ولم ينالوا الشفاء إلا بعد أن استعادوا إيمانهم » (٢) .

ويقول « وليم چيمس » فيلسوف المنفعة والذرائع : « إن أعظم علاج للقلق - ولا شك - هو الإيمان » .

ويقول الدكتور « بريال » : « إن المرء المتدين حقاً لا يعانى قَط مرضاً نفسياً » .

ويقول « ديل كارنيجى » فى كتابه « دع القلق وابدأ الحياة » : « إن أطباء النفس يدركون أن الإيمان القوى والاستمساك بالدين ، كفيلان بأن يقهرا القلق ، والتوتر العصبى ، وأن يشفيا من هذه الأمراض » .

وقد أفاض الدكتور « هنرى لنك » فى كتابه « العودة إلى الإيمان » فى بيان ذلك والتدليل عليه بما لمسه وجرَّبه من وقائع وفيرة ، خلال عمله فى العلاج النفسى (٣) .



(١) مختصر دراسة التاريخ : ٣/١٧٩

(٢) انظر : كتاب الإسلام يتحدى ، ص ٢٨١

(٣) انظر : فصل « بين العلم والإيمان » من كتابنا « الإيمان والحياة » وبخاصة ما كُتِب تحت عنوان : « الطب النفسى فى موكب الإيمان » .

* حاجة المجتمع إلى بواعث وضوابط أخلاقية :

٤ - وهناك حاجة أخرى إلى الدين : حاجة اجتماعية ، إنها حاجة المجتمع إلى بواعث وضوابط : بواعث تدفع أفراده إلى عمل الخير ، وأداء الواجب وإن لم يوجد من البَشر مَن يراقبهم ، أو يكافئهم . . وضوابط تحكم علاقاتهم ، وتُلزم كل واحد منهم أن يقف عند حده ، ولا يعتدى على حق غيره أو يُفرِّط فى خير مجتمعه ، من أجل شهوات نفسه ، أو منفعته المادية العاجلة .

ولا يقال : إن القوانين واللوائح كافية لإيجاد هذه الضوابط وتلك البواعث ، فإن القوانين لا تخلق باعثاً ، ولا تكفى ضابطاً ، فإن الإفلات منها ممكن ، والاحتيال عليها ميسور ، ولهذا كان لا بد من بواعث وضوابط أخلاقية ، تعمل من داخل النفس الإنسانية لا من خارجها . لا بد من هذا الباعث الداخلى ، ومن هذا : الوازع الذاتى ، لا بد من الضمير ، أو « الوجدان » أو « القلب » - سمه ما شئت - فهو القوة التى إذا صلحت صلح عمل الإنسان كله ، وإذا فسدت فسد كله .

ولقد عرف الناس بالمشاهدة والتجربة واستقراء التاريخ ، أن العقيدة الدينية لا يغنى غناءها شىء فى تربية الضمير وتزكية الأخلاق ، وتكوين البواعث التى تحفز على الخير ، والضوابط التى تردع عن الشر ، حتى قال بعض قضاة العصر فى بريطانيا - وقد هاله ما رأى من جرائم موبقة ، رغم تقدم العلم ، واتساع الثقافة ، ودقة القوانين : « بدون أخلاق لا يوجد قانون ، وبدون إيمان لا توجد أخلاق » (١) .

ولا غرو أن اعترف بعض الملاحدة أنفسهم بأن الحياة لا تستقيم بدون دين ، بدون عقيدة فى الله وفى الجزاء فى الآخرة ، حتى قال « ڤولتير » : « لو لم يكن الله موجوداً لوجب علينا أن نخلقه » ! أى نخترع للناس إلهاً يرجون

---

(١) انظر : فصل « الإيمان والأخلاق » من كتابنا : « الإيمان والحياة » طبع مؤسسة الرسالة ببيروت ومكتبة وهبة بالقاهرة .

رحمته ويخافون عذابه ، ويلتمسون رضاءه فيعملون الصالحات ، ويتجنبون السيئات ، ويقول مرة أخرى ساخراً : « لِمَ تشككون فى وجود الله ، ولولاه لخانتنى زوجتى ، وسرقنى خادمى » !!

وقال « بلوتارخ » : « إن مدينة بلا أرض تقوم عليها ، أسهل من قيام دولة بلا إله » !!



* حاجة المجتمع إلى التعاون والتماسك :

٥ - ثم إن للدين دوراً كبير الأهمية فى توثيق الصلة بين الناس بعضهم وبعض ، باعتبارهم جميعاً عبيداً لرب واحد خلقهم ، وأبناء لأب واحد نسلهم ، فضلاً عما ينشئه الدين بينهم من أخوة العقيدة ، وآصرة الإيمان .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (١) وما تحدثه هذه الأخوة الدينية من آثار فى الأنفس والحياة ، حتى نجد أحدهم يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، بل يؤثر أخاه على نفسه ، ولو كان به خصاصة .

يقول شيخنا الدكتور محمد عبد الله دراز ، فى كتابه القيم (الدين) :

لا حاجة بنا إلى التنبيه على أن الحياة فى الجماعة لا قيام لها إلا بـ « التعاون » بين أعضائها ، وأن هذا التعاون إنما يتم « بقانون » ينظم علاقاته ، ويحدد حقوقه وواجباته ، وأن هذا القانون لا غنى له عن « سلطان » نازع وازع ، يكفل مهابته فى النفوس ويمنع انتهاك حرماته .

تلك كلها مبادئ مقررة ، والحديث فيها معاد مملول .

وإنما الشأن كل الشأن فى هذا السلطان النازع الوازع : ما هو ؟

فالذى نريد أن نثبته فى هذه الحلقة من البحث هو أنه ليس على وجه

---

(١) الحجرات : ١٠

الأرض قوة تكافىء قوة التدين أو تدانيها فى كفالة احترام القانون ، وضمان تماسك المجتمع واستقرار نظامه ، والتئام أسباب الراحة والطمأنينة فيه .

السر فى ذلك أن الإنسان يمتاز عن سائر الكائنات الحية بأن حركاته وتصرفاته الاختيارية يتولى قيادتها شىء لا يقع عليه سمعه ولا بصره ، ولا يوضع فى يده ولا عنقه ، ولا يجرى فى دمه ، ولا يسرى فى عضلاته وأعصابه ، وإنما هو معنى إنسانى روحانى ، اسمه الفكرة والعقيدة ، فالإنسان أبداً أسير هذه الفكرة والعقيدة .

ولقد ضل قوم قلبوا هذا الوضع وحسبوا أن الفكر والضمير لا يؤثران في الحياة المادية والاقتصادية ، بل يتأثران بها ، هذا الرأى الماركسى هو قبل كل شىء نزول بالإنسان عن عرش كرامته ، ورجوع به القهقرى إلى مستوى البهيمية ، ثم هو تصوير مقلوب للحقائق الثابتة المشاهدة فى سلوك الأفراد والجماعات فى كل عصر ؛ فلكى يختار الناس أن يحيوا حياة مادية لا نصيب فيها للقلب ولا للروح ، لا بد أن يقنعوا أنفسهم بادئ ذى بدء بأن سعادتهم هى فى هذا النوع من الحياة . فالإنسان مقود أبداً بفكرة : صحيحة أو فاسدة ، فإذا صلحت عقيدته صلح فيه كل شىء ؛ وإن فسدت فسد كل شىء .

أجل إن الإنسان يساق من باطنه لا من ظاهره ، وليست قوانين الجماعات ولا سلطان الحكومات بكافيين وحدهما لإقامة مدينة فاضلة تحترم فيها الحقوق ، وتؤدى الواجبات على وجهها الكامل ؛ فإن الذى يؤدى واجبه رهبة من السوط أو السجن أو العقوبة المالية ، لا يلبث أن يهمله متى اطمأن إلى أنه سيفلت من طائلة القانون .

ومن الخطأ البين أن نظن أن فى نشر العلوم والثقافات وحدها ضماناً للسلام والرخاء ، وعوضاً عن التربية والتهذيب الدينى والخلقى ؛ ذلك أن العلم سلاح ذو حدّين : يصلح للهدم والتدمير ، كما يصلح للبناء والتعمير ؛ ولا بد

فى حسن استخدامه من رقيب أخلاقى يوجهه لخير الإنسانية وعمارة الأرض ، لا إلى نشر الشر والفساد .

ذلكم الرقيب هو العقيدة والإيمان [1] .

كلام الإمام محمد عبده :

وقد بين الأستاذ الإمام محمد عبده فى كتابه الفريد « رسالة التوحيد » وجوه حاجة البَشر إلى النبوة والرسالة الإلهية ، وأنها للنوع الإنسانى بمثابة العقل للفرد الإنسانى ، وأن البَشر لا يستغنون عن هداية الله لهم بحال ، لهذا أرسل إليهم الرُّسُل مبشرين ومنذرين : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [2] ، ولقد أكد هذا فى تفسيره لسورة الفاتحة وبيان حاجة الناس إلى هدى الله سبحانه عند آية : ﴿ إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [3] كما نقله صاحب المنار رحمهما الله جميعاً .

وعاد إلى ذلك فى تفسير قوله تعالى من سورة النساء عقب بيان أحكام المواريث : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ الله ، وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا . . . ﴾ [4] فقال رحمه الله :

« طاعة الرسول هى طاعة الله بعينها لأنه إنما يأمرنا بما يوحيه إليه الله من مصالحنا التى فيها سعادتنا فى الدنيا والآخرة ، وإنما يذكر طاعة الرسول مع طاعة الله لأن من الناس من كانوا يعتقدون قبل اليهودية وبعدها ، وكذلك بعد الإسلام إلى اليوم : أن الإنسان يمكن أن يستغنى بعقله وعلمه عن الوحى ، يقول أحدهم : إننى أعتقد أن للعالم صانعاً عليماً حكيماً ، وأعمل بعد ذلك بما يصل إليه عقلى من الخير واجتناب الشر . وهذا خطأ من الإنسان ، ولو صح ذلك لما كان فى حاجة إلى الرُّسُل ، وقد تقدم فى تفسير سورة الفاتحة :

---

(١) الدين لشيخنا الدكتور دراز ، ص ٩٨ ، ٩٩

(٢) فاطر : ٢٤

(٣) الفاتحة : ٦

(٤) النساء : ١٣

أن الإنسان محتاج بطبيعته النوعية إلى هداية الدين ، وأنها هى الهداية الرابعة التى وهبها الله للإنسان بعد هداية الحواس والوجدان والعقل ، فلم يكن العقل فى عصر من عصوره كافياً لهداية أمة من أممه ومرقياً له بدون معونة الدين .

اعتراض من الملحدين وجوابه :

وقد عقب العلامة السيد رشيد رضا فى تفسير المنار على كلام الشيخ عبده بإيراد اعتراض من المرتابين والملاحدة وأجاب عنه إجابة مطولة ، فقال رحمه الله :

« يرد على هذا من جانب المرتابين والملاحدة : إننا نرى كثيراً من أفراد الناس لا يدينون بدين ، وهم فى درجة عالية من الأفكار والآداب ، وحسن الأعمال التى تنفعهم وتنفع الناس ، حتى أن العاقل المجرد عن التعصب الدينى يتمنى لو كان الناس كلهم مثله ، بل يسعى كثير من الفلاسفة لجعل الأمم مثل هؤلاء الأفراد فى آدابهم وارتقائهم .

وأجيب عن هذا (أولاً) : بأن الكلام فى هداية الجماعات من البَشر ، كالشعوب والقبائل والأمم الذين يتحقق بارتقائهم معنى الإنسانية فى الحياة الاجتماعية ، سواء كانت بدوية أو مدنية ، وقد علمنا التاريخ أنه لم تقم مدنية فى الأرض من المدنيات التى وعاها وعرفها إلا على أساس الدين ، حتى مدنيات الأمم الوثنية كقدماء المصريين والكلدانين واليونانيين ، وعلمنا القرآن أنه ما من أُمة إلا وقد خلا فيها نذير مرسل من الله عَزَّ وجَلَّ لهدايتها . فنحن بهذا نرى أن تلك الديانات الوثنية كان لها أصل إلهى ، ثم سرت الوثنية إلى أهلها حتى غلبت على أصلها ، كما سرت إلى من بعدهم من أهل الديانات ، التى بقى أصلها كله أو بعضه على سبيل القطع ، أو على سبيل الظن . وليس للبَشر ديانة يحفظ التاريخ أصلها حفظاً تاماً إلا الديانة الإسلامية ، وهو مع ذلك قد دون فى أسفاره كيفية سريان الوثنية الجلية أو الخفية إلى كثير من المنتسبين إليها كالنصيرية ، وسائر الباطنية وغيرهم ، ممن غلب

عليهم التأويل أو الجهل ، حتى إنه يوجد فى هذا العصر من المنتمين إلى الإسلام من لا يعرفون من أحكامه الظاهرة غير قليل مما يخالفون به جيرانهم ، كجواز أكل لحم البقر فى الأطراف الشاسعة من الهند ! وكيفية الزواج ودفن الموتى فى بعض بلاد روسيا وغيرها !! فمن علم هذا لا يستبعد تحول الديانات الإلهية القديمة إلى الوثنية .

فاتباع الرُّسُل وهداية الدين أساس كل مدنية ، لأن الارتقاء المعنوى هو الذى يبعث على الارتقاء المادى . وها نحن أولاء نقرأ فى كلام شيخ الفلاسفة الاجتماعيين فى هذا العصر « هربرت سبنسر » أن آداب الأمم وفضائلها التى هى قوام مدنيتها مستندة كلها إلى الدين ، وقائمة على أساسه ، وأن بعض العلماء يحاولون تحويلها عن أساس الدين وبناءها على أساس العلم والعقل ، وأن الأمم التى يجرى فيها هذا التحويل ، لا بد أن تقع فى طور التحويل فى فوضى أدبية ، لا تعرف عاقبتها ولا يحدد ضررها . هذا معنى كلامه فى بعض كتبه . وقد قال هو للأستاذ الإمام فى حديث له معه : إن الفضيلة قد اعتلت فى الأمة الإنكليزية وضعفت فى هذه السنين الأخيرة ، من حيث قوى فيها الطمع المادى .

ونحن نعلم أن الأمة الإنكليزية من أشد أمم أوروبا تمسكاً بالدين ، مع كون مدنيتها أثبت ، وتقدمها أعم ، لأن الدين قوام المدنية بما فيه من روح الفضائل والآداب ، على أن المدنية الأوروبية بعيدة عن روح الديانة المسيحية ، وهو الزهد فى المال والسلطان وزينة الدنيا ، فلولا غلبة بعض آداب الإنجيل على تلك الأمم لأسرفوا فى مدنيتهم المادية إسرافاً غير مقترن بشىء من البر وعمل الخير ، وإذاً لبادت مدنيتهم سريعاً . ومن يقل : إنه سيكون أبعدها عن الدين أقربها إلى السقوط والهلاك لا يكون مفتاتاً فى الحكم ، ولا بعيداً عن قواعد علم الاجتماع فيه .

فحاصل هذا الجواب الأول عن ذلك الإيراد : أن وجود أفراد من الفضلاء

غير المتدينين لا ينقض ما قاله الأستاذ الإمام من كون الدين هو الهداية الرابعة لنوع الإنسان التى تسوقه إلى كماله المدنى فى الدنيا ، كما تسوقه إلى سعادة الآخرة .

وثانياً : إنه لا يمكن الجزم بأن فلاناً الملحد الذى تراه عالى الأفكار والآداب قد نشأ على الإلحاد وتربى عليه من صغره ، حتى يقال : إنه قد استغنى فى ذلك عن الدين ؛ لأننا لا نعرف أمة من الأمم تربى أولادها على الإلحاد ، وإننا نعرف بعض هؤلاء الملحدين الذين يعدون فى مقدمة المرتقين بين قومهم ، ونعلم أنهم كانوا فى نشأتهم الأولى من أشد الناس تديناً واتباعاً لآداب دينهم وفضائله ، ثم طرأ عليهم الإلحاد فى الكبر ، بعد الخوض فى الفلسفة التى تناقض بعض أصول ذلك الدين الذى نشأوا عليه ، والفلسفة قد تغير بعض عقائد الإنسان ، وآرائه ، ولكن لا يوجد فيها ما يقبح له الفضائل والآداب الدينية ، أو يذهب بملكاته وأخلاقه الراسخة كلها ، وإنما يسطو الإلحاد على بعض آداب الدين كالقناعة بالمال الحلال ، فيزين لصاحبه أن يستكثر من المال ولو من الحرام ، كأكل حقوق الناس والقمار بشرط أن يتقى ما يجعله حقيراً بين من يعيش معهم ، أو يلقيه فى السجن ، وكالعفة فى الشهوات ، فيبيح له من الفواحش ما لا يخل بالشرط المذكور آنفاً ، هذا إذا كان راقياً فى أفكاره وآدابه ، وأما غير الراقين منهم فهم الذين لا يصدهم عن الفساد فى الأرض وإهلاك الحرث والنسل إلا القوة القاهرة .

ولولا أن دول أوروبا قد نظمت فرَق المحافظين على الحقوق من الشحنة والشُرطة (البوليس والضابطة) أتم تَنظيم ، وجعلت الجيوش المنظمة عوناً لهم عند الحاجة ، لما حفظ لأحد عندها عرض ولا مال ؛ ولعمت بلادها الفوضى والاختلال ، ولقد كانت الحقوق والأعراض محفوظة فى الأمم من غير وجود هذه القوى المنظمة أيام كان الدين مرعياً فى الآداب والأحكام - فتبين بهذا أن طاعة الله ورُسُله لا بد منها لسعادة الدنيا » [1] .



(١) من تفسير المنار : جـ٤/٤٢٨ - ٤٣١

● **شهادة التاريخ والواقع :**

إن تجارب التاريخ وتجارب الواقع كلها تنطق بأصالة الإيمان فى الحياة ، وضرورته للإنسان ، فهو ضرورة للفرد ليطمئن ويسعد ويزكو ، وهو ضرورة للمجتمع ليستقر ويتماسك ويرقى .

يقول الأستاذ العقاد : « إن تجارب التاريخ تقرر لنا أصالة الدين فى جميع حركات التاريخ الكبرى ، ولا تسمح لأحد أن يزعم أن العقيدة الدينية شىء تستطيع الجماعة أن تلغيه ، ويستطيع الفرد أن يستغنى عنه ، فى علاقته بتلك الجماعة ، أو فيما بينه وبين سريرته المطوية من حوله ، ولو كانوا من أقرب الناس إليه .

« ويكرر لنا التاريخ أنه لم يكن قَط لعامل من عوامل الحركات الإنسانية أثر أقوى وأعظم من عامل الدين ، وكل ما عداه من العوامل الأخرى فى حركات الأمم ، فإنها تتفاوت فيه القوة بمقدار ما بينه وبين العقيدة الدينية من المشابهة فى التمكن من أصالة الشعور وبواطن السريرة .

« هذه القوة لا تضارعها قوة العصبية ولا قوة الوطنية ولا قوة العُرف ، ولا قوة الأخلاق ، ولا قوة الشرائع والقوانين ، إذ كانت هذه القوة إنما ترتبط بالعلاقة بين المرء ووطنه ، أو العلاقة بينه وبين مجتمعه ، أو العلاقة بينه وبين نوعه ، على تعدد الأوطان والأقوام .

« أما الدّين فمرجعه إلى العلاقة بين المرء وبين الوجود بأسره ، وميدانه يتسع لكل ما فى الوجود من ظاهر وباطن ، ومن علانية وسر ، ومن ماض أو مصير ، إلى غير نهاية ، بين آزال لا تُحصى فى القِدَم ، وآباد لا تُحصى فيما ينكشف عنه عالَم الغيوب . وهذا على الأقل هو ميدان العقيدة الدينية فى مثلها الأعلى ، وغاياتها القصوى ، وإن لم تستوعبها ضمائر المتدينين فى جميع العصور .

« ومن أدلة الواقع على أصالة الدين : أنك تلمس هذه الأصالة عند المقابلة

بين الجماعة المتدينة ، والجماعة التى لا دين لها ، أو لا تعتصم من الدين بركن مكين .

« وكذلك تلمس هذه الأصالة عند المقابلة بين فرد يؤمن بعقيدة من العقائد الشاملة ، وفرد معطَّل الضمير ، مضطرب الشعور ، يمضى فى الحياة بغير محور يلوذ به ، وبغير رجاء يسمو إليه .

« لهذا . . الفارق بين الجماعتين ، وبين الفردين ، كالفارق بين شجرة راسخة فى منبتها وشجرة مجتثة من أصولها !

« وقَلَّ أن ترى إنساناً معطَّل الضمير ، على شىء من القوة والعظمة ، إلا أمكنك أن تتخيله أقوى من ذلك وأعظم ، إذا حلَّت العقيدة فى وجدانه محل التعطل والحيرة » (١)



● لا بديل عن الدين :

ومن الناس مَن يتصور إمكان الاستغناء عن الدين بالعلم الحديث حيناً ، أو المذاهب الفكرية « الأيديولوچيات » الحديثة حيناً آخر .

وكلا التصورين خطأ .

فقد بيَّن الواقع الناطق أنه لا شىء يغنى عن الدين ، ويقوم بديلاً عنه فى أداء رسالته الضخمة فى حياةِ الإنسان .

❋ العلم ليس بديلاً عن الدين :

أما العلم فليس بديلاً عن الدين والإيمان بحال . فإن مجال العلم غير مجال الدين . وأريد بـ « العلم » هنا العلم بمفهومه الغربى المحدود ، لا بمفهومه الإسلامى الشامل - الذى يشمل العلم بالظواهر الجزئية للكون ، والعلم

(١) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ص ١٥ - ١٦

بحقائق الوجود الكبرى – أى ما يشمل علم الدنيا ، وعلم الدين . فليس هو علم المادة وخواصها فحسب ، بل العلم المتعلق بالكون والحياة والإنسان ، وخالقها سبحانه .

العلم بالمفهوم الغربى لا يصلح بديلاً عن الدين ، لأن مهمة هذا العلم أن يُيسِّر للإنسان أسباب الحياة ، لا أن يفسِّر له ألغازها . العلم يعين الإنسان على حل مشكلة العيش ، ولكن لا يعينه على حل مشكلة الوجود وقضاياه الكبرى .

ولهذا نرى أعظم البلاد فى عصرنا تقدماً فى العلم ، وأخذاً بأسبابه ، يشكو أهلها من الفراغ الروحى ، والقلق النفسى ، والاضطراب الفكرى ، والشعور الدائم بالتفاهة والاكتئاب والضياع . ونرى شبابها ينقلبون بين شتَّى البِدع الفكرية والسلوكية ، ثائرين على آلية الحياة ، ومادية الحضارة ، وإن لم يهتدوا إلى المنهج السليم ، والصراط المستقيم .

وهذا هو سر العوج والشذوذ والانحرافات ، التى لمسها العالَم كله فى سلوك أولئك الشباب الحائرين ، الذين يسمونهم « الخنافس » أو « الهيبيين » وأشباههم ممن ضاق ذرعهم بتفاهة العيش ، وتمردوا على حضارة الغرب وإن نشأوا بين أحضانها .

إن العلم الحديث محدود الوسع ، محدود القُدرة ، محدود المجال .

فى وسع العلم أن يمنح الإنسان الوسائل والآلات ، ولكن ليس فى وسعه ولا من اختصاصه أن يمنحه الأهداف والغايات ، وما أتعس الإنسان إذا تكدَّست لديه الوسائل دون أن يعرف لنفسه هدفاً ولا لحياته قيمة ، إلا أهداف السباع فى العدوان ، أو أهداف البهائم فى الأكل والسِفاد . أما هدف رفيع يليق بمواهب الإنسان ، وخصائص الإنسان ، وكرامة الإنسان ، فلا .

إن الدين وحده هو الذى يمنح الإنسان أهدافاً عليا للحياة وغايات كبرى للوجود ، ويجعل له فيه مهمة ورسالة ، ولحياته قيمة واعتباراً ، كما يمنحه

القِيَم الخُلُقية والمُثُل العليا التى تحبسه عن الشر ، وتحفزه على الخير ، لغير منفعة مادية عاجلة . .

لقد قوى العلم الجانب المادى فى الإنسان إلى أبعد حد ، ولكنه أضعف الجانب الروحى فيه إلى أدنى مستوى .

فقد أعطى العلم الإنسان جناحى طائر فحلَّق فى الفضاء ، وأعطاه خياشيم حوت فغاص فى أعماق الماء ، ولكنه لم يعطه قلب إنسان !

وحين يعيش الإنسان فى الحياة بغير « قلب الإنسان » تستحيل أدوات العلم فى يديه إلى مخالب وأنياب تقتل وتُرهب ، وإلى معاول وألغام تنسف وتُدمِّر .

تستحيل أدوات العلم إلى أسلحة نووية ، وقنابل نابالم ، وغازات سامة ، وأسلحة كيماوية وجرثومية تنشر الموت والخراب عند استعمالها ، وتشيع الذعر والخوف قبل استعمالها (١) .

أجل . . قد استطاع العلم أن يضع قدم الإنسان على سطح القمر ، ولكنه لم يملك أن يضع يده على سر وجوده وغاية حياته !

لقد اكتشف الإنسان بالعلم « أشياء » كثيرة ، ولكنه لم يكتشف حقيقة نفسه ! أوصله علم القرن العشرين إلى القمر . ولكن لم يوصله إلى السعادة والطمأنينة على ظهر الأرض ! جلب من هناك بعض الصخور والأتربة ، ولكنه لم يجد هناك ما يُخرجه من التعاسة والقلق والضياع فى كوكبه !

أصلح العلم ظاهر الإنسان ، وعجز عن إصلاح باطنه ، لم يستطع أن ينفذ إلى تلك « اللطيفة الربانية » المدركة الواعية ، الشاعرة الحسَّاسة ، التى إذا صلحت صلح الإنسان كله ، وإذا فسدت فسد الإنسان كله ، ألا وهى القلب ، أو النفس ، أو الروح ، سمها ما شئتَ ، فهى حقيقة الإنسان !

---

(١) انظر : كتاب « الأسلحة الكيماوية والجرثومية » تأليف الدكتور نبيل صبحى ، لترى ما يحضِّره أعداء الإنسانية لإفناء الأحياء بسلطان العلم ومقدرة العلماء !! نشرته « مؤسسة الرسالة » ببيروت .

أعطى العلم إنسان القرن العشرين سلاحاً انتصر به على بعض قُوَى الطبيعة ، ولم يعطه ما ينتصر به على نفسه : على شهواته ، وشكه ، وقلقه ، وخوفه ، وتخبطه ، وصراعه الداخلى والاجتماعى .

لقد تقدَّم الطب الحديث والجراحة إلى أقصى حدودهما فى هذا القرن ، وبدأ الأطباء يقولون : إن العلم يستطيع القضاء على كل مرض غير الموت والشيخوخة !! ولكن الأمراض تكثر وتتشعب وتنتشر بسرعة مذهلة ، ومنها « الأمراض العصبية » و« النفسية » التى هى نتائج وأعراض « التناقض » الشديد الذى يمر به الفرد والمجتمع . وسر ذلك أن العلم المادى - على سعته واكتشافاته - لم يعرف حقيقة الإنسان ، الذى عرف المادة وقوانينها ، ولكنه لم يعرف نفسه ، ولا غرو أن كتب أحد أقطاب العلم « ألكسيس كاريل » كتابه الشهير : « الإنسان ذلك المجهول » .

ومن هنا حاول العلم الحديث أن يغذى كل الجوانب المادية فى الجسم الإنسانى ، ولكنه فشل فى تغذية النفس الإنسانية مما فيها من شعور وأمانى وإرادة . . . وكانت حصيلة ذلك جسماً طويل القامة ، قوى العضلات ، ولكن الجانب الآخر - وهو أصل الإنسان - أصبح يعانى من أزمات لا حل لها .

لقد أكدت إحصائية : أن ثمانين فى المائة (٨٠٪) من مرضى المدن الأمريكية الكبرى يعانون أمراضاً ناتجة عن أزمات نفسية وعصبية من ناحية أو أخرى .

ويقول علم النفس الحديث : إن من أهم جذور هذه الأمراض النفسية : الكراهية والحقد والخوف والإرهاق واليأس والترقب والشك والآثرة والانزعاج من البيئة ، وكل هذه الأعراض تتعلق مباشرة بالحياة المحرومة من الإيمان بالله [١] .

---

(١) انظر : كتاب « الإسلام يتحدى » للأستاذ وحيد الدين خان ، وكتابنا « الإيمان والحياة » - أثر الإيمان فى حياة الفرد .

● الفلسفة ليست بديلاً عن الدين :

لقد تبين لنا أن إنسان العلم الحديث هو « ذلك المجهول » الذى لم يستطع العلم أن يسبر غوره ، وأن يتعرف على حقيقته ، وأن ينفذ إلى أعماقه ، كما بيَّن ذلك « ألكسيس كاريل » و« رينيه دوبو » ، وغيرهما . لقد عرف العلم الجمادات أو المادة ، وحلَّلها واكتشف قوانينها ، ولكنه عجز عن معرفة الإنسان ، لأن الإنسان من التركيب والتعقيد بحيث لا يعرفه إلا مَن خلقه فسوَّاه : ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١) .

وما دام العلم يجهل الإنسان ، فلا يؤمل منه أن يُحسن توجيهه وتربيته والتشريع له ؛ بل بدا اليوم أن العلم - وبعبارة أدق : تطبيقاته التكنولوچية - أصبح خطراً على فطرة الإنسان ، وبيئة الإنسان .

و« إنسان الفلسفة » ليس أحسن حظاً من إنسان العلم ، والفلسفة رغم اهتمامها بالإنسان - منذ أنزلها « سقراط » من السماء إلى الأرض ووجَّه العقل الإنسانى إلى محاولة اكتشاف ذاته : اعرف نفسك - لم تتفق على رأى فى نظرتها إلى الإنسان : أهو روح أم مادة ؟ جسم يفنى أم روح يبقى ؟ عقل أم شهوة ؟ ملاك أم شيطان ؟ الأصل فيه الخير أم الشر ؟ . . أهو إنسان كما نراه ، أم ذئب مقنّع ؟ أهو أنانى أم غيرى ؟ أهو فردى أم جَماعى ؟ أهو ثابت أم متطور ؟ أتجدى فيه التربية أم لا تجدى ؟ أهو مختار أم مجبور ؟

اختلفت الفلسفات فى الإجابة عن هذه التساؤلات وتناقضت ، فلا تستطيع أن تخرج منها بطائل ، حتى قال شيخنا الدكتور عبد الحليم محمود - وهو أستاذ الفلسفة فى كلية أُصول الدين - قبل أن يكون شيخاً للأزهر : « الفلسفة لا رأى لها ، لأنها تقول الرأى وضده ، والفكرة ونقيضها » .

هنا نجد الفلسفة الإلهية مناقضة للفلسفة المادية ، والفلسفة المثالية مناقضة

---

(١) الملك : ١٤

للفلسفة الواقعية ، وفلسفة الواجب معارضة لفلسفة المنفعة أو اللّذة ، إلى آخر ما نعرفه من تناقضات فى الساحة الفلسفية ، فهذا يثبت ، وذاك ينفى ، وهذا يبنى ، وذاك يهدم .

ومن هنا لا تستطيع الفلسفة وحدها أن تهدى الإنسان سبيلاً أو تشفى له غليلاً ، أو تمنحه منهجاً يركن له ويطمئن إليه ، ويقيم حياته على أساسه .

وأبعد الفلسفات عن هداية الإنسان وإسعاده هى الفلسفات المادية ، التى تنكر أن للكون إلهاً ، وأن للإنسان روحاً ، وأن وراء الدنيا آخرة . وعلى رأس هذه الفلسفات : الفلسفة الماركسية القائمة على المادية الجدلية ، والتى تتبنى مقولة بعض الفلاسفة الماديين : ليس صواباً أن الله خلق الإنسان ، بل الصواب أن الإنسان هو الذى خلق الله !!

ومثل ذلك : الفلسفات العبثية والعدمية والشكية ، فكلها فلسفات تهدم ولا تبنى ، وتميت ولا تحيى .

ويبين شيخنا الدكتور دراز الفرق بين الفلسفة والدين ، فيرى أن الفلسفة فكرة هادئة باردة ، أما الدين فهو قوة دافعة ، فعالة ، خلاقة ، لا يقف فى سبيلها شىء فى الكون إلا استهانت به أو تبلغ هدفها .

ذلك هو فصل ما بين الفلسفة والدين ، غاية الفلسفة المعرفة ؛ وغاية الدين الإيمان ، مطلب الفلسفة فكرة جافة ، ترتسم فى صورة جامدة ؛ ومطلب الدين روح وثابة ، وقوة محركة .

لا نقول كما يقول كثير من الناس : إن الفلسفة تخاطب العقول ؛ وإن الدين فى كل أوضاعه لا يقنع بعمل العقل قليلاً أو كثيراً حتى يضم إليه ركون القلب .

الفلسفة تعمل إذاً فى جانب من جوانب النفس ، والدين يستحوذ عليها فى جملها . ومن هنا يستنبط فرق دقيق بين الفلسفة والدين :

ذلك أن غاية الفلسفة نظرية ، حتى فى قسمها العملى ، وغاية الدين عملية ، حتى فى جانبه العلمى ، فأقصى مطالب الفلسفة أن تعرفنا الحق والخير ما هما ؟ وأين هما ؟ ولا يعنيها بعد ذلك موقفنا من الحق الذى تعرفه ، والخير الذى تحدده . أما الدين فيعرفنا الحق لا لنعرفه فحسب ، بل لنؤمن به ونحبه ونمجده ، ويعرفنا الواجب لنؤديه ونوفيه ، ونكمل نفوسنا بتحقيقه .

ثم يبين شيخنا أن الدين حركة شعبية (ديمقراطية) عامة ، والفلسفة حركة (أرستقراطية) خاصة . فالدين يسعى بطبيعته إلى الانتشار ، والفلسفة تجنح إلى العزلة ، داعية الدين وسط الجماهير ، ورجل الفلسفة فى برجه العاجى ، فإذا رأيت فيلسوفاً يدعو إلى مذهبه فقد تغير وضعه ، وتحولت فكرته إلى إيمان ، وإذا رأيت مؤمناً لا يهتم إلا بنفسه فقد استحالت نار إيمانه إلى رماد .



● **تفنيد مقولة (الدين أفيون الشعوب) :**

أما دعوى الماركسيين : أن الدين (أفيون الشعوب) يفعل فى عقولها ما تفعله المخدرات بالأفراد ، ويشغلهم عن حقوقهم المسلوبة ، بأمانى الآخرة ، ويخضعهم لإرادة الظلمة والطغاة ، فيطيعونهم وهم راضون - فهى دعوى مردودة .

ذلك أن الدين الصحيح لا يُخدِّر الشعب ، ولا يلهيه عن المطالبة بحقه فى الدنيا ، استغراقاً بطلب النعيم فى الآخرة ! الدين الصحيح لا يقر الظلم ، ولا يرضى بالفساد والانحراف ، فإن صح هذا الادعاء فى شأن بعض الأديان ، فلا يصح بحال فى شأن الإسلام .

الإسلام فى الحقيقة ثورة إنسانية كبرى ، ثورة لتحرير الإنسان - كل إنسان - من العبودية والخضوع لغير خالقه . ثورة فى عالَم الفكر والضمير والشعور ، وثورة فى عالَم الواقع والتطبيق .

وكان عنوان هذه الثورة هى هذه الكلمة العظيمة ، كلمة التوحيد : « لا إله إلا الله » فكل مدّع أو متعاط للألوهية فى الأرض ، بالقول أو بالفعل ، هو مزوِّر لا وجود له ، ولا يستحق البقاء . وكل الذين زعموا لأنفسهم - أو زعم لهم بعض الناس - أنهم أرباب مع الله ، أو من دون الله ، يجب أن يسقطوا إلى الأبد ، ويتواروا عن مسرح الحياة .

الناس إذن سواسية ، لا يجوز أن يستعبد بعضهم بعضاً ، أو يطغى بعضهم على بعض ، فإذا ظلم بعض الناس وطغى وأفسد ، كان على الناس أن يعترضوا طريقه ، ويأخذوا على يديه ، وإلا كانوا شركاءه فى الإثم واستحقاق العقوبة العادلة من الله .

يقول القرآن الكريم : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ (١) .

ويقول : ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ، وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (٢) .

ويقول الرسول ﷺ : « إن الناس إذا رأوا الظالم ولم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقاب من عنده » (٣) .

ويوجب على كل مَن رأى منكراً - أى ظلماً أو فساداً أو انحرافاً - أن يعمل على تغييره بكل ما يستطع من قوة : « مَن رأى منكم منكراً فليغيِّره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » (٤) .

والتغيير بالقلب - الذى هو أدنى الدرجات وأضعف الإيمان - ليس أمراً سلبياً تافهاً . إنها جمرة الغضب والكراهية للفساد والمنكر تتوهج وتتقد فى

---

(١) هود : ١١٣ (٢) الأنفال : ٢٥

(٣) رواه أبو داود والترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

(٤) رواه مسلم وغيره .

الجوانح حتى تجد الفرصة للتغيير بالقول أو الفعل ، باللسان أو اليد ، وأدنى ثمراته العاجلة النفور من الظَلَمة والمفسدين والمقاطعة لهم ، فلا يؤاكلهم ولا يشاربهم ، ولا يجالسهم ولا يصاحبهم .

وقد عَدَّ النبى ﷺ مقاومة الظلم والفساد الداخلى ، كمقاومة الغزو والعدوان الخارجى ، كلاهما جهاد فى سبيل الله ، بل حين سُئِل : أى الجهاد أفضل ؟ قال : « كلمة حق عند سلطان جائر » (١) ، فاعتبر ذلك أفضل الجهاد وأعلاه .

فهذا دين يحرِّض على مقاومة الظلم حتى الموت ، ويعدّ الميت فى سبيل ذلك شهيداً فى سبيل الله ، بل فى طليعة الشهداء المرموقين ، بجوار حمزة ابن عبد المطلب ، سيد الشهداء ، كما قال عليه الصلاة والسلام :

« سيد الشهداء حمزة ، ورجل قام إلى إمام جائر ، فأمره ونهاه فقتله » (٢) .

إن الإسلام يُربِّى المسلم على الشعور بالكرامة وعزة النفس ، ويجعل ذلك من خصائص الإيمان وآثاره : ﴿ وَلله الْعزَّةُ وَلرَسُوله وَللْمُؤْمنينَ ﴾ (٣) ، بل من خصائص الإنسانية ولوازمها : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنى آدَمَ ﴾ (٤) .

ولهذا يبرأ الإسلام مِن كل مَن يرضى لنفسه بالذل والمهانة ، ويصبر على القيد يوضع فى رِجله ، أو الغل يوضع فى عنقه دون أن يقاوم الظلم ، أو يحاول التخلص منه ، ولو بالهجرة إلى أرض الله الفسيحة . يقول القرآن :

﴿ إنَّ الَّذينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئكَةُ ظَالمى أَنفُسهمْ قَالُواْ فيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفينَ فى الْأَرْضِ ، قَالُوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ الله وَاسعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ، فَأُوْلَئكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَسَاءَتْ مَصيراً ﴾ (٥) .

---

(١) رواه النسائى بإسناد صحيح كما فى الترغيب .

(٢) رواه الحاكم والضياء عن جابر وحسَّنه الألبانى فى صحيح الجامع الصغير .

(٣) المنافقون : ٨ (٤) الإسراء : ٧٠ (٥) النساء : ٩٧

ويرد الرسول ﷺ منطق الاستسلام الجبرى أو السلبى لأحداث الحياة ووقائع الدهر ، باسم الإيمان بالقَدَر . ويعتبر ذلك ضرباً من العجز المذموم فى دين الله . إن النبى ﷺ قضى بين رجلين ، فقال المقضى عليه لما أدبر : حسبى الله ونِعْمَ الوكيل ! فقال النبى ﷺ : « إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس ، فإذا غلبك أمر ، فقل : حسبى الله ، ونِعْمَ الوكيل » (١) .

كره النبى ﷺ من الرجل أن يوارى عجزه بالحسبلة والحوقلة ، بدل أن يواجه الأمر بما ينبغى له من الحكمة والتفطن . فذِكْر الله فى غير موضعه عجز واستسلام .

ومن هنا جاء فى وصاياه صلى الله عليه وسلم : « المؤمن القوى خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف . . . احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز » (٢) .

وجاء فى أدعيته التى علَّمها لبعض أصحابه : « اللَّهم إنى أعوذُ بك من الهم والحزن ، وأعوذُ بك من العجز والكسل ، وأعوذُ بك من الجبن والبخل ، وأعوذُ بك من غلبة الدَّيْن وقهر الرجال » (٣) .

ففى هذا الدعاء استعاذة بالله تعالى من كل مظاهر الضعف التى تعترى الإنسان فتغلبه وتقهره وتذله .

ومثل ذلك ما جاء فى دعاء القنوت الذى يرويه ابن مسعود ، ويقرؤه الأحناف فى صلاة الوتر كل ليلة : « اللَّهم إنَّا نستعينك ونستهديك ونستغفرك ونتوب إليك ، ونؤمن بك ونتوكل عليك ، ونُثنى عليك الخير كله ، نشكرك

---

(١) رواه أبو داود برقم (٣٦٢٧) .

(٢) رواه مسلم ، والعجز : ترك ما يجب فعله بالتسويف ، والكيس ، العقل وحُسن التصرف .

(٣) رواه أبو داود برقم (١٥٥٥) ، وفى سنده راوٍ ليِّن الحديث ، ولكن المفردات المستعاذ منها ثبتت فى الصحاح .

ولا نكفرك ، ونخلع ونترك مَن يفجرك » . . فانظر ما تحمله هذه العبارة : « ونخلع ونترك مَن يفجرك » من تحريض سافر على خلع ومقاومة كل ظالم فاجر ، مهما تكن مكانته ومنصبه فى الناس .

فهل يقال فى مثل هذا الدين الذى يدعو إلى الثورة على الباطل والضعف والعجز والعبودية ، ويحرِّض على نُصرة الحق والقوة والحرية - إنه أفيون الشعب : يُخدِّره ويمنيه بنعيم الجنة ، ليسكت على مظالم حياته الدنيا ؟!!

لعل « ماركس » كان معذوراً حين قال ما قال ، لأنه لم يعرف الإسلام ، ولم يعرف موقفه من الظلم والبغى والفساد ، مع أن المنهج العلمى كان يُلزمه ألا يصدر حكمه عاماً شاملاً إلا بعد استقراء كامل ، ودراسة تامة لكل الأديان - أو للأديان الكبرى على الأقل - وأثرها فى الأمم على مدار التاريخ ، فإن لم يستطع كان عليه أن يحكم على الدين الذى عرفه لا على غيره . هذا هو مقتضى الأمانة العلمية ، والمنهج العلمى .



الباب الثانى
مقومات الإسلام

١ - العقيدة .

٢ - العبادة .

٣ - الأخلاق .

٤ - التشريع .

١ - العقيدة

العقيدة الإسلامية هى خاتمة العقائد السماوية ، وقد تكفل بيانها والتدليل عليها القرآن الكريم ، وسُنَّة الرسول العظيم ، متمثلة فى الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين .

هذه العقيدة هى التى تحل لغز الوجود ، وتُفسر للإنسان سر الحياة والموت وتُجيب عن أسئلته الخالدة : من أين ؟ وإلى أين ؟ ولِمَ ؟ هذه العقيدة ليست من مستحدثات الإسلام ، ولا مما ابتكره محمد عليه الصلاة والسلام ، إنها العقيدة المصفاة ، التى بُعِثَ بها أنبياء الله جميعاً ، ونزلت بها كتب السماء قاطبة ، قبل أن ينال منها التحريف والتبديل ، إنها الحقائق الخالدة التى لا تتطور ولا تتغير ، عن الله وعن صلته بهذا العالَم . . ما يبصره منه وما لا يبصره ، وعن حقيقة هذه الحياة ودور الإنسان فيها وعاقبته بعدها . إنها الحقائق التى علَّمها آدم لبنيه ، وأعلنها نوح فى قومه ، ودعا إليها هود وصالح ، عاداً وثمود ، ونادى بها إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وغيرهم من رُسُل الله ، وأكدها موسى فى توراته ، وداود فى زبوره ، وعيسى فى إنجيله .

كل ما فعله الإسلام ، هو أنه نقّى هذه العقيدة من الشوائب الدخيلة ، وصَفَّاها من الأجسام الغريبة ، التى أدخلتها العصور عليها ، فكدرت صفاءها ، وأفسدت توحيدها بالتثليث والشفاعات ، واتخاذ الأرباب من دون الله ، وأفسدت تنزيهها بالتشبيه والتجسيم ، ونسبة ما فى البَشر من قصور ونقص إلى الله تعالى علواً كبيراً ، وشوَّهت نظرتها إلى الكون والحياة والإنسان ، وعلاقته بالله ووحيه وما جاء به من تعاليم ، كما عرض الإسلام هذه العقيدة عرضاً جديداً ، يليق بالرسالة التى اقتضت حكمة الله أن تكون خاتمة الرسالات الإلَهية ، وأن تكون غاية لكل البَشر ، إلى قيام الساعة .

جاءت عقيدة الإسلام فنَقَّت فكرة التوحيد وكمال الألوهية مما شابها على مر العصور ، ونَقَّت فكرة النبوة والرسالة مما عراها من سوء التصور .

ونَقَّت فكرة الجزاء الأُخروى مما دخل عليها من أوهام الجاهلين ، وتحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، ودجل المشعوذين .

والعناصر الأساسية لهذه العقيدة هى : الإيمان بالله ، والإيمان بالنبوَّات ، والإيمان بالآخرة .

ويمكن أن تُجمل فى : الإيمان بالله واليوم الآخر ، والإيمان بالله يشمل الإيمان بوجوده ، والإيمان بوحدانيته ، والإيمان بكماله .



● **وجود الله تعالى :**

لقد قامت الأدلة على أن وراء هذا الكون قوة عُليا تحكمه وتُديره وتُشرف عليه ، سماها أحدهم « العلَّة الأولى » ، وسماها غيره « العقل الأول » ، وسماها ثالث : « المُحرِّك الأول » ، وسماها القرآن العربى المبين ، وكتب السماء بهذا الاسم الجامع لصفات الجمال والجلال : « الله » .

هذه القوة العُليا ، وبعبارة أُخرى : هذا الإلَهُ العظيم ، ليس فى استطاعة العقل البَشرى إدراك كُنهه ، ولا معرفة حقيقته ، كيف وقد عجز عن معرفة كُنه ذاته وعن كُنه النفس وحقيقة الحياة وكثير من حقائق الكون المادية من كهربية ومغناطيسية وغيرها ؟ وما عرف إلا آثارها ، فكيف يطمع فى معرفة ذات الله العلِّى الكبير ؟ ﴿ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ ، لَا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَاعْبُدُوهُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ * لَّا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ (١) . .

---

(١) الأنعام : ١٠٢ - ١٠٣

هذا الإلَهُ ليس إلَهَ فصيلة محدودة ، ولا إلَهَ شعب خاص ، ولا إلَهَ إقليم معين . وإنما هو ﴿ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (١) .. ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (٢) .. ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ (٣) .. ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَباًّ وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (٤) .

ولنستمع إلى ما قَصَّه القرآن علينا من حوار موسى وفرعون ليتبين لنا شمول ربوبيته سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضُ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إنْ كُنْتُمْ مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ * قَالَ إنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٥) ..

وقد دلَّل القرآن على وجود الله بطرق عديدة :

١ - فهو يلفت العقول والأذهان إلى ما فى الكون من آيات تنطق بأن وراءها صانعاً حكيماً . وهو قانون بدهى عند العقل الذى يؤمن بمبدأ « السببية » إيماناً طبيعياً لا يحتاج إلى اكتساب أو تدليل : ﴿ إنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٦) .

هذا الخلق لا بد له من خالق ، وهذا النظام لا بد له من مُنَظِّم :

---

(١) الفاتحة : ٢ وكثير من السور .
(٢) الكهف : ١٤
(٣) الشعراء : ٢٨
(٤) الأنعام : ١٦٤
(٥) الشعراء : ٢٣ - ٢٨
(٦) البقرة : ١٦٤

﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُواْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ ؟ (١) ، ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ (٢) .

٢ - ويستثير الفطرة الإنسانية السليمة التى بها يدرك المرء إدراكاً مباشراً أن له رباً وإلهاً قوياً عظيماً يكلؤه ويرعاه : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَتَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣) .

وإذا اختفت هذه الفطرة فى ساعات الرخاء واللَّهو فإنها تعود إلى الظهور عند الشدة والبأساء ، وسرعان ما يذوب الطلاء الكاذب ، وينكشف المعدن الأصيل للنفس البَشرية ، فتعود إلى ربها داعية متضرعة : ﴿ هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِى الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ المَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (٤) .

وتبدو هذه الفطرة حين يفاجأ الإنسان بالسؤال عن مصدر هذا الكون ومُدبِّره فلا يملك بفطرته إلا أن ينطق معلناً « الله » : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ (٥) .

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الحَىَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَىِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ، فَسَيَقُولُونَ اللهُ ، فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ، فَمَاذَا بَعْدَ الحَقِّ إِلاَّ الضَّلَالُ ، فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ (٦) .

---

(١) الطور : ٣٥ - ٣٦ (٢) طه : ٤٩ - ٥٠ (٣) الروم : ٣٠
(٤) يونس : ٢٢ (٥) العنكبوت : ٦١ (٦) يونس : ٣١ - ٣٢

٣ - ويستشهد القرآن بالتاريخ الإنسانى على أن الإيمان بالله وبرُسُله كان سفينة النجاة لأصحابه ، وأن التكذيب به وبرُسُله كان نذير الهلاك والبوار ، ففى نوح يقول : ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِى الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا ، إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ ﴾ (١) .

وفى هود يقول : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

وفى صالح وقومه ثمود يقول : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُواْ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ (٣) .

وفى رُسُل الله جميعاً يقول تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُواْ ، وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤) . .



● إنما الله إلَهٌ واحد :

وهو تعالى إلَهٌ واحد ليس له شريك ، ولا له مثيل فى ذاته أو صفاته أو أفعاله : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ (٥) . . ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ (٦) .

وكل ما فى الكون من إبداع ونظام يدل على أن مُبدعه ومُدبِّره واحد ، ولو كان وراء هذا الكون أكثر من عقل يُدبِّر ، وأكثر من يد تُنظِّم ، لاختل نظامه ، واضطربت سُننه ، وصدق الله : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتَا ،

---

(١) الأعراف : ٦٤ (٢) الأعراف : ٧٢ (٣) النمل : ٥٢ - ٥٣
(٤) الروم : ٤٧ (٥) سورة الإخلاص . (٦) البقرة : ١٦٣

فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (١) .. ﴿ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ، إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (٢) ..

هو تعالى واحد فى ربوبيته ، فهو ربُّ السَّموات والأرض ومَن فيهن وما فيهن ، خلق كل شيء فقدَّره تقديراً ، وأعطى كل شيء خَلْقَه ثم هدى ، ولا يستطع أحد من خلقه أن يَدَّعى أنه الخالق أو الرازق أو المدبِّر لذرَّة فى السماء أو فى الأرض : ﴿ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ (٣) .

وهو تعالى واحد فى أُلوهيته ، فلا يستحق العبادة إلا هو ، ولا يجوز التوجيه بخوف أو رجاء إلا إليه . فلا خشية إلا منه ، ولا ذُلَّ إلا إليه ، ولا طمع إلا فى رحمته ، ولا اعتماد إلا عليه ، ولا انقياد إلا لحكمه . والبَشر جميعاً - سواء أكانوا أنبياء وصدِّيقين أم ملوكاً وسلاطين - عباد الله ، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، فمن أَلَّهَ واحداً منهم ، أو خشع له وحنى رأسه ، فقد جاوز به قدره ، ونزل بقدر نفسه .

ومن ثَمَّ كانت دعوة الإسلام إلى الناس كافة وإلى أهل الكتاب خاصة : ﴿ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللهِ ﴾ (٤) ..

ومحمد نبى الإسلام لم يقل القرآن عنه إلا أنه : ﴿ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ (٥) .. ولم يقل هو عن نفسه إلا أنه « عبد الله ورسوله » (٦) .

---

(١) الأنبياء : ٢٢ (٢) المؤمنون : ٩١ (٣) الشعراء : ٢١١

(٤) آل عمران : ٦٤ (٥) آل عمران : ١٤٤

(٦) فى الصحيح : « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ولكن قولوا : عبد الله ورسوله » .

والأنبياء جميعاً ليسوا - فى نظر القرآن - إلا بشراً مثلنا ، اصطفاهم الله لحمل رسالته إلى خلقه ، ودعوتهم إلى عبادته وتوحيده .

ومن هنا كان عنوان العقيدة الإسلامية يتمثل فى هذه الكلمة العظيمة التى عُرِفت لدى المسلمين بكلمة « التوحيد » وكلمة « الإخلاص » وكلمة « التقوى » وهى : « لا إلَهَ إلا الله » .

كانت « لا إلَهَ إلا الله » إعلان ثورة على جبابرة الأرض وطواغيت الجاهلية ، ثورة على كل الأصنام والآلهة المزعومة من دون الله : سواء أكانت شجراً أم حجراً أم بشراً .

وكانت « لا إلَهَ إلا الله » نداءً عالَمياً لتحرير الإنسان من عبودية الإنسان والطبيعة وكل مَن خَلَقَ الله وما خَلَقَ الله .

وكانت « لا إلَهَ إلا الله » عنوان منهج جديد ، ليس من صنع حاكم ولا فيلسوف ، إنه منهج الله الذى لا تعنو الوجوه إلا له ، ولا تنقاد القلوب إلا لحكمه ولا تخضع إلا لسلطانه .

وكانت « لا إلَهَ إلا الله » إيذاناً بمولد مجتمع جديد ، يغاير مجتمعات الجاهلية ، مجتمع متميز بعقيدته ، متميز بنظامه ، لا عنصرية فيه ولا إقليمية ولا طبقية ، لأنه ينتمى إلى الله وحده ، ولا يعرف الولاء إلا له سبحانه .

ولقد أدرك زعماء الجاهلية وجبابرتها ما تنطوى عليه دعوة « لا إلَهَ إلا الله » من تقويض عروشهم والقضاء على جبروتهم وطغيانهم وإعانة المستضعَفين عليهم ، فلم يألوا جهداً فى حربها ، وقعدوا بكل صراط يُوعِدون ويَصدُّون عن سبيل الله من آمَنَ ويبغونها عِوجاً .

لقد كانت مصيبة البَشرية الكبرى أن أناساً منهم جعلوا من أنفسهم أو جعل منهم قوم آخرون آلهة فى الأرض أو أنصاف آلهة ، لهم يخضع الناس ويخشعون ، ولهم يركعون ويسجدون ، ولهم ينقادون ويسلّمون .

لكن عقيدة التوحيد سمت بأنفس المؤمنين فلم يعد عندهم بشر إلَهاً ، ولا نصف إلَه ، أو ثلث إلَه ، أو ابن إلَه ، أو محلاً حلَّ فيه الإلَه !

ولم يعد بَشَرٌ يسجد لبَشر أو ينحنى لبَشر ، أو يُقبِّل الأرض بين يدى بَشر ، وهذا أصل الأُخوة الإنسانية الحقة . وأصل الحرية الحقة ، وأصل الكرامة الحقة ، إذ لا أُخوَّة بين عابد ومعبود ، ولا حرية لإنسان أمام إلَه أو مُدَّعِى ألوهية ، ولا كرامة لمن يركع أو يسجد لمخلوق مثله أو يتخذه حكماً من دون الله .



● **كمال الله تعالى :**

ولا بد مع الإيمان بوجود الله ووحدانيته من الإيمان بأنه تعالى متصف بكل كمال يليق بذاته الكريمة ، منزه عن كل نقص : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ (١) .. ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ (٢) .

دلَّ على ذلك : هذا الكون البديع وما فيه من إحكام عجيب ، وهدت إلى ذلك الفطرة البَشرية النيِّرة ، وفصَّلت ذلك رسالات الله تعالى إلى أنبيائه .

فهو سبحانه العليم الذى لا يخفى عليه شىء : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (٣) ..

وهو العزيزُ الفعَّالُ لما يريد ، الذى لا يغلبه شىء ، ولا يقهر إرادته شىء : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ، بِيَدِكَ الخَيْرُ ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٤) ..

---

(١) الإخلاص : ٣ - ٤
(٢) الشورى : ١١
(٣) الأنعام : ٥٩
(٤) آل عمران : ٢٦

وهو القدير الذى لا يُعجزه شىء . يُجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويُحيى العظام وهى رميم ، ويُعيد الخلق كما بدأهم أول مرة وهو أهون عليه : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) . .

وهو الحكيم الذى لا يخلق شيئاً عبثاً ، ولا يترك شيئاً سُدى ، ولا يفعل فعلاً ، أو يُشرِّع شرعاً إلا لحِكَم ، عرفها من عرفها وجهلها من جهلها . وهذا ما شهد به الملائكة فى الملأ الأعلى : ﴿ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الحَكِيمُ ﴾ (٢) .

وما شهد به أنبياء الله وأولياؤه ، وأُولو الألباب من عباده : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ ﴾ (٣) . .

وهو الرحيم الذى سبقت رحمته غضبه ، ووسعَتْ رحمته كل شىء ، كما وسِعَ علمه كل شىء ، وقد حكى القرآن دعاء الملائكة : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً ﴾ (٤) . . وقال : ﴿ عَذَابِى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ (٥) . . وقد بدأ سور القرآن بـ : ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ للدلالة على سعة رحمته وتقوية الرجاء فى قلوب عباده ، وإن تورَّطوا فى الذنوب والآثام : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَى أنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ من رَّحْمَةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٦) . .

الإلَه فى الإسلام ليس بمعزل عن هذا الكون وما فيه ومَن فيه كإلَه أرسطو الذى سمَّاه « المُحرِّك الأول » أو « العِلَّة الأولى » ووصفه بصفات كلها

---

(١) الملك : ١ (٢) البقرة : ٣٢ (٣) آل عمران : ١٩١

(٤) غافر : ٧ (٥) الأعراف : ١٥٦ (٦) الزمر : ٥٣

« سُلوب » لا فاعلية لها ولا تأثير ، ولا تصريف ولا تدبير ، فإن هذا الإلَه - كما صوَّرته الفلسفة الأرسطية - لا يعلم إلا ذاته ، ولا يدرى شيئاً عما يدور فى هذا الكون العريض .

إلَه أرسطو والفلسفة اليونانية لم يخلق هذا الكون من عدم ، بل العالَم عندهم أزلى غير مُحْدَث ولا مخلوق .

وإلَه أرسطو لا صلة له بهذا العالَم ، ولا عناية له به ، ولا يُدبِّر أمراً فيه ، لأنه لا يعلم ما يجرى فيه مما يلج فى الأرض أو يخرج منها ، وما ينزل من السماء أو يعرج فيها . كل ما يقوله أرسطو ومن تبعه عن الإلَه أنه ليس بجوهر ولا عَرَض ، وليس له بداية ولا نهاية ، وليس مُركَباً ولا جزءاً من مُركَب وليس داخل العالَم ولا خارجه ، ولا متصلاً به ولا منفصلاً عنه ، وهذه السلبيات لا تجعل الإلَه كائناً يُرجى ويُخشى ، ولا تربط الناس بربهم رباطاً محكماً يقوم على المراقبة والتقوى والثقة والتوكل والخشية والمحبة .

هذا الإلَه المعزول عن الكون ، الذى عرفه الفكر اليونانى ، وعنه انتقل إلى الفكر الغربى الحديث - لا يعرفه الإسلام ، وإنما يعرف إلهاً : ﴿ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى * وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ (١) .. ﴿ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، الْحَىُّ الْقَيُّومُ ، لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ، لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ، مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ، وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ، وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ، وَلَا يَؤُدُهُ حِفْظُهُمَا ، وَهُوَ الْعَلِىُّ الْعَظِيمُ ﴾ (٢) ..

---

(١) طه : ٤ - ٨ (٢) البقرة : ٢٥٥

الإله فى الإسلام هو خالقُ كل شىء ، ورازقُ كل حى ، ومُدبِّرُ كل أمر ، أحاط بكل شىء علماً ، وأحصى كل شىء عدداً ، ووسعَ كل شىء رحمة ، خلق فسوَّى ، وقدَّر فهدى ، يَسمع ويَرى ، ويَعلمُ السر والنجوى : ﴿ مَا يَكُونُ من نَّجْوَى ثَلاثَة إلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ ولاَ خَمْسَةَ إلاَّ هُوَ سَادسُهُمْ ولاَ أدْنَى منْ ذَلكَ ولاَ أكْثَرَ إلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أيْنَ مَا كَانُواْ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ الْقِيَامَة ﴾ (١) . .

له الخَلْقُ والأمر ، وبيده ملكوت كل شىء ، يُولِج اللَّيلَ فى النهار ، ويولِج النهارَ فى اللَّيلِ ، ويُخرجُ الحَىَّ مِنَ المَيِّتِ ، ويُخرجُ الميتَ من الحىِّ ، ويرزقُ من يشاءُ بغير حساب .

الكون كله : عاليه ودانيه ، ناطقه وصامته ، أحياؤه وجماداته ، أفلاكه ونجومه . . كلها خاضع لأمر الله ، منقاد لقانون الله ، شاهد بوحدانيته وعظمته ، ناطق بآيات علمه وحكمته ، دائم التسبيح بحمده : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِن مِّنْ شَىْءٍ إلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْده وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ (٢) .

إنَّ تسبيح الكون لله ، وسجوده لله ، حقيقة كبيرة ، عميت عنها أعين ، وصمت عنها آذان ، ولكنها تجلت للذين ينظرون بأعين بصائرهم ، ويسمعون بآذان قلوبهم ، فإذا هم يرون الوجود كله محراباً ، والعوالم كلها ساجدة خاشعة ، ترتل آيات التسبيح والثناء على العزيز الحكيم ، الرحمن الرحيم : ﴿ وَلله يَسْجُدُ مَن فِى السَّمَوَات وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَال ﴾ (٣) . . ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فى السَّمَوَات وَمَن فى الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالجبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثيرٌ مِّنَ النَّاسِ ﴾ (٤) . . ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ العَزِيزُ

(١) المجادلة : ٧ (٢) الإسراء : ٤٤
(٣) الرعد : ١٥ (٤) الحج : ١٨

الحَكِيمُ * لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، يُحْيِي وَيُمِيتُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١) . .



● الإيمان بالنبوَّات :

والإيمان بالنبوَّة ليس بالأمر العجيب بعد الإيمان بكمال الله وحكمته ورحمته ورعايته للكون وتدبيره للعالَم ، وتكريمه للإنسان ، بل هذا الإيمان فرع عن ذلك ولا بد ، فما كان الله ليخلق الإنسان ، ويُسَخِّر له ما فى الكون جميعاً ، ثم يتركه يتخبط على غير هُدَى ، بل كان من تمام الحكمة أن يهديه سبيل الآخرة كما هداه سبيل الحياة الدنيا ، وأن يُهيئ له زاده الروحى ، كما هيأ له زاده المادى ، وأن ينزل الوحى من السماء ليحيى به القلوب والعقول ، كما أنزل من السماء ماءً لتحيا به الأرض بعد موتها .

ما كان من الحكمة أن يُترك الإنسان لنفسه تتنازع الفرد قواه وملكاته المختلفة ، وتتنازع الجماعة أهواؤها ومصالحها المتضاربة ، وإنما كانت الحكمة فى عكس هذا . كانت الحكمة فى إرسال رُسُله بالبينات ، ليهدوا الناس إلى الله ، ويقيموا الموازين بالقسط بين العباد .

ولهذا استنكر رُسُل الله من قومهم أن يعجبوا لإرسال الله رسولاً عنه يُبلِّغهم بأمره ونهيه ، فيقول نوح : ﴿ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّنْ رَّبِّ العَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (٢) . .

ويقول هود لقومه ما يقرب من هذه المقالة .

---

(١) الحديد : ١ - ٣ (٢) الأعراف : ٦١ - ٦٣

ويقول القرآن رداً على المشركين الجاحدين برسالة محمد ﷺ :

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، قَالَ الكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ (١) . .



والهداية بالوحى هى أعلى مراتب الهداية التى منحها الله للإنسان .

فهناك الهداية الفطرية الكونية ، وهى التى عَبَّر عنها أحد العلماء حين قيل له : متى عَقَلْتَ ؟ قال : منذ نزلتُ من بطن أمى ، جُعتُ فالتقمتُ الثدىَ ، وتألمتُ فبكيتُ !!

وهذه الهداية ليست خاصة بالإنسان ، بل تشمل الحيوان والطير والحشرات وهى التى عَبَّرَ عنها بالوحى فى شأن النحل : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ (٢) بل هى منبثة فى أجزاء الكون كله : فى النبات الذى يمتص غذاءه من عناصر الأرض بنسب محدودة وقدر معلوم ، وفى الكواكب التى يسير كل منها فى مداره الذى لا يتعداه ، وفق قانون لا يتخطاه : ﴿ لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (٣) فهى هداية عامة للمخلوقات علويها وسفليها ، ولهذا ذكر لنا القرآن جواب موسى لفرعون قال : ﴿ فَمَن رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ * قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ * الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ (٥) .

---

(١) يونس : ٢ — (٢) النحل : ٦٨ — (٣) يس : ٤٠

(٤) طه : ٤٩ - ٥٠ — (٥) الأعلى : ١ - ٣

والمرتبة الثانية للهداية مرتبة الحواس الظاهرة كالسمع والبصر والشم والذوق ، والباطنة كالجوع والعطش والفرح والحزن ، وهذه المرتبة أرقى من الأولى ، ففيها نوع من الانتباه ، وقدر من الإدراك ، وإن كانت لا تسلم من الخطأ ، كما نرى في السراب الذى يحسبه الرائى ماءً ، وفى الظل الذى يظنه ساكناً وهو متحرك .

والمرتبة الثالثة : هداية العقل بملكاته وقواه المختلفة ، وهو أرقى رتبة من الحواس وإن كان كثيراً ما يعتمد على الحس فى الحكم والاستنباط . وبذلك يتعرض للخطأ ، كما يتعرض له فى ترتيب المقدمات واستخلاص النتائج . والعقل فى عملياته العُليا من خصائص الإنسان ، التى تَفرَّد بها عن الحيوان .

والمرتبة الرابعة : هى هداية الوحى ، وهى التى تصحح خطأ العقل ، وتنفى وهم الحواس ، وترسم الطريق إلى ما لا سبيل للعقل أن يصل إليه وحده ، وترفع الخلاف فيما لا يمكن أن تتفق عليه العقول .

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ ، وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِهِ ، وَاللهُ يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) ، ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (٢) .



● الإيمان بالآخرة :

أهذا ملخص قصة الحياة والإنسان ؟ أرحام تدفع وأرض تبلع ولا شىء بعد هذا ؟ أو كما عبَّر القرآن عن قوم : ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (٣) .

(١) البقرة : ٢١٣ (٢) الحديد : ٢٥ (٣) المؤمنون : ٣٧

إذن فما سر هذا الشعور الخفى ، والوجدان الكامن الذى يغمر فطرة الإنسان من قديم الزمن بأنه لم يُخلق لمجرد هذه الحياة ، ولتلك المدة القصيرة ؟ ما سر هذا الشعور بأن الإنسان فى هذه الدنيا غريب أو عابر سبيل وأنه ضيف يوشك أن يرتحل إلى دار إقامة ؟

هذا الشعور الذى رأيناه عند قدماء المصريين فحنطوا - استجابة له - جثث الموتى ، وبنوا الأهرام ، والذى ظهرت آثاره فى أُمم شتَّى بأساليب مختلفة .

ثم كيف يسيغ العقل أن ينفضَّ سوق هذه الحياة وقد نهب فيها من نهب ، وسرق فيها من سرق ، وقتل فيها من قتل . وبغى فيها من بغى ، وتجبر من تجبر ، ولم يأخذ أحد من هؤلاء عقابه ، بل تستر واختفى فأفلت ونجا . . أو تمكن من إخضاع الناس له بسيف القهر والجبروت .

وفى الجانب الآخر : كم أحسن قوم ، وضحوا وجاهدوا ولم ينالوا جزاء ما قدموا ، إما لأنهم كانوا جنوداً مجهولين ، أو لأن الحسد والحقد جعل الناس يتنكرون لهم بدل أن يعرفوا فضلهم ، أو لأن الموت عاجلهم قبل أن ينعموا بثمرة ما عملوا من خير . وكم من قوم دعوا إلى الحق ، واستمسكوا به ، ودافعوا عنه ، فوقف الظالمون فى طريقهم ، وأُوذوا وعُذبوا واضطُهدوا وشُردوا ، وسقطوا صرعى فى سبيله . وأعداؤهم الطغاة فى أمن وعافية بل فى ترف ونعيم .

ألا يسيغ العقل - الذى يؤمن بعدالة الإلَه الواحد - بل يطلب ، أن توجد دار أُخرى يُجزى فيها المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ؟ هذا ما تنطق به الحكمة السارية فى كل ذرَّة فى السموات والأرض : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّ يَوْمَ الفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١) ، ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ

(١) الدخان : ٣٨ - ٤٠

وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَوَيلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِى الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ (١) .

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُواْ السَّيِّئَاتِ أَنْ نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ (٢) .

﴿ وَلله مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَاءُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِالْحُسْنَى ﴾ (٣) .

* *

أما بعث الأحياء بعد الموت فليس بعزيز على من خلقهم أول مرة :

﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ، وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ (٤) .

* *

● خصائص العقيدة الإسلامية :

١ – عقيدة واضحة :

للعقيدة الإسلامية مزايا لا تتوافر لغيرها من العقائد . . .

فهى عقيدة واضحة بسيطة لا تعقيد فيها ولا غموض ، تتلخص فى أن وراء هذا العالَم البديع المنسق المحكم رباً واحداً خلقه ونظمه . وقدر كل شىء فيه تقديراً ، وهذا الإله أو الرب ليس له شريك ولا شبيه ولا صاحبة ولا ولد : ﴿ بَل لَّهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴾ (٥) .

---

(١) سورة ص : ٢٧ – ٢٨ (٢) الجاثية : ٢١ – ٢٢ (٣) النجم : ٣١

(٤) الروم : ٢٧ (٥) البقرة : ١١٦

وهذه عقيدة واضحة مقبولة ، فالعقل دائماً يطلب الترابط والوحدة وراء التنوع والكثرة ، ويريد أن يُرجع الأشياء دوماً إلى سبب واحد .

فليس فى عقيدة التوحيد ما فى عقائد التثليث أو المثنوية ونحوها من الغموض والتعقيد الذى يعتمد دائماً على الكلمة المأثورة عند غير المسلمين : « أعتقد وأنت أعمى » .

٢ - عقيدة الفطرة :

وهى عقيدة ليست غريبة عن الفطرة ولا مناقضة لها ، بل هى منطبقة عليها انطباق المفتاح المحدد على قفله المحكم ، وهذا هو صريح القرآن : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَتَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .. وصريح الحديث النبوى : « كل مولود يُولَدُ على الفطرة - أى على الإسلام - وإنما أبواه يُهَوِّدانه أو يُنَصِّرانه أو يُمَجِّسانه » (٢) . فدل على أن الإسلام هو فطرة الله ، فلا يحتاج إلى تأثير من الأبوين .

أما الأديان الأُخرى من يهودية ونصرانية ومجوسية فهى من تلقين الآباء والأمّهات .

٣ - عقيدة ثابتة :

وهى عقيد ثابتة محددة لا تقبل الزيادة والنقصان ، ولا التحريف والتبديل فليس لحاكم من الحكام ، أو مجمع من المجامع العلمية ، أو مؤتمر من المؤتمرات الدينية ، أن يُضيف إليها أو يُحوِّر فيها ، وكل إضافة أو تحوير مردودة عل صاحبها ، والنبى ﷺ يقول : « مَن أحدث فى أمرنا ما ليس منه فهو رد » (٣) أى مردود عليه .

---

(١) الروم : ٣٠ (٢) متفق عليه . (٣) متفق عليه .

والقرآن يقول مستنكراً : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ ﴾ (١) . . وعلى هذا فكل البدع والأساطير والخرافات التى دُسَت فى بعض كتب المسلمين أو أُشيعت بين عامتهم باطلة مردودة لا يقرها الإسلام ولا تؤخذ حجة عليه .

٤ - عقيدة مبرهنة :

وهى عقيدة « مبرهنة » لا تكتفى من تقرير قضاياها بالإلزام المجرد والتكليف الصارم ، ولا تقول كما تقول بعض العقائد الأُخرى : « أعتقد وأنت أعمى » أو « آمن ثم اعلم » أو « أغمض عينيك ثم اتبعنى » أو « الجهالة أم التقوى » ، بل يقول كتابها بصراحة : ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) ، ولا يقول أحد علمائها ما قاله القديس الفيلسوف المسيحى « أوغسطين » : « أومن بهذا لأنه محال » ! بل يقول علماؤها : إن إيمان المقلِّد لا يُقبل .

وكذلك لا تكتفى بمخاطبة القلب والوجدان والاعتماد عليهما أساساً للاعتقاد ، بل تتبع قضاياها بالحجة الدامغة ، والبرهان الناصع ، والتعليل الواضح ، الذى يملك أزمة العقول ، ويأخذ الطريق إلى القلوب ، ويقول علماؤها : إن العقل أساس النقل . . والنقل الصحيح لا يُخالِف العقل الصريح .

فنرى القرآن فى قضية الأُلوهية يُقيم الأدلة من الكون ومن النفس ومن التاريخ على وجود الله وعلى وحدانيته وكماله .

وفى قضية البعث يُدلِّل على إمكانه بخلق الإنسان أوَّل مرة ، وخلق السموات والأرض ، وإحياء الأرض بعد موتها ، ويُدَلِّل على حكمته بالعدالة الإلَهية فى إثابة المحسن ، وعقوبة المسىء :

---

(١) الشورى : ٢١ (٢) البقرة : ١١١ ، والنمل : ٦٤

﴿ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَاءُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِالْحُسْنَى ﴾ (١) .

٥ - عقيدة وسط :

وهى عقيدة وَسَط لا تجد فيها إفراطاً ولا تفريطاً . .

هى وَسَط بين الذين ينكرون كل ما وراء الطبيعة مما لم تصل إليه حواسهم ، وبين الذين يُثبتون للعالَم أكثر من إلَه ، بل يُحلِّون روح الإله فى الملوك والحكام ! بل فى بعض الحيوانات والنبات مثل الأبقار والأشجار ! فقد رفضت الإنكار الملحد ، كما رفضت التعديد الجاهل ، والإشراك الغافل ، وأثبتت للعالَم إلهاً واحداً ، لا إلَهَ إلا هو : ﴿ قُلْ لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لله ، قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لله ، قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لله ، قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ (٢) . .

وهى عقيدة وَسَط فى صفات الإله . .

فليس فيها الغلو فى التجريد الذى جعل صفات الإله مجرد سُلوب لا تعطى معنى ، ولا تُوحى بخوف أو رجاء - كما فعلت الفلسفة اليونانية - فكل ما وصفت به الإله أنه ليس بكذا وليس بكذا . . من غير أن تقول ما صفات هذا الإله الإيجابية ؟ وما أثرها فى هذا العالَم ؟

ويقابل هذا أنها خلت من التشبيه والتجسيم الذى وقعت فيه عقائد أُخرى كاليهودية ، التى جعلت الخالق كأحد المخلوقين من الناس ، ووصفته بالنوم والتعب والراحة ، والتحيز والمحاباة والقسوة . . و . . وجعلته يلتقى ببعض الأنبياء فيصارعه فيغلبه ويصرعه ، فلم يتمكن الرب من الإفلات منه حتى أنعم عليه بلقب جديد !

* * *

---

(١) النجم : ٣١ (٢) المؤمنون : ٨٤ - ٨٩

٢ – العبادة

● **مهمة الإنسان فى هذا الوجود :**

لماذا وجدتُ ؟ وما مهمتى فى هذا الوجود ؟ ورسالتى فى هذه الحياة ؟

سؤال واجب على الإنسان – كل إنسان – أن يسأله لنفسه ، وأن يفكر مليّاً فى جوابه .

فإن كل جهل – مهما عظمت نتائجه – قد يُغتفر ، إلا أن يجهل الإنسان سر وجوده ، وغاية حياته ، ورسالة نوعه وشخصه فى هذه الأرض !

وأكبر العار على هذا الكائن الذى أوتى العقل والإرادة – الإنسان – أن يعيش غافلاً ، يأكل ويتمتع كما تأكل الأنعام ، لا يفكر فى مصيره ، ولا يدرى شيئاً عن حقيقة نفسه ، وطبيعة دوره فى هذه الحياة حتى يوافيه الموت بغتة ، فيواجه مصيره المجهول ، دون استعداد له ، ويجنى ثمرة الغفلة والجهل والانحراف فى عمره الطويل أو القصير ، وحينئذ يندم حين لا ينفع الندم ويرجو الخلاص ولات حين مناص .

لهذا كان لزاماً على كل بَشر عاقل أن يبادر فيسأل نفسه بجد : لماذا خلقت ؟ وما غاية خلقى ؟

لماذا خلق الإنسان . . ؟

والجواب عن هذا السؤال عند المؤمنين حاضر ؛ ذلك أن كل صانع يعرف سر صنعته : لماذا صنعها ؟ ولماذا صنعها على نحو معين دون غيره ؟

والله تعالى هو صانع الإنسان وخالقه ومدبر أمره ، فلنسأله : يا رب لماذا خلقت هذا الإنسان ؟ هل خلقته لمجرد الطعام والشراب ؟ هل خلقته للهو واللعب ؟ هل خلقته لمجرد أن يمشى على التراب ، ويأكل مما خرج من التراب ، ثم يعود كما كان إلى التراب ، وقد ختمت القصة ؟ هل ليعيش تلك الفترة

القصيرة المعذبة ما بين صرخة الوضع وأنة النزع ؟ إذن فما سر هذه القوى والملكات التى أودعتها الإنسان من عقل وإرادة وروح ؟

وسيرد الله على تساؤلنا بما بيَّن لنا فى كتابه - كتاب الخلود - أنه خلقه ليكون خليفة فى الأرض - وهذا واضح فى آدم وما كان من تمنى الملائكة لمنزلته : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً ، قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

وأول شىء فى هذه الخلافة أن يعرف الإنسان ربه حق معرفته ويعبده حق عبادته ، قال تعالى : ﴿ اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ (٢) ، وفى هذه الآية جعلت معرفة الله هى الغاية من خلق السموات والأرض .

ويقول تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (٣) .

إن المتأمل فى هذا الكون الذى نعيش فيه يرى كل شىء فيه يحيا ويعمل لغيره ، فنحن نرى أن الماء للأرض ، والأرض للنبات ، والنبات للحيوان ، والحيوان للإنسان ، والإنسان لمن ؟ هذا هو السؤال .

والجواب الذى تنادى به الفطرة ، وتنطق به مراتب الكائنات فى هذا الكون : أن الإنسان لله . . لمعرفته ، لعبادته . . للقيام بحقه وحده . ولا يجوز أن يكون الإنسان لشىء آخر فى الأرض أو فى الأفلاك ، لأن كل العوالم العلوية والسفلية مسخرة له ، وتعمل فى خدمته كما هو مشاهد ، فكيف يكون هو لها أو يعمل فى خدمتها ؟

---

(١) البقرة : ٣٠ (٢) الطلاق : ١٢ (٣) الذاريات : ٥٦ - ٥٨

ومن هنا كانت عبادة الإنسان لقوى الطبيعة ومظاهرها من فوقه ومن تحته ، كالشمس والقمر والنجوم والأنهار والأبقار والأشجار ونحوها ، قلباً للوضع الطبيعى ، وانتكاساً بالإنسان أى انتكاس !!

والإنسان إذن بحكم الفطرة ومنطق الكون ، إنما هو لله سبحانه لا لغيره ، لعبادته وحده ، لا لعبادة بشر ولا حجر ، ولا بقر ولا شجر ، ولا شمس ولا قمر ، وكل عبادة لغير الله إنما هى من تزيين الشيطان عدو الإنسان .



● النداء الأول فى كل رسالة : « اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » :

هذه العبادة لله وحده هى العهد القديم الذى أخذه الله على بنى الإنسان ، وسجله بقلم القدرة فى فطرهم البَشرية ، وغرسه فى طبائعهم الأصيلة ، منذ وضع فى رؤوسهم عقولاً تعى ، وفى صدورهم قلوباً تخفق ، وفى الكون حولهم آيات تهدى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِى آدَمَ أَن لا تَعْبُدُواْ الشَّيْطَانَ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِى ، هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ (١) .

فلا عجب أن يكون المقصود الأعظم من بعثة النبيين ، وإرسال المرسلين ، وإنزال الكتب المقدسة ، هو تذكير الناس بهذا العهد القديم ، وإزالة ما تراكم على معدن الفطرة من غبار الغفلة أو الوثنية أو التقليد . ولا عجب أن يكون النداء الأول لكل رسول : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ (٢) بهذا دعا قومه نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وكل رسول بعث إلى قوم مكذبين . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ ﴾ (٣) ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِىَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (٤) .



(١) يس : ٦٠ ، ٦١
(٢) الأعراف : ٥٩
(٣) النحل : ٣٦
(٤) الأنبياء : ٢٥

معنى العبادة وحقيقتها

● معنى العبادة فى اللغة :

فى القاموس : العبدية والعبودية والعبادة : الطاعة .

وفى الصحاح : أصل العبودية الخضوع والذل . والتعبيد : التذلل .

يُقال : طريق معبد . والبعير المعبد : المهنوء بالقطران المذلل .

والعبادة : الطاعة . والتعبد : التنسك . تفرق بين المعانى بحسب الاشتقاق .

﴿ فَادْخُلِى فِى عِبَادِى ﴾ [1] أى فى حزبى . فأضاف معنى جديداً وهو الولاء . وفى المخصص (ج١٣ ص٩٦) :

أصل العبادة : التذليل . من قولهم : طريق معبد أى بكثرة الوطء عليه . ومنه أخذ « العبد » لذله لمولاه..

والعبادة والخضوع والتذلل والاستكانة قرائب فى المعانى .

يُقال : تعبد فلان لفلان - إذا تذلل له . وكل خضوع ليس فوقه خضوع فهو عبادة ، طاعة كان للمعبود أو غير طاعة ، وكل طاعة لله على جهة الخضوع والتذلل فهى عبادة . والعبادة نوع من الخضوع لا يستحقه إلا المنعم بأعلى أجناس النعم . كالحياة والفهم والسمع والبصر .

وفى (لسان العرب) نحو ذلك .



---

(١) الفجر : ٢٩

● **العبادة فى الشرع خضوع وحب :**

أما شيخ الإسلام ابن تيمية . فهو ينظر إلى العبادة نظرة أعمق وأوسع ، فهو يحلل معناها إلى عناصره البسيطة . فيبرز إلى جوار المعنى الأصلى فى اللغة - وهو غاية الطاعة والخضوع - عنصراً جديداً له أهمية كبرى فى الإسلام ، وفى كل الأديان . عنصراً لا تتحقق العبادة - كما أمر الله - إلا به ، وذلك هو عنصر « الحب » فبغير هذا العنصر العاطفى الوجدانى لا توجد العبادة التى خلق الله لها الخلق ، وبعث بها الرُّسُل ، وأنزل الكتب .

وفى توضيح ذلك يقول شيخ الإسلام فى رسالته عن « العبودية » :

« الدين يتضمن معنى الخضوع والذل . يقال : دنته فدان ، أى أذللته فذل . ويقال : يدين الله ويدين لله : أى يعبد الله ويطيعه ويخضع له . فدين الله عبادته وطاعته والخضوع له » .

« والعبادة أصل معناها : الذل أيضاً . يقال : طريق معبد ، إذا كان مذللاً قد وطئته الأقدام ، لكن العبادة المأمور بها تتضمّن معن الذل ومعنى الحب ، فهى تتضمن غاية الذل لله تعالى بغاية المحبة له . فإن آخر مراتب الحب هو التتيم ، وأوله العلاقة ، لتعلق القلب بالمحبوب ثم الصبابة لانصباب القلب إليه ، ثم الغرام ؛ وهو الحب الملازم للقلب ، ثم العشق ، وآخرها التتيم . يقال : تيم الله ، أى عبد الله ، فالمتيم : المعبّد لمحبوبه » .

قال : « ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابداً له ، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له ، لم يكن عابداً له . كما قد يحب الرجل ولده وصديقه . ولهذا لا يكفى أحدهما فى عبادة الله تعالى ، بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شىء . وأن يكون الله أعظم عنده من كل شىء ، بل لا يستحق المحبة والخضوع التام إلا الله ، وكل ما أحب لغير الله فمحبته فاسدة وما عظم بغير أمر الله فتعظيمه باطل . قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ

تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِىَ اللهُ بِأَمْرِهِ ﴾ (١) .

وبهذا الشرح العميق لمعنى العبادة وحقيقتها ، ندرك أن العبادة المشروعة لا بد لها من أمرين :

الأول : هو الالتزام بما شرعه الله ودعا إليه رُسُله ، أمراً ونهياً ، وتحليلاً وتحريماً . وهذا هو الذى يمثل عنصر الطاعة والخضوع لله .

فليس عبداً ولا عابداً لله من رفض الاستسلام لأمره ، واستكبر عن اتباع نهجه . والانقياد لشرعه وإن أقر بأن الله خالقه ورازقه ، فقد كان مشركو العرب يقرُّون بذلك . ولم يجعلهم القرآن بذلك مؤمنين ولا عباداً لله طائعين ، فخضوع الإقرار بالربوبية لا يكفى ، وخضوع الاستعانة فى الكربات والاستغاثة فى الشدائد لا يكفى ، ولا بد من خضوع التعبد والانقياد والاتباع الذى هو حق الألوهية . وبهذا يتحقق معنى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (٢) .

وأساس الخضوع لله تعالى هو الشعور الواعى بوحدانيته تعالى ، وقهره لكل من فى الوجود ، وما فى الوجود . فكلهم عبيده وخلقه ، وفى قبضة قدرته وسلطانه . وفى هذا يقول القرآن الكريم : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، قُلِ اللهُ ، قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَآءَ لاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ، أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ، أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ، قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ ، وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ (٣) .

أساس الخضوع لله الواحد القهار هو الشعور الذاتى بالحاجة إلى من يملك الضر والنفع والموت والحياة ، ومن له الخلق والأمر ، ومن بيده ملكوت كل

---

(١) التوبة : ٢٤ (٢) الفاتحة : ٥ (٣) الرعد : ١٥ ، ١٦

شيء ، ومن إذا أراد شيئاً قال له « كن » فيكون . . الشعور بالضعف أمام من يملك القوة كل القوة . والشعور بالجهل (١) أمام من أحاط بكل شيء علماً . والشعور بالعجز أمام من يملك القدرة كل القدرة ، والشعور بالفقر أمام من يملك الغنى كل الغنى . وباختصار شعور العبودية المخلوقة الفانية الفقيرة بالذات أمام الربوبية الخالقة الأزلية الأبدية ، المالكة لكل شيء ، والمدبر لكل أمر .

وكلما ازداد الإنسان معرفة بنفسه ، ومعرفة بربه ، ازدادت هذه المشاعر وضوحاً وقوة ، فقوى اعتماده على الله ، واتجاهه إليه ، وتوكله عليه ، واستعانته به ، وتذلله له ، ومد يد الضراعة إليه ، ووقوفه ببابه سائلاً داعياً منيباً إليه .

فإذا جهل الإنسان قدر نفسه ، وجهل قدر ربه لم تمت هذه المشاعر ، ولكنها تنحرف وتتحول فتبحث لها عن رب تتجه إليه ، وتخضع له ، وتنقاد إليه ولا بدّ ، وإن لم تشعر بذلك ، أو لم تسمه خضوعاً ، وانقياداً ، ولم تسم مقصودها ربّاً وإلهاً .

والثانى : أن يصدر هذا الالتزام من قلب يحب الله تعالى . فليس فى الوجود من هو أجدر من الله تعالى بأن يُحَب ؛ فهو صاحب الفضل والإحسان ، الذى خلق الإنسان ولم يكن شيئاً مذكوراً ، وخلق له ما فى الأرض جميعاً ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة ، وخلقه فى أحسن تقويم وصورة فأحسن صورته ، وكرّمه وفضّله على كثير من خلقه ، ورزقه من الطيبات ، وعلَّمه البيان ، واستخلفه فى الأرض ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، فمن أولى من الله بأن يُحب ؟ ومن يحب الإنسانُ –

(١) الإنسان يجهل أسرار ما يحدث له فى حاضره ، ويجهل ماذا يكنه له ضمير المستقبل ، فلا يدرى ماذا يكسب غداً ؟ ولا متى يموت ؟ وأين يموت ؟ وكيف يموت ؟ وماذا وراء الموت ؟ إلى غير ذلك من الأمور .

إذن - إن لم يحب الله تعالى ؟! إن أساس محبة الله تعالى هو الشعور بفضله ونعمته ، وإحسانه ورحمته ، والإحساس بجماله وكماله ، فمن كان يحب الإحسان فالله هو واهبه وصاحبه ، ومن كان يحب الجمال فالله هو مصدره ، ومن كان يحب الكمال فلا كمال فى الحقيقة إلا كماله ، ومن كان يحب ذاته . فالله هو خالقه .

فمن عرف الله أحبه ، وبقدر درجته فى المعرفة تكون درجته فى المحبة ، ولهذا كان الرسول ﷺ أشد الناس حباً لله ؛ لأنه كان أعرفهم بالله ، وكانت قرة عينه فى الصلاة ؛ لأنها الصلة المباشرة بين قلبه وبين الله ، وكان فى دعائه يسأل الله الشوق إلى لقائه ، ولذة النظر إلى وجهه سبحانه . ولما خُيِّر بين البقاء فى الدنيا وبين اللحوق بربه قال : أختار الرفيق الأعلى !

أما علماء الكلام أو بعضُهم ممن زعموا أن الحب الحقيقى لا يتصور من جانب العبد لله ، وقالوا : إن معنى حب الله هو المواظبة على طاعته تعالى ، وأما حقيقة الحب فهو محال ، إلا مع الجنس والمثال ، فقد رد عليهم الغزالى فى « الإحياء » رداً مفصلاً (١) ، مبيناً أن الذى يستحق المحبة الكاملة بكل وجوهها ، وكافة أسبابها هو الله وحده .

إذا كان الله قد خلقنا لنعبده ، أى لنطيعه طاعة مصحوبة بأقصى الخضوع ، الممزوج بغاية الحب ، ففى أى شىء تكون هذه الطاعة ؟ - طاعة الخضوع والحب - وفى أى مجال يجب أن تكون ؟ إن الجواب عن هذا التساؤل سيبين لنا حقيقة هامة ، هى : شمول معنى العبادة فى الإسلام ، وسعة آفاقها . وهذا الشمول له مظهران :

الأول : شمولها للدين كله وللحياة كلها .

---

(١) كما رد عليهم العلامة ابن القيم ، وبين فساد قولهم بأكثر من ثمانين وجهاً ذكرها فى كتابه « روضة المحبين » .

الثانى : شمولها لكيان الإنسان كله ظاهره وباطنه . كما سنشرح ذلك فيما يلى .



● شمول العبادة للدين كله :

لقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن قول الله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾ [1] ما العبادة ؟ وما فروعها ؟ وهل مجموع الدين داخل فيها أم لا ؟ فأجاب رحمه الله عن ذلك إجابة مبسوطة مفصلة تضمنتها رسالته المعروفة باسم « العبودية » ، وقد بدأها بقوله :

« العبادة : هى اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال ، الباطنة والظاهرة ، فالصلاة والزكاة والصيام والحج ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والوفاء بالعهود ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والجهاد للكفار والمنافقين ، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل ، والمملوك من الآدميين ، والبهائم ، والدعاء والذكر والقراءة ، وأمثال ذلك من العبادة » .

« وكذلك حب الله ورسوله – صلى الله عليه وسلم – وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له ، والصبر لحكمه ، والشكر لنعمه ، والرضا بقضائه ، والتوكل عليه ، والرجاء لرحمته ، والخوف من عذابه ، وأمثال ذلك هى من العبادة لله » [2] اهـ .

وهكذا نجد أن للعبادة – كما شرحها ابن تيمية – أفقاً رحباً ودائرة واسعة ، فهى تشمل الفرائض والأركان الشعائرية من الصلاة والصيام والزكاة والحج .

وهى تشمل ما زاد على الفرائض من ألوان التعبد التطوعى من ذكر وتلاوة ودعاء واستغفار ، وتسبيح وتهليل وتكبير وتحميد .

---

(١) البقرة : ٢١ (٢) العبودية ص ٣٨ ، ط المكتب الإسلامى ، ثانية .

وهى تشمل حسن المعاملة والوفاء بحقوق العباد ، كبِّر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والإحسان لليتيم والمسكين وابن السبيل ، والرحمة بالضعفاء ، والرفق بالحيوان .

وهى تشمل الأخلاق والفضائل الإنسانية كلها ، من صدق الحديث ، وأداء الأمانة ، والوفاء بالعهد ، وغير ذلك من مكارم الأخلاق .

كما تشمل ما نسميه بـ « الأخلاق الربانية » من حب الله ورسوله - صلى الله عليه وسلم - وخشية الله ، والإنابة إليه وإخلاص الدين له ، والصبر لحكمه ، والشكر لنعمه ، والرضا بقضائه ، والتوكل عليه ، والرجاء لرحمته والخوف من عذابه ، والمراقبة له فى الخلوة والجلوة .

وأخيراً تشمل العبادة الفريضتين الكبيرتين اللتين هما سياج ذلك كله وملاكه وهما : ١ - الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ٢ - وجهاد الكفار والمنافقين فى سبيل الله .

بل تشمل العبادة أمراً له أهميته وخطره فى الحياة المادية للناس ، ذكره ابن تيمية فى موضع آخر من رسالته ، وهو الأخذ بالأسباب ، ومراعاة السنن التى أقام الله عليها الكون ، قال : « فكل ما أمر الله به عباده من الأسباب فهو عبادة » (١) .

وأكثر من ذلك ما ذكره شيخ الإسلام رحمه الله : أن الدين كله داخل فى العبادة . إذ الدين يتضمن معنى الخضوع والذل ، يقال : دنته فدان ، أى أذللته فذل . ويقال : يدين الله ويدين لله ، أى يعبد الله ويطيعه ويخضع له . فدين الله : عبادته وطاعته والخضوع له . والعبادة أصل معناها الذل أيضاً » (٢) .

وبهذا يلتقى معنى الدين بأصل معنى العبادة لغة وشرعاً .



(١) العبودية ص ٧٣

(٢) انظر ص٤٣ ، ٤٤ من العبودية .

● العبادة تسع الحياة كلها :

وإذا عرفنا أن الدين كله عبادة كما قال الإمام ابن تيمية ، وعرفنا أن الدين قد جاء يرسم للإنسان منهج حياته ، الظاهرة والباطنة ، ويحدد سلوكه وعلاقاته ، وفقاً لما يهدى إليه هذا المنهج الإلهى - عرفنا أن عبادة الله تسع الحياة كلها ، وتنظم أمورها قاطبة : من أدب الأكل والشرب ، وقضاء الحاجة إلى بناء الدولة ، وسياسة الحكم ، وسياسة المال ، وشئون المعاملات والعقوبات ، وأصول العلاقات الدولية فى السلم والحرب .

ولهذا نجد كتاب الله الكريم يخاطب عباده المؤمنين بأوامر تكليفية وأحكام شرعية ، تتناول جوانب شتى من الحياة ، وفى سورة واحدة - هى سورة البقرة - نجد مجموعة من التكاليف كلها جاءت بصيغة واحدة « كتب عليكم » ولنقرأ هذه الآيات الكريمة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ﴾ (١) ، ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (٢) ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٣) ، ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ، وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ (٤) .

فهذه الأمور كلها من القصاص ، والوصية ، والصيام ، والقتال ، مكتوبة من الله على عباده ، أى مفروضة عليهم ، فعليهم أن يعبدوا الله بالتزامها والانقياد لها .

وبهذا البيان يتضح لنا حقيقة هامة لا زال يجهلها الكثيرون من المسلمين . فبعض الناس لا يفهم من كلمة « العبادة » إذا ذكرت إلا الصلاة والصيام

---

(١) البقرة : ١٧٨ (٢) البقرة : ١٨٠
(٣) البقرة : ١٨٣ (٤) البقرة : ٢١٦

والصدقة والحج والعمرة ، ونحو ذلك من الأدعية والأذكار ، ولا يحسب أن لها علاقة بالأخلاق والآداب ، أو النظم والقوانين ، أو العادات والتقاليد .

إن عبادة الله ليست محصورة - إذن - فى الصلاة والصيام والحج وما يلحق بها من التلاوة والذكر والدعاء والاستغفار ، كما يتبادر إلى فهم كثير من المسلمين إذا دعوا إلى عبادة الله ، وكما يحسب كثير من المتدينين أنهم إذا قاموا بهذه الشعائر فقد وفوا الإلهية حقها ، وقاموا بواجب العبودية لله كاملاً .

إن هذه الشعائر العظيمة والأركان الأساسية فى بناء الإسلام - على منزلتها وأهميتها - إنما هى جزء من العبادة لله ، وليست هى كل العبادة التى يريدها الله من عباده .

والحق أن دائرة العبادة التى خلق الله لها الإنسان ، وجعلها غايته فى الحياة ، ومهمته فى الأرض ، دائرة رحبة واسعة ، إنها تشمل شئون الإنسان كلها ، وتستوعب حياته جميعاً .



● العبادة انقياد لمنهج الله وشرعه :

إن مقتضى عبادة الإنسان لله وحده : أن يخضع أموره كلها لما يحبه تعالى ويرضاه ، من الاعتقادات والأقوال والأعمال ، وأن يكيّف حياته وسلوكه وفقاً لهداية الله وشرعه . فإذا أمره الله تعالى أو نهاه ، أو أحل له أو حرَّم عليه كان موقفه فى ذلك كله : ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (١) .

ففرق ما بين المؤمن وغيره : أن المؤمن خرج من العبودية لنفسه وللمخلوقين إلى العبودية لربه . خرج من طاعة هواه إلى طاعة الله . ليس المؤمن « سائباً »

---

(١) البقرة : ٢٨٥

يفعل ما تهوى نفسه أو يهوى له غيره من الخلق . إنما هو « ملتزم » بعهد يجب أن يفى به ، وميثاق يجب أن يحترمه ، ومنهج يجب أن يتبعه . وهذا التزام منطقى ناشىء من طبيعة عقد الإيمان ومقتضاه .

مقتضى عقد الإيمان : أن يسلِّم زمام حياته إلى الله ، ليقودها رسوله الصادق ، ويهديه الوحى المعصوم .

مقتضى عقد الإيمان : أن يقول الرب : أمرت ونهيت . ويقول العبد : سمعت وأطعت .

مقتضى عقد الإيمان : أن يخرج الإنسان من الخضوع لهواه إلى الخضوع لشرع مولاه .

وفى هذا يقول القرآن الكريم : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ (١) . ويقول : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

ليس بعابد لله إذن من قال : أصلى وأصوم وأحج ، ولكنى حر فى أكل لحم الخنزير ، أو شرب الخمر ، أو أكل الربا ، أو رفض ما لا يروقنى من أحكام الشريعة ، فأحكم فيه بغير ما أنزل الله ! ليس بعابد لله من أدى الشعائر ، ولكنه لم يخضع لآداب الإسلام وتقاليده فى نفسه أو أهله ، كالرجل الذى يلبس الحرير الخالص ويتحلى بالذهب ، ويتشبه بالنساء ، والمرأة التى تلبس ما يبرز مفاتنها ، ولا يغطى جسدها ، ولا تضرب بخمارها

---

(١) الأحزاب : ٣٦ . (٢) النور : ٥١

على جيبها . ليس بعابد لله من ظن أن عبوديته لله لا تعدو جدران المسجد ، فإن انطلق فى ميادين الحياة المتشعبة ، فهو عبد نفسه فقط ، وبعبارة أخرى : هو حر فى اتباع هواها ، أو اتباع أهواء عبيد أنفسهم من المخلوقين !



● **الأعمال الاجتماعية النافعة عبادة :**

وأكثر من ذلك : أن الإسلام قد فسح مجال العبادة ووسع دائرتها ، بحيث شملت أعمالاً كثيرة لم يكن يخطر ببال الناس أن يجعلها الدين عبادة وقُربة إلى الله .

إن كل عمل اجتماعى نافع يعده الإسلام عبادة من أفضل العبادات ما دام قصد فاعله الخير ، لا تصيد الثناء واكتساب السمعة الزائفة عند الناس . كل عمل يمسح به الإنسان دمعة محزون ، أو يخفف به كربة مكروب ، أو يضمد به جراح منكوب ، أو يسد به رمق محروم ، أو يشد به أزر مظلوم ، أو يقيل به عثرة مغلوب ، أو يقضى به دين غارم مثقل ، أو يأخذ بيد فقير متعفف ذى عيال ، أو يهدى حائراً ، أو يعلم جاهلاً ، أو يؤوى غريباً ، أو يدفع شراً عن مخلوق أو أذى عن طريق ، أو يسوق نفعاً إلى ذى كبد رطبة - فهو عبادة وقربة إلى الله إذا صحت فيه النية .

أعمال كثيرة من هذا النوع جعلها الإسلام من عبادة الرحمن ، وشعب الإيمان ، وموجبات المثوبة عند الله .

فليست الصلاة أو الصيام أو الذكر والدعاء هى وحدها التى تكتب لك عبادة فى يومك ، وتستوجب بها الأجر عند ربك ، كلا . . إنك تستطيع فى اليوم الواحد أن تضيف إلى ميزان عبادتك وحسناتك أشياء كثيرة ، لها ثقلها وقيمتها فى تقدير الحق تبارك وتعالى ، وإن بدت عندك هينة خفيفة فى الميزان .

من ذلك ما قاله رسول الإسلام - صلى الله عليه وسلم - عن الإصلاح بين المتخاصمين قال : « ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة » ؟ قالوا : بلى . .

قال : « إصلاح ذات البين ، فإن فساد ذات البين هى الحالقة » (١) ، وفى رواية : « لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين » (٢) .

ويقول عليه الصلاة والسلام فى عيادة المريض وما لها من مكانة عند الله لما فيها من تخفيف ومواساة : « من عاد مريضاً ناداه مناد من السماء : طبت وطاب ممشاك ، وتبوأت من الجنة منزلاً » (٣) .

والإسلام يجعل هذه الأعمال الاجتماعية فريضة يومية على كل مسلم .

بل إننا لنقرأ أحاديث النبى الكريم فى هذا الباب ، فنرى أنه لم يكتف بفرض هذه العبادة العامة على الإنسان من حيث هو إنسان فحسب ، بل يشتد فى طلبها ، فيفرضها على كل ميسم من مياسمه ، أو كل مفصل من مفاصله . فيروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ : « كل سُلامىّ من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس : يعدل بين الاثنين صدقة ، ويعين الرجل فى دابته ، فيحمله أو يرفع عليها متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وكل خطوة يمشيها إلى الصلاة صدقة ، ويميط الأذى عن الطريق صدقة » (٤) .



● عمل الإنسان فى معاشه عبادة بشروط :

وأعجب من هذا أن النبى ﷺ يجعل الأعمال الدنيوية التى يقوم بها الإنسان لمعيشته ، والسعى على نفسه وأهله ، من أبواب العبادة والقربات إلى

---

(١) رواه أبو داود والترمذى وابن حبان فى صحيحه . (٢) هذه الزيادة للترمذى .

(٣) رواه الترمذى وحسَّنه وابن ماجه - واللفظ له - عن أبى هريرة .

(٤) رواه البخارى ومسلم .

الله ، وإن لم يتعد نفعها دائرته الشخصية والأسرية . فالزارع فى حقله ، والعامل فى مصنعه ، والتاجر فى متجره ، والموظف فى مكتبه ، وكل ذي حرفة فى حرفته ، يستطيع أن يجعل من عمله المعاشى صلاة وجهاداً فى سبيل الله ، إذا التزم فيه الشروط الآتية :

١ - أن يكون العمل مشروعاً فى نظر الإسلام . أما الأعمال التى ينكرها الدين كالعمل فى الربا والحانات ، والمراقص ونحوها ، فلا تكون ولن تكون عبادة أبداً . . إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً .

٢ - أن تصحبه النية الصالحة : نية المسلم إعفاف نفسه ، وإغناء أسرته ، ونفع أمته ، وعمارة الأرض ، كما أمر الله .

٣ - أن يؤدى العمل بإتقان وإحسان ، ففى الحديث : « إن الله كتب الإحسان على كل شىء » (١) ، « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » (٢) .

٤ - أن يلتزم فيه حدود الله ، فلا يظلم ولا يخون ، ولا يغش ، ولا يجور على حق غيره .

٥ - ألا يشغله عمله الدنيوى عن واجباته الدينية كما قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللهِ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٣) ، ﴿ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾ (٤) .



(١) رواه مسلم عن شداد بن أوس ، وهو من أحاديث الأربعين النووية .

(٢) رواه البيهقى فى شعب الإيمان عن عائشة ، وفيه راو تكلم فيه ، وكذا رواه أبو يعلى وابن عساكر وغيرهما ، كما فى « الفيض » .

(٣) المنافقون : ٩ — (٤) النور : ٣٧

● حتى أعمال الغريزة وقضاء الشهوة :

على أن الأروع مما تقدم كله أن تشمل العبادة الحاجات الضرورية التى يؤديها المسلم استجابة لدافع الغريزة البَشرية . فالأكل والشرب ومباشرة الزوج لزوجته ، وما كان من هذا القبيل يدخله الإسلام فى دائرة العبادة الفسيحة بشرط واحد هو « النية » . فالنية هى المادة السحرية العجيبة التى تضاف إلى المباحات والعادات فتصنع منها طاعات وقربات .

وأوضح شاهد على ذلك ما قاله النبى ﷺ لأصحابه :

« وفى بُضْعِ [1] أحدكم صدقة » قالوا : أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : « أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه وزر » ؟ قالوا : نعم ، قال : « كذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر » !! [2] . قال العلماء : وهذا من تمام رحمة الله على عباده ، يثيبهم على ما فيه قضاء شهواتهم إذا نووا أداء حق الزوجة ، وإحصان الفرج . ولله الحمد .



● آثار هذا الشمول فى النفس والحياة :

إن شمول معنى العبادة فى الإسلام - كما شرحناه - له آثار مباركة فى النفس والحياة يحسها الإنسان فى ذاته . ويلمسها فى غيره . ويرى ظلالها فى الحياة من حوله . وأبرز هذه الآثار وأعمقها أمران :

الأول : أنه يصبغ حياة المسلم وأعماله فيها بالصبغة الربانية ، ويجعله مشدوداً إلى الله فى كل ما يؤديه للحياة ، فهو يقوم به بنية العابد الخاشع . وروح القانت المخبت ، وهذا يدفعه إلى الاستكثار من كل عمل نافع . وكل إنتاج صالح ، وكل ما ييسر له ولأبناء نوعه الانتفاع بالحياة ، على أمثل

---

(١) البضع : قال فى القاموس : الجماع أو الفرج نفسه .

(٢) رواه مسلم والترمذى .

وجوهها . فإن ذلك يزيد رصيده من الحسنات والقربات عند الله عَزَّ وجَلَّ . كما يدعوه هذا المعنى إلى إحسان عمله الدنيوى وتجويده وإتقانه ، ما دام يقدمه هدية إلى ربه سبحانه ، ابتغاء رضوانه وحسن مثوبته .

والثانى : أنه يمنح المسلم وحدة الوجهة ، ووحدة الغاية فى حياته كلها ، فهو يرضى رباً واحداً ، فى كل ما يأتى ويدع ، ويتجه إلى هذا الرب بسعيه كله : الدينى والدنيوى ، لا انقسام ولا صراع ولا ازدواج فى شخصيته ولا فى حياته .

إنه ليس ممن يعبدون الله فى الليل ، ويعبدون « المجتمع » فى النهار . .

وليس ممن يعبدون الله فى المسجد ، ويعبدون « الدنيا » أو « المال » فى ساحة الحياة .

وليس ممن يعبدون الله فى يوم من أيام الأسبوع ثم يعبدون ما سواه ومن سواه سائر أيام الأسبوع .

كلا . . إنه يعبد الله وحده حيثما كان ، وكيفما كان ، وفى أى عمل كان . . فوجه الله لا يفارقه فى عمل ولا حال ولا زمان :

﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ ﴾ (١) .

وبهذا ينصرف همه كله إلى الله ، ويجتمع قلبه كله على الله ، ولا يتوزع شمل حياته وفكره وإرادته ووجدانه بين شتى الاتجاهات ، والتيارات والانقسامات .

إن حياته كلها وحدة لا تتجزأ . منهجه فيها عبادة الله ، وغايته رضوان الله ، ودليله وحى الله .

على أن هذا التقسيم إنما يأتى إذا كتبوا فى الفقه - فإذا كتبوا فى غيره وجدنا

---

(١) البقرة : ١١٥

مثل ابن تيمية يصرح بأن العبادة تشمل الدين كله . كما ذكرنا ، ووجدنا مثل ابن القيم يدخل الدين كله أيضاً فى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ [1] كما سيأتى قريباً فى بيانه لمراتب العبودية الخمسين .



● **شمول العبادة لكيان الإنسان كله :**

هذا هو المظهر الثانى لشمول العبادة فى الإسلام .

فكما شملت العبادة فى الإسلام الحياة كلها ، استوعبت كذلك كيان الإنسان كله .

فالمسلم يعبد الله بالفكر ، ويعبد الله بالقلب ، ويعبد الله باللسان ، ويعبد الله بالسمع والبصر وسائر الحواس ، ويعبد الله ببدنه كله ، ويعبد الله ببذل المال ، ويعبده ببذل النفس ، ويعبده بمفارقة الأهل والوطن .

المسلم يتعبد لله بالفكر ، عن طريق التأمل فى النفس والآفاق ، والتفكر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ، والتدبر لآيات الله المنزلة وما فيها من هدى وحكمة ، والنظر فى مصاير الأمم وأحداث التاريخ وما فيها من عظة وعبرة .

ويتعبد المسلم لله بالقلب عن طريق العواطف الربانية والمشاعر الروحية ، مثل : حب الله وخشيته ، والرجاء فى رحمته والخوف من عقابه ، والرضا بقضائه ، والصبر على بلائه ، والشكر لنعمائه ، والحياء منه ، والتوكل عليه ، والإخلاص له .

ويتعبد المسلم لله باللسان عن طريق الذكر والتلاوة والدعاء والتسبيح والتهليل والتكبير .

---

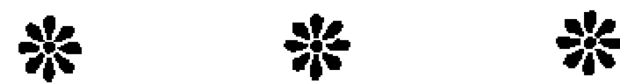
(١) الفاتحة : ٥

ويتعبد المسلم لله ببدنه كله : إما كفاً وامتناعاً عن ملذات البدن وشهواته ، كما فى الصيام . وإما حركة وعملاً ونشاطاً ، كما فى الصلاة التى يتحرك فيها البدن كله : اللسان والأعضاء ، مع العقل والقلب .

ويتعبد المسلم لله ببذل المال الذى هو شقيق الروح ، كما فى الزكاة والصدقات ، وهذا ما يسميه الفقهاء « العبادة المالية » كما سموا الصلاة والصوم « العبادة البدنية » ويعنون بكلمة « البدن » هنا كيان الإنسان كله لا الجسم المادى وحده . فإن النية شرط لكل عبادة ، ومحلها القلب بالإجماع ، وعبادة المجنون والسكران ونحوها لا تصح ولا تقبل : ﴿ حَتَّى تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ (١) .

ويتعبد المسلم لله ببذل مهجته والتضحية بنفسه وبمصالحه المادية العاجلة ، ابتغاء مرضاة الله ، كما فى الدعوة إلى الله ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وجهاد الكفار والمنافقين ، لتكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا هى السفلى .

ويتعبد المسلم لله بمفارقة الأهل والوطن والضرب فى الأرض : إما للحج والعمرة ، وإما للهجرة إلى أرض يستطيع فيها المسلم إقامة دينه ، وإما للجهاد فى سبيل الله ، وإما لطلب علم نافع ، أو نحو ذلك ، مما يبذل فيه المسلم - عادة - راحة بدنه وحُرّ ماله . ولهذا نعتبر هذا النوع من العبادات « بدنياً ومالياً » معاً حسب التقسيم الفقهى المتعارف .



(١) النساء : ٤٣

سر العبادة وغايتها

● **لماذا نعبد الله ؟**

عرفنا أن رسالة الإنسان فى الوجود هى عبادة الله وحده . .

وعرفنا أن العبادة هى غاية الخضوع الممزوج بغاية الحب لله . .

وعرفنا أن العبادة – فى الإسلام – تشمل الدين كله ، وتسع الحياة بمختلف جوانبها .

وبقى هنا سؤال قد يسأله بعض الناس . وهو : لماذا نعبد الله تعالى ؟ وبعبارة أخرى : لماذا فرض الله علينا عبادته وطاعته وهو الغنى عنا ؟ وما الغاية من تكليفنا هذه العبادة ؟ هل يعود عليه – سبحانه – نفع من عبادتنا له ، وخشوعنا لوجهه ؟ ووقوفنا ببابه ، وانقيادنا لأمره ونهيه جل شأنه ؟ أم النفع يعود علينا نحن المخلوقين ؟ وما حقيقة هذا النفع إن كان ؟ أم الهدف هو مجرد الأمر من الله والطاعة منا ؟

والجواب : أنه – تبارك اسمه – لا تنفعه عبادة من عبده ، ولا يضره إعراض من صد عنه .

وقد أخبرنا على لسان سليمان فى القرآن : ﴿ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ (١) . وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ ، وَاللهُ هُوَ الْغَنِىُّ الْحَمِيدُ ﴾ (٢) . وقال عزَّ وجَلَّ فى الحديث القدسى : « يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ،

---

(١) النمل : ٤٠ (٢) فاطر : ١٥

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً » (١) .

وإذا كان الله سبحانه له هذا الغنى المطلق فلماذا إذن كلف عباده أن يعبدوه ويطيعوه ؟

وأظن - بعد أن يعرف الإنسان جواب الأسئلة الخالدة : من أين ، وإلى أين ، ولم - أن من السهل أن يعرف جواب هذا السؤال . إنه كامن فى طبيعة الإنسان نفسه ، وطبيعة مهمته فى الأرض ، والغاية التى أُعد لها من وراء هذه الحياة .



● العبادة غذاء للروح :

(أ) فالإنسان ليس هو هذا الغلاف المادى الذى نحسه ونراه ، والذى يطلب حظه من طعام الأرض وشرابها . ولكن حقيقة الإنسان فى ذلك الجوهر النفيس الذى به صار إنساناً مكرماً سيداً على ما فوق الأرض من كائنات . ذلك الجوهر هو الروح . . الذى يجد حياته وزكاته فى مناجاة الله عَزَّ وجَلَّ . وعبادة الله هى التى توفر لهذا الروح غذاءه ونماءه ، وتمده بمدد يومى لا ينفد ولا يغيض .

ولئن تراكم على هذا الجوهر المعنوى الغفلة والغرور ، وران عليه صدأ الجحود أو الشك ، لقد تهب عواطف المحن فتزيح الغبار ، أو تندلع نار الشدائد فتجلو الصدأ . وسرعان ما يعود الإنسان إلى ربه فيدعوه ويتضرع إليه . وهذه حقيقة ذكرها القرآن ، وأيدتها وقائع الحياة :

---

(١) رواه مسلم .

﴿ هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ، دَعَوُاْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (١) .

إن القلب الإنسانى دائم الشعور بالحاجة إلى الله ، وهو شعور أصيل صادق لا يملأ فراغه شىء فى الوجود إلا حسن الصلة برب الوجود ، وهذا ما تقوم به العبادة إذا أديت على وجهها .

يقول ابن تيمية رحمه الله :

« القلب فقير بالذات إلى الله من جهتين : من جهة العبادة . . . ومن جه الاستعانة والتوكل . . فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا ينعم ولا يسر ، ولا يلتذ ولا يطيب ، ولا يسكن ولا يطمئن ، إلا بعبادة ربه وحده وحبه والإنابة إليه . ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن ؛ إذ فيه فقر ذاتى إلى ربه - بالفطرة - من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه . وبذلك يحصل له الفرح والسرور ، واللذة والنعمة ، والسكون والطمأنينة » (٢) .



● **العبودية لله سبيل الحرية :**

(ب) ثم إن العبودية الخالصة لله هى - فى واقع الأمر - عين الحرية . وسبيل السيادة الحقيقية ، فهى - وحدها - التى تعتق القلب من رق المخلوقين ، وتحرره من الذل والخضوع لكل ما سوى الله من أنواع الآلهة والطواغيت التى تستعبد الناس وتسترقهم أشد ما يكون الاسترقاق والاستعباد ، وإن ظهروا - صورة وشكلاً - بمظهر السادة الأحرار !

---

(١) يونس : ٢٢ (٢) من رسالة العبودية لابن تيمية ص ١٠٨

ذلك أن فى قلب الإنسان حاجة ذاتية إلى رب ، إلى إله ، إلى معبود ، يتعلق به ، ويسعى إليه ، ويعمل على رضاه ، فإذا لم يكن هذا المعبود هو الله الواحد الأحد ، تخبط فى عبادة آلهة شتى وأرباب أُخر ، مما يرى وما لا يرى ، وممن يعقل ، وما لا يعقل ، ومما هو موجود وما ليس بموجود ، إلا فى الوهم والخيال .

وليس أشرف للإنسان العاقل من أن يعبد من خلقه فسواه فعدله ، ويطرح عبادة كل ما سواه ومن سواه .

وليس أجلب لسعادته وسلام ضميره من توجيه همه إلى إله واحد يخصه بالخضوع والحب ، فلا تتوزع قلبه الآلهة والأرباب المزيفون : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ ، هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ﴾ ؟ (١) .

فالعبد السالم لسيد واحد قد استراح ؛ إذ عرف ما يرضى سيده فأداه بارتياح وانشراح . أما العبد الذى يملكه شركاء متشاكسون يأمره أحدهم بعكس ما يأمره غيره ، فما أتعسه وما أشقاه !!



● **العبادة ابتلاء إلّهى يصقل الإنسان** :

(جـ) والحياة التى نحياها هذه - طالت أو قصرت - ليست هى الغاية ولا إليها المنتهى ، وما هى إلا محطة انتقال إلى حياة أخرى ودار أخرى ؛ حياة البقاء ، ودار الخلود . وفى بعض الآثار : « إنكم خلقتم للأبد ، وإنما تنقلون من دار إلى دار » وقال الشاعر :

وما الموت إلا رحلة غير أنها   من المنزل الفانى إلى المنزل الباقى

---

(١) الزمر : ٢٩

فالمعول عليه إذن إنما هو الدار الأخرى : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

والإنسان فى هذه الدار الفانية إنما يستصلح لتلك الدار الباقية ، يستخلفه الله هنا ليعد ويصقل للخلود هناك ، ولا شيء يصقله ويهذبه ويعده مثل الابتلاء ، فهو البوتقة التى تصهر فيها النفس ويصفو الروح .

فقد شاء الله أن يخلق الإنسان نوعاً متميزاً على غيره ، بما ركب فيه من عناصر مزدوجة ، يمكن أن تصعد به إلى السماء ، وأن يهبط بها إلى الأرض ، ففيه الغريزة والشهوة ، وفيه العقل والإرادة ؛ فيه المادة ، وفيه الروح .



● العبادة حق الله على عباده :

(د) والعبادة – فوق ذلك كله – هى حق الخالق – جل شأنه – على خلقه .

وفى ذلك روى البخارى ومسلم عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : « كنت رديف النبى ﷺ على حمار ، فقال لى : « يا معاذ . . أتدرى ما حق الله على العباد » ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً » .

وليس بمستنكر أن يكون لله علينا حق عبادته وحده سبحانه ، بل المستنكر أن يكون غير هذا . . المستنكر أن نعبد ما دون الله أو من دون الله ، فنؤدى الحق لغير أهله ، أو نزعم لأنفسنا الاستقلال عن الله فنجحد عبوديتنا له بغير حق .

إننا لم نكن شيئاً مذكوراً ثم كنا : خرجنا من ظلمة العدم إلى نور الوجود ، ثم كنا نوعاً مكرماً من الخليقة : خُلقنَا فى أحسن تقويم ، وصُوِّرْنا فى أحسن صورة ، وعُلمنا البيان ، وأوتينا العقل والإرادة ، وسخرت الكائنات

---

(١) العنكبوت : ٦٤

حولنا لخدمتنا : الأرض لنا مهاد وفراش ، والسماء لنا سقف وبناء ، والشمس تمدنا بالضوء والحرارة ، والكواكب تهدينا وتزين سقفنا ، والبحار تجرى فيها سفائننا بأرزاقنا ، والماء ينزل من السماء ليكون لنا شراباً طهوراً ، ونسقى منه أنعاماً وأناسى كثيراً .

ترى من الذى فعل ذلك كله ؟ أما نحن فلم نخلق أنفسنا ولم نصنع ذرة مما حولنا . . ولم يدّع بشر ولا جن ولا ملاك : أنه صانع ذلك ومدبره . . فمن هو صاحب العلم الواسع والحكمة البالغة والقدرة القاهرة والإرادة الفعالة . . الذى صنع هذا الكون الدقيق فأحكمه ، ورتبه فأحسنه ؟ والذى خلق الإنسان فأحسن خلقه ، وسخَّر له ما فى السموات وما فى الأرض ، وأسبغ عليه النعم ظاهرة وباطنة ؟

إنه الله الذى شهدت بربوبيته الفطر السليمة ، وأقرت بوجوده وكماله ووحدانيته العقول النيرة .

فلا عجب أن يكون لهذا الخالق المنعم حق العبادة والاستعانة به ، والابتهال إليه ، والوقوف ببابه الكريم موقف الضراعة والتسليم والانقياد : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِى أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴾ (١) ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً والسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ ﴾ (٢) .

* * *

---

(١) الأعلى : ١ – ٥ (٢) البقرة : ٢١ ، ٢٢

٣ - الأخلاق

● مكانة الأخلاق فى رسالة الإسلام :

جرت عادة الباحثين فى رسالة الإسلام أن يقسموه إلى شعب أربع : عقائد وعبادات ، ومعاملات ، وأخلاق ، وربما أوهم تأخير شعبة الأخلاق أنها آخر ما يهتم به الإسلام ، وأنها لا ترقى إلى مستوى الشعب الأخرى . والحقيقة التى تتجلى لمن يتدبر الإسلام فى آيات كتابه وسُنَّة نبيه ، ويتأمل نصوصها وروحها : أن الإسلام فى جوهره رسالة أخلاقية ، بكل ما تحمله هذه الكلمة من عمق وشمول . ولا غرو أن تكون « الأخلاقية » خصيصة من خصائصه العامة .

وليس ذلك لمجرد أن الإسلام حث بقوة على الفضائل ، وحذر بقوة من الرذائل ، ووصل فى هذا وذاك إلى أعلى درجات الإلزام ، ورتب على ذلك أعظم مراتب الجزاء ، ثواباً وعقاباً ، فى الدنيا والآخرة .

وليس ذلك أيضاً لمجرد أن الإسلام عنى بالأخلاق عناية بالغة حتى أن القرآن حين أثنى على الرسول ﷺ لم يجد أبلغ ولا أرفع من قوله :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (١) .

وحتى أن الرسول ﷺ ليلخص الهدف من رسالته فيقول فى إيجاز بليغ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » (٢) .

ليست الأخلاقية من خصائص الإسلام لمجرد هذا وذاك . ولكن -

---

(١) القلم : ٤

(٢) رواه الحاكم وصحَّحه ووافقه الذهبى .

بالإضافة إلى ذلك - لأن الأخلاقية تسرى فى كيان الإسلام كله ، وفى تعاليمه كلها ، حتى فى العقائد والعبادات والمعاملات ، وتدخل فى السياسة والاقتصاد ، والسلم والحرب .



● العقائد الإسلامية والأخلاق :

العقائد الإسلامية أساسها التوحيد ، وضده الشرك .

وهنا نجد الإسلام يضفى على التوحيد صبغة خلقية ، فيعتبره من باب « العدل » وهو فضيلة خلقية ، كما يعتبر الشرك من باب « الظلم » وهو رذيلة خلقية : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) ، وذاك لأنه وضع للعبادة فى غير موضعها ، وتوجه بها إلى من لا يستحقها .

بل اعتبر القرآن الكفر بكل أنواعه ظلماً ، كما قال تعالى :

﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢) .

والإيمان الإسلامى حين يتكامل ويؤتى أُكله ، يتجسد فى فضائل أخلاقية فاضت بها آيات القرآن ، وأحاديث الرسول ﷺ .

نقرأ فى القرآن مثل قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . . . . * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ . . . ﴾ (٣) .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ

---

(١) لقمان : ١٣ (٢) البقرة : ٢٥٤ (٣) المؤمنون : ١ - ١٠

زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقاً ﴾ (١) .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (٢) .

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً ، وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا : سَلاماً . . . . وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً * وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ آثَاماً . . . ﴾ (٣) الآيات .

والأحاديث النبوية كذلك تربط الفضائل الأخلاقية بالإيمان ، وتجعلها من لوازمه وثمراته : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه ، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » .

« الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة ، أعلاها : لا إله إلا الله ، وأدناها : إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » .

« لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » .



• العبادات الإسلامية والأخلاق :

والعبادات الإسلامية الكبرى ذات أهداف أخلاقية واضحة .

فالصلاة وهى العبادة اليومية الأولى فى حياة المسلم ، لها وظيفة مرموقة

---

(١) الأنفال : ٢ - ٤ (٢) الحجرات : ١٥ (٣) الفرقان : ٦٣ - ٦٨

فى تكوين الوازع الذاتى ، وتربية الضمير الدينى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ ، إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ (١) .

والصلاة كذلك مدد أخلاقى للمسلم يستعين به فى مواجهة متاعب الحياة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ ﴾ (٢) .

والزكاة وهى العبادة التى قرنها القرآن بالصلاة - ليست مجرد ضريبة مالية ، تؤخذ من الأغنياء ، لترد على الفقراء . إنها وسيلة تطهير وتزكية فى عالم الأخلاق ، كما أنها وسيلة تحصيل وتنمية فى عالم الأموال :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ (٣) .

والصيام فى الإسلام ، إنما يقصد به تدريب النفس على الكف عن شهواتها ، والثورة على مألوفاتها . وبعبارة أخرى : إنه يهيئ النفس للتقوى وهى جماع الأخلاق الإسلامية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٤) .

والحج فى الإسلام تدريب للمسلم على التطهر والتجرد والترفع عن زخارف الحياة وترفها ، وخصامها وصراعها . ولذا يفرض فى الإسلام الإحرام ليدخل المسلم حياة قوامها البساطة والتواضع والسلام والجدية والزهد فى مظاهر الحياة الدنيا : ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ، فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِى الْحَجِّ ﴾ (٥) .

وحين تفقد هذه العبادات الإسلامية هذه المعانى ولا تحقق هذه الأهداف تفقد بذلك معناها وجوهر مهمتها ، وتصبح جثة بلا روح . ولا غرو أن جاءت الأحاديث النبوية الشريفة تؤكد ذلك بأسلوب بليغ واضح .

فتقول عن الصلاة : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء ، فلا صلاة له » ، « كم من قائم (أى الليل بالتهجد) ليس له من قيامه إلا السهر » .

---

(١) العنكبوت : ٤٥ (٢) البقرة : ١٥٣ (٣) التوبة : ١٠٣
(٤) البقرة : ١٨٣ (٥) البقرة : ١٩٧

وعن الصيام : « من لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » ، « كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش » .



● الأخلاق والاقتصاد :

وللأخلاق الإسلامية مجالها وعملها فى شئون المال والاقتصاد ، سواء فى ميدان الإنتاج أم التداول أم التوزيع أم الاستهلاك .

فليس للاقتصاد أن ينطلق - كما يشاء - بلا حدود ولا قيود ، دون ارتباط بقيم ، ولا تقيد بمثل عليا ، كما هى دعوة بعض الاقتصاديين للفصل بين الاقتصاد والأخلاق .

ليس للمسلم أن ينتج ما يشاء ولو كان ضاراً بالناس مادياً أو معنوياً ، وإن كان يستطيع أن يحصل هو من وراء هذا الإنتاج أعظم الأرباح ، وأكبر المنافع .

إن زراعة التبغ « الدخان » أو « الحشيش » ونحوه من المواد المخدرة أو الضارة قد يكون فيها مكسب مادى كبير . ولكن الإسلام ينهاه أن يكون كسبه ونفعه من وراء خسارة غيره وضرره .

وإن تصنيع الأعناب ليصبح عصيرها خمراً يجلب أرباحاً وفيرة ، ويحقق منافع اقتصادية للمنتجين من أصحاب الكروم ، ولكن الإسلام أهدر هذه المنافع فى مقابل المضار الضخمة التى تترتب على الخمر فى العقول والأبدان والأخلاق ، وتتمثل فساداً فى الأفراد والأُسر والجماعات . يقول القرآن : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ، قُلْ : فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ (١) .

---

(١) البقرة : ٢١٩

وليس للمسلم - فى ميدان التبادل - أن يتخذ بيع الخمر أو الخنزير أو الميتة أو الأصنام ، تجارة . أو يبيع شيئاً لمن يعلم أنه يستعمله فى شر أو فساد أو إضرار بالآخرين . كالذى يبيع عصير العنب - أو العنب نفسه - ممن يعلم أنه يتخذه خمراً ، أو يبيع السلاح ممن يعلم أنه يقتل به بريئاً ، أو يستخدمه فى ظلم وعدوان . وفى الحديث : « إن الله إذا حرم شيئاً حرم ثمنه » ، وفيه : « من حبس العنب أيام القطاف ، حتى يبيعه من يهودى - أى له - أو نصرانى ، أو ممن يتخذه خمراً - أى ولو كان مسلماً - فقد تقحم النار على بصيرة » .

وليس للمسلم أن يحتكر الطعام ونحوه مما يحتاج إليه الناس رغبة فى أن يبيعه بأضعاف ثمنه . وفى الحديث الصحيح : « لا يحتكر إلا خاطئ » أى آثم . كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴾ (١) .

وليس للتاجر المسلم أن يخفى مساوئ سلعته وعيوبها ، ويبرز محاسنها مضخمة مكبرة ، على طريقة الدعاية الإعلامية المعاصرة ، ليبذل المشترون المخدوعون فيها من الثمن أكثر مما تستحق . فهذا غش يبرأ منه الإسلام ، ورسول الإسلام : « من غش فليس منا » .

وفى مجال التوزيع والتملك ، لا يجوز للمسلم أن يتملك ثروة من طريق خبيث ، ولا يحل له أن يأخذ ما ليس له بحق لا بالعدوان ولا بالحيلة .

وكما لا يحل للمسلم الملك بطريق خبيث ، لا يحل له تنمية ملكه بطريق خبيث كذلك .

لهذا حرم الله الربا والميسر ، وأكل أموال الناس بالباطل ، والظلم بكل صوره ، والضرر والضرار بكل ألوانه .

وفى مجال الاستهلاك ، لم يدع الإسلام للإنسان حبله على غاربه ، ينفق كيف يشاء ، ولو آذى نفسه أو أسرته أو أُمته . بل قيده بالاعتدال والتوسط

---

(١) القصص : ٨

فقال : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً ﴾ (١) ، ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٢) ، وحمل على الترف والمترفين ، وحرم كل ما هو من مظاهر الترف مثل أوانى الذهب والفضة ، فحرمها على الرجال والنساء جميعاً ، كما حرم على الرجال لبس الذهب والحرير .

وبهذا تميز الاقتصاد الإسلامى بهذه الخصيصة العظيمة من خصائصه ، أنه « اقتصاد أخلاقى » ، وشهد له بذلك الباحثون الأجانب .

يقول الكاتب الفرنسى « جاك أوستروى » فى كتابه عن « الإسلام والتنمية الاقتصادية » (٣) :

« الإسلام هو نظام الحياة التطبيقية والأخلاق المثالية الرفيعة معاً ، وهاتان الوجهتان مترابطتان لا تنفصلان أبداً . ومن هنا يمكن القول : إن المسلمين لا يقبلون اقتصاداً (علمانياً) . والاقتصاد الذى يستمد قوته من وحى القرآن يصبح بالضرورة ، اقتصاداً أخلاقياً .

وهذه الأخلاق تقدر أن تعطى معنى جديداً لمفهوم « القيمة » وتملأ الفراغ الفكرى الذى يوشك أن يظهر من نتيجة (آلية التصنيع) .

« لقد استنكر (بركس) النتائج المؤذية لنمو حضارة (الجنس) فى الغرب ، ويقلق الاقتصاد اليوم من سطوة « قيم الرغبات » على القِيَم الحقيقية .

« والآن بدأ الغرب يعى النتائج المؤذية من جراء مفاوضات عالمية لعالم غير مستقر . . . فلقد وجد الرجل نفسه مفصولاً عن عمله ، فالآلة أصبحت السيد ، وحياة التطرف فى وسائل الراحة كالسيارات وغيرها . والاهتمام بالتوافه ، ولم يهتم الغرب أبداً بتخفيف عداء (الآلة) للإنسان ، وهى تشكل أفقاً لقسم هام من الإنسانية » .

---

(١) الإسراء : ٢٩ (٢) الأعراف : ٣١ (٣) ترجمة الدكتور نبيل الطويل .

« ولم يغب عن الإسلام الواعى هذا الدرس فى متناقضات الغرب ، ولكى يقف فى مواجهة الغرب – محققاً فى الوقت نفسه وجهته الاقتصادية – عمد الإسلام لإدخال قيمه الأخلاقية فى الاقتصاد . .

وهكذا يخضع العناصر المادية فى الاقتصاد لمتطلبات العدل .

« وهذا اللقاء بين الأخلاق والاقتصاد الذى يلج عليه (ج . يرث) لم يوجد صدفة فى الإسلام الذى لا يعرف الانقسام بين الماديات والروحيات .

« وإذا كان اقتران البروتستانتية مع الوثبة الصناعية مزوّراً ، وإذا كانت الصلة بينهما موضع نقاش ، فهذا غير كائن فى الإسلام ، لأن غالبية تشريعه الإلهى تمنع كل تنمية اقتصادية لا تقوم عليها .

« وعلى النقل التقليدى السريع لتجربة الغرب (أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله) يجب ألا يخفى استحالة هذا التمييز فى الإسلام ، وفصل الدين عن الدولة الذى أدخل الفاعلية المادية فى الغرب ، لا معنى له فى الإسلام ، حيث لا تولد الفعالية فى المجال الفكرى وخارجه ، بل باستلهام من قوة الإسلام ومن الوحى المنزل » (١) ا . هـ .

وإذا استقرأنا الواقع التطبيقى ، وجدنا أثر هذا الاقتران بين الاقتصاد والأخلاق ، واضحاً وعميقاً فى تاريخ المسلمين ، وخاصة يوم كان الإسلام هو المؤثر الأول فى حياتهم ، والموجه الأول لنشاطهم وسلوكهم (١) .



● السياسة والأخلاق :

وكما ربط الإسلام الاقتصاد بالأخلاق ، ربط بها السياسة أيضاً ، فليست السياسة الإسلامية سياسة « ميكافيلية » ترى أن الغاية تبرر الوسيلة أياً كانت

---

(١) أصدرنا بحمد الله كتاباً كبيراً فى (٤٤٠) صفحة بعنوان « دور القيم والأخلاق فى الاقتصاد الإسلامى » نشرته مكتبة وهبة بالقاهرة ، فليراجعه من أراد التوسع فى الموضوع .

صفتها ، بل هى سياسة مبادئ وقِيَم ، تلتزم بها ، ولا تتخلى عنها ، ولو فى أحلك الظروف ، وأحرج الساعات . سواء فى علاقة الدولة المسلمة بمواطنيها داخلياً ، أم فى علاقتها الخارجية بغيرها من الدول والجماعات .

إن الإسلام يرفض كل الرفض الوسيلة القذرة ، ولو كانت للوصول إلى غاية شريفة : « إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً » (١) ، فالخبيث من الوسائل ، كالخبيث من الغايات مرفوض ، ولا بد من الوسيلة النظيفة للغاية الشريفة .

فى علاقة الدولة بمواطنيها يقول الله تعالى مخاطباً أولى الأمر فى المسلمين : ﴿ إنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَات إلَى أَهْلِهَا وَإذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ، إنَّ اللهَ نعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ، إنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ (٢) .

فأداء الأمانات - بمختلف أنواعها المادية والأدبية - إلى مستحقيها ، والحكم بين الناس - كل الناس - بالعدل ، هو واجب الدولة المسلمة مع رعاياها .

ولا يجوز للحاكم المسلم أن يحابى أحد أقاربه أو حاشيته ، فيوليه ما لا يستحق ، ويحرم من يستحق ، والرسول ﷺ يجعل هذا إيذاناً باقتراب ساعة هلاك الأمة ، « فقد سأل رجل يوماً عن الساعة فقال : « إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة ؟ قيل : وكيف إضاعتها ؟ قال : إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » (٣) .

كما لا يجوز إسقاط عقوبة مقررة عمن يستحقها لنسبه أو جاهه أو قربه من ذوى السلطان ، وفى هذا جاء الحديث : « إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » (٤) .

إن السياسة الإسلامية فى الداخل يجب أن تقوم على أساس العدل

---

(١) من حديث رواه مسلم فى صحيحه . (٢) النساء : ٥٨

(٣) رواه البخارى . (٤) متفق عليه .

والإنصاف والمساواة بين الجميع فى الحقوق والواجبات والعقوبات ، وعلى الصدق مع الشعب ومصارحته بالحقيقة دون تضليل أو تدجيل وكذب عليه ، فإن أحد الثلاثة الذين لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم « ملك كذاب » كما أخبر النبى ﷺ (١) .

وفى علاقة الدولة بغيرها من الدول يجب عليها الوفاء بعهودها ، وجميع التزاماتها ، واحترام كلمتها .

يقول تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ، إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ، إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ ، وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

ففى هاتين الآيتين يأمر الله تعالى باحترام العهود والمواثيق ويضيفها إلى الله تعالى « عهد الله » ويحذر من نكث العهود بعد إبرامها ، كفعل تلك المرأة الحمقاء التى تنقض غزلها من بعد إحكامه ، وقوة إبرامه ، وينادى بأن تكون المعاهدات والاتفاق بين الأمم مبنية على الإخلاص وحسن النوايا ، دون الدخل والغش الذى يقصد به أن تكون أمة هى أربى وأزيد نفعاً من أمة ، فتستفيد من المعاهدة على حساب أُمة أخرى . وهو ما نشاهده فى معاهدات هذا الزمان .

وقد كان النبى ﷺ مثالاً يحتذى فى احترام الاتفاقات ، ورعاية العهود ، وإن رأى أصحابه فيها أحياناً ما يعتقدونه إجحافاً بالمسلمين ، كما فى صلح الحديبية .

---

(١) رواه مسلم ، فى كتاب الإيمان ، من حديث أبى هريرة .
(٢) النحل : ٩١ - ٩٣

ولما جاء رجل يريد أن ينضم إلى جيش المسلمين فى إحدى الغزوات ضد قريش ، وكان الرجل قد عاهدهم ألا يحارب فى صف عدوهم ، لم يستجب له النبى ﷺ ، وأمره بالوفاء قائلاً : « نفى لهم ، ونستعين الله عليهم » (١) .

فإذا كان بعض الناس يعتقد أن السياسة لا أخلاق لها ، فهذا أبعد ما يكون عن سياسة الإسلام ، التى تقوم - أول ما تقوم - على العدل والوفاء والصدق والشرف ومكارم الأخلاق .



● الحرب والأخلاق :

وإذا كانت تلك هى سياسة الإسلام فى السلم ، فإن سياسته فى الحرب أيضاً لا تنفصل عن الأخلاق .

فالحرب لا تعنى إلغاء الشرف فى الخصومة ، والعدل فى المعاملة ، والإنسانية فى القتال وما بعد القتال .

إن الحرب ضرورة تفرضها طبيعة الاجتماع البشرى ، وطبيعة التدافع الواقع بين البَشر الذى ذكره القرآن الكريم بقوله : ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً ﴾ (٢) ، ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ ، وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) .

ولكن ضرورة الحرب لا تعنى الخضوع لغرائز الغضب والحمية الجاهلية وإشباع نوازع الحقد والقسوة والأنانية .

إذا كان لا بد من الحرب ، فلتكن حرباً تضبطها الأخلاق ، ولا تسيرها الشهوات ، لتكن ضد الطغاة والمعتدين لا ضد البرآء والمسالمين .

---

(١) رواه مسلم وأحمد والطحاوى والحاكم من حديث حذيفة كما فى صحيح الجامع الصغير .

(٢) الحج : ٤٠   (٣) البقرة : ٢٥١

﴿ وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (١) ، ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، أَنْ تَعْتَدُوا ، وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٢) .

إذا كان لا بد من الحرب ، فلتكن فى سبيل الله ، وهو السبيل الذى تعلو به كلمة الحق والخير - لا فى سبيل الطاغوت - الذى تعلو به كلمة الشر والباطل ، ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ، فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾ (٣) .

لتكن من أجل استنقاذ المستضعفين ، لا من أجل حماية الأقوياء المتسلطين : ﴿ وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ : رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ وَلِياًّ وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنْكَ نَصِيراً ﴾ (٤) .

ولتتقيد الحرب بأخلاق الرحمة والسماحة ، ولو كانت مع أشد الأعداء شنآناً للمسلمين ، وعتوا عليهم .

وإذا كان كثير من قادة الحروب وفلاسفة القوة ، لا يبالون أثناء الحرب بشىء إلا التنكيل بالعدو ، وتدميره ، وإن أصاب هذا التنكيل من لا ناقة له فى الحرب ولا جمل ، فإن الإسلام يوصى ألا يقتل إلا من يقاتل ، ويحذر من الغدر والتمثيل بالجثث وقطع الأشجار ، وهدم المبانى ، وقتل النساء والأطفال والشيوخ والرهبان المنقطعين للعبادة والمزارعين المنقطعين لحراثة الأرض .

---

(١) البقرة : ١٩٠

(٢) المائدة : ٢

(٣) النساء : ٧٦

(٤) النساء : ٧٥

وفى هذا جاءت آيات القرآن الكريم ، ووصايا الرسول الكريم ، وخلفائه الراشدين ، ففى القرآن : ﴿ وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ، إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (١) .

وفى السُّنَّة كان النبى ﷺ يوصى أصحابه إذا توجهوا للقتال بقوله : « اغزوا باسم الله ، وفى سبيل الله ، وقاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً . . . » (٢) .

وكذلك كان الخلفاء الراشدون المهديون من بعده يوصون قوادهم : ألا يقتلوا شيخاً ، ولا صبياً ، ولا امرأة ، وألا يقعطوا شجراً ، ولا يهدموا بناء » .

بل نهوهم أن يتعرضوا للرهبان فى صوامعهم ، وأن يدعوهم وما فرغوا أنفسهم له من العبادة .

يذكر المؤرخون المسلمون أن الخليفة الأول أبا بكر الصِّدِّيق رضى الله عنه – فى المعارك الكبرى التى دارت بين المسلمين والإمبراطوريتين العتيدتين فارس والروم – أُرسِل إليه رأس أحد قادة الأعداء من قلب المعركة إلى المدينة عاصمة الدولة الإسلامية ، وكان القائد يظن أنه يسر بذلك الخليفة ، ولكن الخليفة غضب لهذه الفعلة لما فيها من المثلة ، والمساس بكرامة الإنسان فقالوا له : إنهم يفعلون ذلك برجالنا ، فقال الخليفة فى استنكار : آستنان بفارس والروم ؟ لا يحمل إلىّ رأس بعد اليوم !

وبعد أن تضع الحرب أوزارها ، يجب ألا ينسى الجانب الإنسانى والأخلاقى فى معاملة الأسرى وضحايا الحرب .

يقول الله تعالى فى وصف الأبرار من عباده : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً ﴾ (٣) .

---

(١) البقرة : ١٩٠ (٢) رواه مسلم فى صحيحه من حديث بريدة .

(٣) الإنسان : ٨ ، ٩

● **بين أخلاق الإسلام وأخلاق اليهودية والمسيحية :**

كانت اليهودية ديانة شعب خاص فى مرحلة معينة من تاريخه ، ولم يقصد بها أن تكون رسالة عامة ، ولا شريعة خالدة ، كما تدل التوراة نفسها . ولهذا استحفظ الله علماء إسرائيل وأحبارهم هذا الكتاب الإلهى ، ولم يتول هو سبحانه حفظه ، فعدت عليه العوادى ، وأصابه التحريف والتبديل ، حتى رأينا التوراة تحتوى كثيراً من قصص الأنبياء ، تنسب إليهم ارتكاب أشنع الرذائل الخلقية ، كما رأينا فى أخلاقها الطابع الدنيوى المادى الحسى ، والطابع العنصرى البشع ، المتسم بكثير من العنف والقسوة ، مع اهتمام زائد بالرسوم والشكليات .

والمسيحية جاءت علاجاً لهذا الغلو المادى الذى غرق فيه اليهود - ومثلهم الرومان - فكانت أشبه بحقنة روحية قوية مضادة . وكثيراً ما تكون الحكمة فى علاج الغلو بغلو مثله ، بشرط أن يكون ذلك لمرحلة معينة ، وفترة مؤقتة ، حتى يحدث التوازن ، ويتحقق الانسجام والاعتدال .

وهكذا كانت المسيحية ، روحانية عالية ، ومثالية محلقة ، لم يقصد بها أن تكون شريعة العالم ، ولا رسالة الخلود . ولهذا كان أتباعها - وخصوصاً الغربيون هم أبعد الناس عن تنفيذ ما تأمر به من الزهد والعفو والسماحة ، وحب الأعداء ! كما أن التصورات ، والقيم والتقاليد التى أضافتها الكنيسة على توالى العصور - ومن صورها الرهبانية - صبغت المسيحية - وخصوصاً فى الغرب - بالتزمت والجمود وإماتة الحياة .

أما الإسلام فقد تضمن كلمة الله الأخيرة للبَشرية ، بعد أن بلغت أشدها ، وأصبحت مستعدة لأن تخاطب برسالة عامة خالدة . لهذا تكفل الله بحفظ كتاب الإسلام بنفسه ، فلم تتغير فيه كلمة ، ولم ينقص فيه حرف ، على توالى القرون : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [1] .



---

(١) الحجر : ٩

خصائص الأخلاق الإسلامية

لهذا شاء الله أن تتميز الأخلاق فى الإسلام بخصائص انفردت بها عن اليهودية أو المسيحية أو كليهما ، وهى الخصائص التى جعلتها صالحة لكل الأفراد وكل الطبقات وكل الأجناس ، وكل البيئات ، وكل الأزمان ، وكل الأحوال .

١ - أخلاق معللة مفهومة :

أُولى هذه الخصائص أنها برئت من الطابع التعبدى التحكمى الذى عرفت به اليهودية ، والذى ظنه بعض الباحثين فى الأخلاق لازماً ذاتياً لأسلوب الدعوة الأخلاقية فى الأديان جميعاً ، وجهل هؤلاء أن الإسلام على عكس ذلك تماماً . إنما يعتمد دائماً على الحكم المعقولة ، والعلل المقبولة ، مخاطباً العقل القويم ، والوجدان السليم ، مبيناً المصالح من وراء ما يأمر به ، والمفاسد من جراء ما ينهى عنه ، مفصَّلاً تارة ، ومجْملاً أُخرى .

اقرأ فى التعليل التفصيلى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ ، إنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ ، ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ، ﴿ وَلاَ تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ، ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ، فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ .

وفى التعليل الإجمالى : ﴿ فَاسْعَوْاْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ، وَذَرُوا الْبَيْعَ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ، ﴿ أَو لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ ﴾ .

٢ - أخلاق عالمية :

والأخلاق فى الإسلام إنسانية عالمية ، لا تبيح لجنس ما تحرمه على آخر ، العرب والعجم فيها سواء ، بل المسلمون وغيرهم أمام أخلاقها سواسية ،

الربا حرام مع المسلم والكافر ، والسرقة حرام لمال المسلم والكافر ، والزنا حرام بالمسلمة وغير المسلمة ، والعدل واجب مع المسلم وغير المسلم ، والعدوان حرام على المسلم وغير المسلم . وفى هذا يقول القرآن :

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُواْ ، أعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ (١) .

وبهذا تنزهت الأخلاق الإسلامية عن النزعة العنصرية القومية التى اتسمت بها الأخلاق اليهودية ، والأخلاق القبلية والبدائية على وجه العموم .

٣ - ملاءمة الفِطرة :

جاء الإسلام فى مجال الأخلاق بما يلائم الفطرة والطبيعة البَشرية ويكملها ، لا بما يصادرها ويصدمها ، فما كان الله ليخلق الإنسان على طبيعة ثم يكلفه أن يقهرها ويقتلها ، أو يبطل أثرها ويجمّدها .

ومن هنا اعترف الإسلام بالكائن الإنسانى ، كما خلقه الله ، بدوافعه النفسية ، وميوله الفِطرية ، وكل ما صنعه أنه هذبها وسما بها ، ووضع لها الحدود التى تصان بها مصلحة المجتمع ، ومصلحة الفرد ذاته . ولهذا أباحت الشريعة التمتع بالطيبات والزينة ، وشرعت المِلْكية الخاصة ، ولم تنظر للغرائز على أنها رجس من الشيطان .

رغب الإسلام فى النظافة والزينة ، وجعلهما من مقدمات الصلاة وشروطها ﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ (٢) .

أنكر القرآن بشدة على الذين يحرمون ﴿ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ (٣) .

فإذا كانت المسيحية ترى أن الغنى لا يدخل ملكوت السموات ، فالإسلام يقول : « نعم المال الصالح للرجل الصالح » .

---

(١) المائدة : ٨ (٢) الأعراف : ٣١ (٣) الأعراف : ٣٢

وإذا كانت المسيحية قد أنشأت نظام الرهبانية العاتى بما فيه من قسوة على الجسد ، ومصادرة للنوازع الفطرية ، فالإسلام ينهى عن التبتل ، ويحض على الزواج ، ويرى أن الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة ، بل يعتبر السعى على العيال ، والقيام على شؤونهم ضرباً من الجهاد فى سبيل الله .

ولكن الإسلام فى كل ما أباحه - مراعياً الطبيعة البشرية - قد وضع له الضوابط والحدود التى تقف عند حد الاعتدال ، ولا يستحيل بالإفراط والغلو إلى انطلاق حيوانى ذميم .

٤ - مراعاة الواقع :

ومن خصائص الأخلاق الإسلامية : أنها أخلاق واقعية ، لا تصدر أوامرها ونواهيها لأناس يعيشون فى أبراج عاجية ، أو يحلّقون فى أجواء المثالية المجنحة ، إنما تخاطب بشراً يمشون على الأرض ، لهم دوافع وشهوات ، ولهم مطامع وآمال ، ولهم مصالح وحاجات ، ولهم من دوافع الجسد ما ينزع بهم إلى الأرض ، كما لهم من أشواق الروح ما يرتفع بهم إلى السماء .

لم يكلف القرآن الإنسان أن يحب أعداءه ، وأن يبارك لاعنيه - كما أمر الإنجيل - فهذا شىء لا تطيقه النفس البَشرية - إلا شذوذاً - وإنما أمر القرآن المؤمنين أن يعدلوا مع أعدائهم ، ولا تحملهم عداوتهم وبغضهم على الاعتداء عليهم ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ ، أعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْـوَى ﴾ (١) ، وهذا هو المقدور للبَشر ، وأنه مع ذلك لَقِمّة لا يرتقى إليها إلا المؤمنون .

ولم يقل القرآن ما قال الإنجيل : « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر ، ومن سرق قميصك ، فأعطه إزارك » ، فهذا لا يستطيعه - كما يشهد الواقع - كل الناس ، ولا فى كل الأحوال . بل قال القرآن : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ، فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ ، فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ ﴾ (٢) ،

---

(١) المائدة : ٨ (٢) الشورى : ٤٠

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ (١) ، فأقر مبدأ العدل ، ثم فتح الباب للمتطلعين إلى السمو والكمال ، ليعفُوا ويصفحوا . الشيء الذى يحرمه الإسلام هو العدوان : ﴿ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ ﴾ (٢) ، وبذلك وفق الإسلام بين عدل التوراة وسماحة الإنجيل ، وهذه هى الواقعية المثالية المتوازنة .

لم يقل القرآن ما قال الإنجيل : « إذا أعثرتك عينك فاقلعها ، وألقها عنك ، فإنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك من أن يلقى بدنك كله فى جهنم » ، بل أمر المؤمنين والمؤمنات أن يغضوا من أبصارهم ، كما أمرهم بالتوبة مما قد يبدر منهم ، فقال : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٣) ، وعفا الرسول عن نظرة الفجاءة ، وقال : « لا تتبع النظرة النظرة فإنما لك الأولى ، وليست لك الآخرة » .

ومن واقعية الأخلاق الإسلامية أنها لم تفترض فى المؤمنين المتقين أن يكونوا ملائكة أُولى أجنحة ، لا تسول لهم أنفسهم سوءاً يوماً ، ولا يتورطون فى أوحال الرذيلة أبداً ، كلا إن الإنسان خلق على طبيعة مزدوجة ، جمعت بين طين وحمإٍ مسنون ، وبين نفخة من روح الله . فليس بمستنكر أن يذنب ، ثم يتوب . إنما المنكر أن يتمادى فى الذنوب ويستمرئ الرذيلة والعصيان . لقد أذنب آدم – أبو البَشر – وتاب فتاب الله عليه ، فلا غرابة أن يكون بنوه مثله ، لهذا جعل القرآن من أصناف المتقين : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً ، أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ ، فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ، وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ ؟ ، وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

كما فرق القرآن بين كبائر الإثم وفواحشه ، وبين صغائر السيئات ولمم

---

(١) النحل : ١٢٦ (٢) البقرة : ١٩٠

(٣) النور : ٣١ (٤) آل عمران : ١٣٥

الذنوب التى قلما يسلم منها أحد ، فهى فى دائرة المسامحة والغفران ما اجتنبت الموبقات : ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ، وَنُدْخِلْكُم مُّدخَلاً كَرِيماً ﴾ (١) .

ومن واقعية الأخلاق الإسلامية أنها قدرت للضرورات قدرها ، وراعت الأعذار والظروف المخففة ، ولم تتزمت تزمت المثاليين المتطرفين الذين لا يقبلون أى استثناء . ولهذا بعد أن ذكر القرآن محرمات الأطعمة ، عقب عليها بقوله : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) .

٥ – الإيجابية :

ومن خصائص الأخلاق فى الإسلام : أنها أخلاق إيجابية ، فهى لا ترضى من المتحلى بها مسايرة الركب ، أو المشى مع التيار ، أو العجز والاستسلام للأحداث توجه قياده كالريشة فى مهب الريح . إنما تحث على القوة والكفاح ، ومواصلة السعى فى ثقة وأمل ، وتقاوم العجز واليأس ، والتماوت والكسل ، وكل أسباب الضعف . وفى القرآن الكريم : ﴿ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ (٣) . وفى الحديث : « احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز ، ولا تقل : لو أنى فعلت كذا لكان كذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فإن « لو » تفتح عمل الشيطان » .

ويوصى الرسول بالعمل لعمارة الحياة حتى آخر لحظة فى عمر الدنيا ، ولو لم ينتفع بثمرة العمل أحد ، ولكن احتراماً لقيمة العمل فى ذاته ، « إن قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة يريد أن يغرسها ، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها » .

يرفض الإسلام الاتكالية المنهزمة التى نراها فى قول أصحاب موسى له : ﴿ فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ ، إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ﴾ (٤) ، ولكن يريد

---

(١) النساء : ٣١ (٢) البقرة : ١٧٣
(٣) مريم : ١٢ (٤) المائدة : ٢٤

الإيجابية الفعالة التى تتمثل فى قول أصحاب محمد : « إذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا معكما مقاتلون » [1] .

لم يكتف الإسلام من المسلم أن يكون مستقيماً فى نفسه ، حتى يعمل على استقامة غيره ، ولم يقبل المرء فى عداد الفضلاء الصالحين إذا صلح هو ، ولم يأبه لفساد المجتمع من حوله ، بل فرض على كل مسلم - بقدر كفايته واستطاعته - الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر والمرحمة ، والنصيحة فى الدين ، والاهتمام بأمر المسلمين : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [1] ، ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [2] ، « الدين النصيحة » ، « من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم » .

بهذا رفض الإسلام السلبية أمام الفساد الاجتماعى والسياسى ، والتحلل الخلقى والدينى ، وطلب إلى المسلم أن يغير المنكر بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان .

والتغيير بالقلب ليس سلبياً كما يظن ، ولكنه تعبئة نفسية وشعورية ضد الفساد ، لا بد أن تتجسد يوماً فى عمل ملموس .

٦ - الشمول :

ومن خصائص الأخلاق الإسلامية أنها أخلاق شاملة مستوعبة ، فإذا ظن بعض الناس أن الأخلاق فى الأديان تنحصر فى أداء الشعائر التعبدية ونحو ذلك ، فهذا إن صح فى أخلاق دين ما ، لا يصح أن يوصف به قانون الأخلاق فى الإسلام . فإن هذا القانون لم يدع للنشاط الإنسانى فى ناحيتيه :

---

(١) آل عمران : ١١٠ (٢) العصر : ١ - ٣

الفردية والاجتماعية مجالاً حيوياً ، أو فكرياً ، أو أدبياً ، أو روحياً ، إلا رسم له منهجاً للسلوك وفق قاعدة معينة ، بل تخطى علاقة الإنسان بنفسه وعلاقته ببنى جنسه ، فشمل علاقته بالكون فى جملته وتفصيله ، ووضع لذلك كله ما شاء الله من الآداب الراقية ، والتعاليم السامية ، وهكذا جمع ما فرقه الناس باسم الدين ، وباسم الفلسفة ، ثم كان له عليهما المزيد .

من أخلاق الإسلام ما يتعلق بذات الفرد :

١ - جسماً : له حاجاته وضروراته : « إن لبدنك عليك حقاً » .

﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا ﴾ .

٢ - وعقلاً : له مواهبه وآفاقه : ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، ﴿ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَفَكَّرُوا ﴾ .

٣ - ونفساً : لها مشاعرها ودوافعها وأشواقها : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ ، ﴿ وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ .

٤ - ومن أخلاق الإسلام ما يتعلق بالمجتمع : فى آدابه ومجاملاته :

﴿ لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾ ، ﴿ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِى الْأَرْضِ مَرَحاً ﴾ .

٥ - وفى اقتصاده ومعاملاته : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ ، ﴿ اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِىَ مِنَ الرِّبَا ، إن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ ، « من غش فليس منا » .

٦ - وفى سياسته وحكمه : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ ، « الدين النصيحة .. لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم » .

فلا انفصال فى شرعة الإسلام بين السياسة والأخلاق ، ولا بين الاقتصاد والأخلاق ، كما تنادى بذلك بعض الاتجاهات الحديثة فى العالم الغربى .

ومن أخلاق الإسلام ما يتعلق بغير العقلاء من الحيوان والطير : « فى كل كبد رطبة أجر » ، « دخلت امرأة النار فى هرة حبستها » .

ومنها : ما يتعلق بالكون والحياة : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) ، ﴿ أَوَ لَمْ يَنظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَىْءٍ ﴾ (٢) .

وقبل ذلك كله ما يتعلق بحق الخالق العظيم سبحانه وتعالى ، الذى لا يعبد غيره ولا يستعان سواه : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (٣) .

٧ - التوازن :

ومن خصائص الأخلاق الإسلامية : التوازن الذى يجمع بين الشىء ومقابله فى اتساق وتناسق ، بلا غلو ولا تفريط .

من ذلك : التوازن بين حق الجسم وحق الروح ، فلا حرمان للجسم يصل إلى حد التعذيب ، كما فى البرهمية الهندية ، والمانوية الفارسية ، والرواقية اليونانية ، والرهبانية المسيحية ونحوها . ولا إغفال لأمر الروح ، كما فى اليهودية إلى حد كبير ، ثم فى المذاهب المادية التى لم تعترف للروح بوجود ، فضلاً عن أن يكون لها حق . ولهذا قال الرسول لبعض أصحابه الذين عزم أحدهم أن يقوم الليل فلا ينام أبداً ، وعزم الثانى أن يصوم النهار فلا يفطر أبداً ، وعزم الثالث أن يعتزل النساء فلا يتزوج أبداً : « إنما أنا أعلمكم بالله ، وأخشاكم له ، ولكنى أقوم وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سُنَّتى فليس منى » .

ومن ذلك : التوازن بين الدنيا والآخرة ، فإذا كانت اليهودية تجعل أكبر

---

(١) الجاثية : ١٣ (٢) الأعراف : ١٨٥ (٣) الفاتحة : ٥

همها هذا العالم الأرضى الحاضر ، والمسيحية تحصر كل توجيهها فى ملكوت السماء حيث العالم الآخر ، فالإسلام يزاوج بين النظرتين ، ويمزج بين الحياتين ، فهذه مزرعة لتلك ، والله قد استخلف الناس فى الأرض ، واستعمرهم فيها ، فلا ينبغى أن يخربوها أو يعطلوها ، والسعيد من فاز بحسنة الدنيا وحسنة الآخرة : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَفِى الآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ (١) ، ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ، وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ (٢) .

ومن ذلك التوازن بين الحقوق والواجبات ، فلا تدليل للفرد بكثرة الحقوق وإطلاق العنان له باسم الحرية ، فيسترخى ويطغى ، وينحرف ويفسد . . ولا إرهاق له بكثرة الواجبات والأعباء ، وإن ناء بها ظهره ، وخارت قواه ، لا باسم المجتمع ، ولا باسم غيره .

ومن ذلك : التوازن بين الواقعية والمثالية ، فمع الاعتراف بالواقع الذى يعيشه أكثر الناس ، يدع المجال مفتوحاً - مع الترغيب والتشويق - لأصحاب السبق والهمم ، للسمو والارتفاع والمسارعة فى الخيرات ، فإن درجات الناس تختلف ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ (٣) ، ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ، أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ (٤) .

إن الناظر إلى توازن الأخلاق الإسلامية ، وتناسقها المعجز ، يأخذه العجب كيف اجتمعت فيها الفضائل المتقابلة ، التى يحسب الكثيرون أن التقاءها ضرب من المحال . ولهذا يتعذر على الباحث أن ينسبها إلى لون أو مذهب من الألوان أو المذاهب الأخلاقية ، التى عرفها الناس قديماً وحديثاً : أهى أخلاق قوة أم أخلاق محبة ؟ هل هى أخلاق زهد أم أخلاق حياة ؟ أهى أخلاق روحية أم أخلاق مادية ؟ أهى أخلاق ربانية أم أخلاق إنسانية ؟ أهى

---

(١) البقرة : ٢٠١

(٢) القصص : ٧٧

(٣) فاطر : ٣٢

(٤) الواقعة : ١٠ ، ١١

أخلاق عقلية أم أخلاق دينية ؟ أهى أخلاق مثالية أم واقعية ، أهى أخلاق فردية أم اجتماعية ؟

والحق أنها ليست واحدة من هؤلاء ، ولكنها كل أولئك جميعاً ، لأن فيها قدراً من كل نوع من هذه الأنواع ، هو خير ما فيها ، مع تنزهها عن مساوئه وتطرفاته . فالحق الذى لا ريب فيه أنها : أخلاق متكاملة متوازنة ؛ لأنها أخلاق إسلامية ، وكفى .



● **تعقيب** :

لقد شاء الله للإسلام أن يكون الرسالة العامة الخالدة ، فهو هداية الله للناس كافة ، من كل الأمم ، وكل الطبقات ، وكل الأفراد ، وكل الأجيال . والناس تختلف مواهبهم وطاقاتهم الروحية والعقلية والوجدانية ، وتتفاوت مطامحهم وآمالهم ، ودرجات اهتمامهم ، ولهذا جمعت الفكرة الأخلاقية فى الإسلام ، ما فرقته الطوائف الدينية ، والمذاهب الفلسفية - مثالية وواقعية - فى نظرتها إلى الأخلاق وتفسيرها لمصدر الإلزام الخلقى ، فلم يكن كل ما قالته هذه المذاهب والنظريات باطلاً ، كما لم يكن كله حقاً ، إنما كان عيب كل نظرية أنها نظرت من زاوية ، وأغفلت أخرى ، واهتمت بجانب على حساب جانب آخر ، وهو أمر لازم لتفكير البَشر ، الذى يستحيل عليه أن ينظر فى قضية ما نظراً يستوعب كل الأزمنة والأمكنة ، وكل الأجناس والأشخاص ، وكل الأحوال والجوانب ، فهذا يحتاج إلى إحاطة إله عليم حكيم .

فلا غرو إذا كانت نظرة الإسلام ، جامعة محيطة مستوعبة ، لأنها ليست نظرية بَشر ، بل وحى من أحاط بكل شىء علماً ، وأحصى كل شىء عدداً .

لهذا أودع الله فى هذا الدين ما يشبع كل نهمة معتدلة ، وما يقنع كل ذى وجهة ، ويلائم كل تطور ، فمن كان مثالياً ينزع إلى الخير لذات الخير ،

وجد فى أخلاقية الإسلام ما يرضى مثاليته ، ومن كان يؤمن بمقياس السعادة ، وجد فى الفكرة الإسلامية ما يحقق سعادته وسعادة المجموع معه ، ومن كان يؤمن بمقياس المنفعة - فردية أو اجتماعية - وجد فى الإسلام ما يرضى نفعيته ، ومن كان يؤمن بالترقى إلى الكمال ، وجد فيه ما يحقق طلبته ، ومن كان همّه التكيف مع المجتمع ، وجد فيه ما يلائم اجتماعيته ، حتى الذى يؤمن بأهمية اللذة الحسية يستطيع أن يجدها فيما أعد الله للمؤمنين فى الجنة من نعيم مادى ، ومتاع حسى ﴿ فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ ، وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ﴾ (١) . وبهذا تسمع كل أذن الأنشودة التى تحبها ، وتجد كل نفس الأمنية التى تهفو إليها .

هناك أصناف ثلاثة لا مكان لها فى الأخلاقية الإسلامية :

الأول : من لا يؤمن إلا باللذة الحسية الحاضرة ، أو بالمنفعة الدنيوية الشخصية العاجلة ، ولا يقيم وزناً لما هو مدخر له من لذائذ أكبر ، ومنافع أعظم فى حياة هى خير وأبقى ، شعاره قول الشاعر :

ما مضى فات ، والمؤمل غيب ولك الســـاعة التى أنت فيها

والثانى : الفرد الذى يرفض جميع القيم ، حباً لذاته ، واتباعاً لهواه ، أو يزعم أن القيم الأخلاقية من وضع طبقة لاستغلال طبقة أخرى ، وما شابه ذلك من لغو القول .

والثالث : المغرور المتعصب الذى يصر على ألا ينظر إلى الحياة والأحياء ، إلا من زاوية واحدة ، وأفق ضيق ، فهو سجين مذهب معين ، أو سجين نظرة خاصة ، لا يستطيع أن يخلص منها إلى الأفق الفسيح الذى جاءته به رسالة الإسلام .



(١) الزخرف : ٧٣

٤ - التشريع

من مقومات الإسلام الأساسية : التشريع ، ونعنى به الجانب الذى يضبط سير الحياة الإسلامية بمجموعة من الأحكام الشرعية العملية ، التى تنظم علاقة الناس بعضهم ببعض فى جوانب الحياة المختلفة ، وتبين لهم ماذا يحب الله منهم ولهم وماذا يكره .

• التشريع بين النص وعدمه :

ومن المعلوم لدارس الإسلام : أنه لم ينص بالتشريع على كل شىء ، بل هناك أشياء بينها وفصل فيها ، وأشياء بينها بإجمال ، وأشياء سكت عنها ولم يقل فيها شيئاً .

وقد روى أبو الدرداء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما أحل الله فى كتابه فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو ، فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً ، ثم تلا : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ (١) » ، ومن هنا نجد أن الإسلام ترك قصداً منطقة فراغ من التشريع الملزم ، وهى التى سميناها (منطقة العفو) (٢) أخذاً من هذا الحديث .

وقد بين حديث آخر من أحاديث « الأربعين النووية » الشهيرة : أن ترك هذه المنطقة المسكوت عنها كان رحمة من الله بنا ، وتوسعة لنا ، وتيسيراً علينا ، يقول عليه الصلاة والسلام : « إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ،

---

(١) مريم : ٦٤ ، رواه البزار والطبرانى وإسناده حسن ورجاله موثقون ، كما قال الهيثمى فى المجمع : ١/ ١٧١ ، ورواه الحاكم وصحَّحه ووافقه الذهبى : ٢/ ٣٧٥

(٢) فى رسالتنا « عوامل السعة والمرونة فى الشريعة الإسلامية » .

وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء ، رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها » [1] ، والمستقرئ لهذه المنطقة يجد أنها فى المجالات الكثيرة التغير ، السريعة التطور ، التى تختلف كثيراً باختلاف البيئات والأعصار والأحوال والظروف كالأمور السياسية والعسكرية والإدارية والإجرائية ونحوها .

وهنا نستطيع أن نملأ الفراغ التشريعى - الذى تركته لنا النصوص عمداً - عن طريق القياس على المنصوص بشروطه ، أو الاستحسان عندما لا يجمل القياس ، أو الاستصلاح بضوابطه ، أو الاستصحاب ، أو مراعاة العرف ، أو سد الذرائع ، أو رعاية المقاصد . . إلخ .

وأحياناً ينص الإسلام فى بعض المجالات ، ولكن على وجه كلى ، بحيث يضع الأسس والمبادىء ، ويرسم الإطار العام ، ولكنه يدع التفصيل لاجتهاد المجتهدين ، يختارون لأنفسهم ما هو أليق بهم ، وبتحقيق مصالحهم فى مكانهم وزمانهم وحالهم .

وهذا مثل (الشورى) التى نص عليها القرآن والسُّنَّة مثل قوله تعالى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ [2] ، وقوله : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ ﴾ [3] وثبوت مشاورة الرسول ﷺ لأصحابه فى وقائع شتى ، ولكنه لم يفصل لنا : من هم أهل الشورى ؟ أو كيف يختارون ؟ ومن يختارهم ؟ وإلى متى يظلون هكذا ؟ وفيم يتشاورون ؟ وهل يؤخذ برأى الأكثرية أو لا ؟

لم يلزمنا الشرع فى ذلك بصورة معينة ، قد تصلح لعصر ولا تصلح لآخر ،

---

(١) رواه الدارقطنى : ٤/١٨٣ ، ١٨٤ ، والطبرانى فى الكبير : ٢٢/٢٨٩ ، والبيهقى : ١٠/١٢ ، ١٣ ، وحسَّنه النووى ، وقبله ابن السمعانى فى أماليه ، ونازعهما ابن رجب فى شرحه للحديث فى جامع « العلوم والحكم » .

(٢) الشورى : ٣٨ (٣) آل عمران : ١٥٩

وتصلح لبلد ولا تصلح لغيره ، فلم يشأ أن يجمّدنا على حالة ، بل ترك لنا السعة والحرية لنجتهد لأنفسنا ونقتبس - إن شئنا - من غيرنا .



● **متى تفصل النصوص فى التشريع ؟**

وفى بعض المجالات يفصل التشريع الإسلامى ، وذلك حيث يكون الثبات هو الأصل ، والتغير لا يحدث إلا قليلاً ، كما فى شؤون الأسرة والمواريث وما يسمونه اليوم (الأحوال الشخصية) .

حتى إن القرآن ليفصّل فى هذه الأمور ما يفصّل فى غيرها ، حتى لا يضل الناس ، وتلتبس عليهم الدروب ، كما قال تعالى فى هذه آخر آية من سورة النساء ، وهى متعلقة بالميراث : ﴿ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [(١)] ، أى كراهية أن تضلوا فتهلكوا . من رحمة الله : أن ما فصله الإسلام من الأحكام نوعان : نوع فصله بنصوص قطعية الثبوت والدلالة ، وهذا قليل ، ولكنه فى غاية الأهمية ، لأنه هو يجمع الأُمة على كلمة واحدة ، ويجسد وحدتها العملية والسلوكية ، بجوار الوحدة العقدية والوجدانية .

ونوع فصله بنصوص ظنية الثبوت أو الدلالة أو ظنيتهما معاً ، وهذا معظم أحكام الشرع ، ففيها مجال لتعدد الأفهام ، وتعدد المشارب والاجتهادات .



● **من أهداف التشريع فى الإسلام :**

وللتشريع فى الإسلام أهداف سامية ، ومقاصد عليا ، يحرص الشارع الحكيم على تحقيقها فى حياة الناس .

وهذا يدلنا على أن أحكام الشرع معللة ومفهومة ومربوطة بمصالح الخلق ،

---

(١) النساء : ١٧٦

وهذا متفق عليه بين المسلمين كافة ، إلا فئة قليلة من أهل الظاهر ومن سلك سبيلهم .

والدليل على هذا آيات لا تحصى من كتاب الله ، وأحاديث لا تحصى من أحاديث رسول الله ﷺ ، كلها تعلل الأوامر والنواهي والأحكام ، حتى العبادات نفسها ، فالصلاة ﴿ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ (١) ، والزكاة تؤخذ من أصحاب المال ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ (٢) ، والصيام كتب على الذين آمنوا ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٣) ، والحج قد أذنوا به ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ ﴾ (٤) .

وهذا - وغيره كثير - يدلنا على أن للشرع حكماً ومقاصد فيما شرع يجب أن يبحث عنها ، وأن تراعى . ومن هذه المقاصد :

١ - أن تقوم المعاملات بين الناس على أساس العدل ، الذى قامت به السموات والأرض ، فلا تحيز لغنى ضد فقير ، ولا محاباة لقوى على ضعيف ، ولا يفضل عربى على عجمى ، ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى .

وهذا العدل هو هدف الرسالات السماوية جميعاً ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (٥) .

٢ - أن يقوم الإخاء بين الناس ، وتمتد جسور الثقة والتفاهم ، وتزول أسباب التخاصم والنزاع ، وذلك بتحديد الحقوق والواجبات ، وتوضيح أركان وشروط المعاملات ، ومنع الظلم والغرر والجهالات ، وبذلك يعطى كل ذى حق حقه ، فتطمئن الأنفس ، وتصان الحرمات والدماء والأعراض والأموال ، ويستقر التعامل على أساس مكين .

---

(١) العنكبوت : ٤٥ (٢) التوبة : ١٠٣ (٣) البقرة : ١٨٣
(٤) الحج : ٢٨ (٥) الحديد : ٢٥

٣ - المحافظة على مصالح الخلق ، بمراتبها الثلاث : الضرورية - التى لا يعيش الإنسان بدونها - والحاجية - التى بدونها يكون الإنسان فى حرج وضيق - والتحسينية - التى بها تكتمل حياة الإنسان وتترفه وتمضى على أفضل المسالك ، وأحسن العادات والأحوال .

٤ - أن يفرغ الناس - بعد أن يطمئنوا فى معاملاتهم ومبادلاتهم ، وسائر علاقاتهم المادية والبَشرية - لأداء رسالتهم على الأرض : عبادة لله تعالى ، وعمارة لأرضه ، وقياماً بخلافته فيها ، ودعوة للعالم إلى رسالته التى جعلها رحمة للعالمين ، وهى رسالة غايتها : الحق والخير ومكارم الأخلاق ، وسبيلها : الإيمان وعمل الصالحات ، والتواصى بالحق وبالصبر . وبهذا ينجو الإنسان - فرداً ومجتمعاً - من خسران الدنيا والآخرة . وهذا ما لخصته سورة العصر من كتاب الله فى هذه الكلمات الموجزة : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (١) .



● مكانة الحدود فى التشريع :

وأحب أن أبين هنا أمرين مهمين :

أولهما : أن الجانب التشريعى أو القانونى ليس هو كل الإسلام ولا جُلّه ، كما يتصور بعض الناس أو يصورون ، فالإسلام عقيدة تلائم الفطرة ، وعبادة تغذى الروح ، وخُلق تزكو به النفس ، وأدب تجمل به الحياة ، وعمل ينفع الناس ، ويمكث فى الأرض ودعوة لهداية العالَم إلى الله ، وجهاد فى سبيل الحق والخير ، وتواصٍ بالصبر والمرحمة . كما أنه - فى الوقت نفسه - تشريع يضبط سير الحياة ، وينظم علاقة الإنسان بربه ، وعلاقته بأسرته ، وعلاقته بمجتمعه ، وعلاقته بدولته ، وعلاقة دولته به ، وعلاقتها بالدول الأُخرى مسالمة ومحاربة .

---

(١) العصر : ١ - ٣

إن الإسلام توجيه وتربية وتكوين للفرد الصالح ، وللمجتمع الصالح ، قبل أن يكون قانوناً وتشريعاً .

والأمر الثانى : أن الحدود والقصاص والعقوبات جزء محدود فى التشريع الإسلامى الواسع ، وآيات الحدود والقصاص فى القرآن لا تتجاوز عشر آيات من نحو ستة آلاف آية أو تزيد ، كما هو معلوم .

ثم إن العقاب للمنحرفين من الناس ، وهؤلاء ليسوا هم الأكثرين ، وليسوا هم القاعدة ، بل هم الشواذ عن القاعدة .

والإسلام لم يجئ لعلاج المنحرفين أساساً ، بل لتوجيه الأسوياء ووقايتهم أن ينحرفوا .

والعقوبة ليست هى العامل الأكبر فى معالجة الجريمة فى نظر الإسلام ، بل الوقاية منها بمنع أسبابها هو العامل الأكبر ، فالوقاية دائماً خير من العلاج .



● **مكانة الحد فى جريمة الزنا :**

فإذا نظرنا إلى جريمة كالزنا نجد أن القرآن الكريم ذكر فى شأن عقوبة الحد فيها آية واحدة فى مطلع سورة النور ، وهى قوله تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَاجْلِدُواْ كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ، وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ اللهِ إن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (١) .

ولكن السورة نفسها اشتملت على عشرات الآيات الأخرى التى توجِّه إلى الوقاية من الجريمة .

وحسبنا قوله تعالى : ﴿ إنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِى الَّذِينَ آمَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ (٢) .

---

(١) النور : ٢ (٢) النور : ١٩

وقوله سبحانه فى تنظيم التزاور وآدابه ، واحترام البيوت ورعاية حرماتها : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَى أَهْلِهَا ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . . ﴾ (١) .

ويدخل فيها آداب الاستئذان للخدم والأطفال الذين لم يبلغوا الحُلُم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ ، مِّن قَبْلِ صَلاةِ الفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلاَةِ العِشَاءِ ، ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ﴾ (٢) .

وأهم من ذلك تربية المؤمنين والمؤمنات على خُلُق العفاف والإحصان ، بغَضّ البصر وحفظ الفَرْج ، وذلك فى قوله جل شأنه : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ، ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ، إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ . . . ﴾ (٣) .

وهنا برز عنصر جديد فى الوقاية من الزنا وجرائم الجنس ، وهو منع النساء من الظهور بمظهر الإغراء والفتنة للرجال ، وإثارة غرائزهم وأخيلتهم ، حتى جاء فى الآية الكريمة قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ (٤) ثم تختم الآية بقوله سبحانه : ﴿ وَتُوبُواْ إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٥) .

وأهم من ذلك كله الأمر بتزويج الأيامى من الرجال والنساء ومخاطبة المجتمع كله بذلك ، باعتباره مسئولاً مسئولية تضامنية : ﴿ وَأَنكِحُواْ الأَيَامَى

---

(١) النور : ٢٧ (٢) النور : ٥٨ (٣) النور : ٣٠ - ٣١

(٤) النور : ٣١ (٥) النور : ٣١

منكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ، إن يَكُونُواْ فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

ومسئولية المجتمع هنا - وعلى رأسه الحكَّام - تتمثل فى تيسير أسباب الارتباط الحلال ، إلى جوار سد أبواب الحرام ، وذلك بإزاحة العوائق المادية والاجتماعية أمام راغبى الزواج ، من غلاء المهور ، والإسراف فى الهدايا والدعوات والولائم والتأثيث ، وما يتصل بذلك من شئون . . . .

فليست إقامة الحد هنا هى التى تحل المشكلة ، والواقع أن الحد هنا لا يمكن أن يقام بشروط الشرعية إلا فى حالة الإقرار فى مجلس القضاء ، أربع مرات على ما يراه عدد من الأئمة ، أو شهادة أربعة شهود عدول برؤية الجريمة رؤية مباشرة أثناء وقوعها ، ومن الصعب أن يُتاح ذلك . فكأن القصد هنا هو منع المجاهرة بالجريمة . أما مَن ابتُلِىَ بها مستتراً فلا يقع تحت طائلة العقاب الدنيوى . وأمره فى الآخرة إلى الله سبحانه .

ولهذا نطالب بتطبيق الشريعة الإسلامية وحدودها ، موقنين أن القوانين والعقوبات وحدها لا تصنع المجتمعات ، ولا تبنى الأمم ، إنما تُبنَى الأمم وتُصنَع المجتمعات بالإيمان الصادق والخُلُق الفاضل ، والتوجيه الرشيد ، والتربية المستمرة ، يسندها تشريع عادل ، وقانون مُحْكَم ، لا يُفرِّق بين سيد ومسود .



● مكانة الحد فى جريمة السرقة :

وإذا نظرنا إلى جريمة أخرى مثل السرقة ، نجد أن القرآن الكريم تحدَّث عن عقوبتها فى آيتين فقط من سورة المائدة ، وهما قوله تعالى :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللهِ ،

(١) النور : ٣٢

وَاللهُ عزيزٌ حكيمٌ * فَمَنْ تَاب مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ، إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

وهذه الآية التى أوجبت قطع يد السارق ، إنما نزلت فى سورة المائدة وهى من أواخر ما نزل من القرآن ، أى بعد أن توطدت أركان المجتمع الإسلامى الذى أسسه رسول الله ﷺ فى المدينة ، وهو مجتمع يقوم على العدل والتكافل والأخوة ، وأهله كالأسرة الواحدة ، بل كالجسد الواحد ، أو كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، يأخذ قويه بيد ضعيفه ، ويصب غنيه على فقيره ، ويتكافل أهله فى سرّائهم وضرّائهم . فليس بمؤمن فيه من بات شبعان وجاره إلى جنبه جائع ، وليس بمسلم مَن يستأثر بالخير دون أخيه ، الغنى فيه مستخلف فى ماله ، بل فى مال الله عنده ، وفى ماله حق معلوم للسائل والمحروم ، والزكاة فريضة دينية مالية اجتماعية ، تؤخذ من أغنياء المجتمع لتُرَد على فقرائه ، هى الركن الثالث من أركان الإسلام ، ومَن لم يدفعها طوعاً أُخذت منه كرهاً ، ومَن أَبى وكان ذا شوكة أُعلنت عليه الحرب حتى يؤديها ، ولو كانت عناقاً أو عقال بعير ، كما فعل الخليفة الأول أبو بكر ، الذى أعلن الحرب لانتزاع حقوق الفقراء من براثن الأغنياء .

والزكاة هى أول الحقوق فى المال وليست آخرها ، ومَن كان عنده فضل مال فليعد به على مَن لا مال له .

لقد نزلت قبل آية حد السرقة عشرات الآيات ، بل مئاتها ، تأمر بإيتاء الزكاة ، وتحض على طعام المسكين ، وتدعو إلى الإنفاق فى سبيل الله ، وتحث على إقامة العدل والقسط بين الناس ، وتنهى عن الظلم فى كل صوره وأشكاله ، وتحذِّر من مصاير الظالمين فى الدنيا والآخرة .

ولهذا لا يُتصور فى ظل « التطبيق الإسلامى » الصحيح أن تقطع يد

---

(١) المائدة : ٣٨ - ٣٩

السارق فى مجتمع لا يجد العاطل فيه عملاً ، ولا الجائع خبزاً ، ولا العريان كساء ، ولا المريض علاجاً ، ولا الأُمِّى مدرسة يتعلم فيها ، فى حين تلعب فئة قليلة منه بالملايين من الجنيهات أو الدنانير أو الريالات تنثرها يميناً وشمالاً ، إلا على الفقراء والمتعبين !



● من خصائص التشريع فى الإسلام الشمول :

من خصائص التشريع فى الإسلام أنه تشريع شامل كذلك .

إنه لا يشرع للفرد دون الأسرة ، ولا للأسرة دون المجتمع ، ولا للمجتمع منعزلاً عن غيره من المجتمعات فى الأُمة المسلمة ، ولا للأُمة معزولة عن غيرها من أُمم الأرض ، كتابية كانت أو وثنية .

إن تشريع الإسلام يشمل التشريع للفرد فى تعبده وصلته بربه ، وهذا ما يفصله قسم « العبادات » فى الفقه الإسلامى ، وهو ما لا يوجد فى التشريعات الوضعية .

ويشمل التشريع للفرد فى سلوكه الخاص والعام ، وهذا يشمل ما يسمى « الحلال والحرام » أو الحظر والإباحة .

ويشمل التشريع ما يتعلق بأحوال الأسرة من زواج وطلاق ونفقات ، ورضاع ، وميراث ، وولاية على النفس والمال ونحوها . وهذا يشمل ما يسمى فى عصرنا « الأحوال الشخصية » .

ويشمل التشريع للمجتمع فى علاقاته المدنية والتجارية ، وما يتصل بتبادل الأموال والمنافع ، بعوض أو بغير عوض ، من البيوع والإجارات ، والقروض ، والمداينات ، والرهن ، والحوالة ، والكفالة ، والضمان وغيرها . مما تضمنته فى عصرنا القوانين المدنية والتجارية .

ويشمل التشريع ما يتصل بالجرائم وعقوباتها المقدرة شرعاً كالحدود

والقصاص ، والمتروكة لتقدير أهل الشأن كالتعازير . وهذا يشمل ما يسمى الآن بـ « التشريع الجنائى » ، أو « الجزائى » وقوانين العقوبات .

ويشمل التشريع الإسلامى ما يتعلق بواجب الحكومة نحو المحكومين ، وواجب المحكومين نحو الحكام ، وتنظيم الصلة بين الطرفين ، مما عنيت به كتب السياسة الشرعية والخراج والأموال ، والأحكام السلطانية فى الفقه الإسلامى ، وتضمنه فى عصرنا « التشريع الدستورى » أو « الإدارى » و« المالى » .

ويشمل التشريع الإسلامى ما ينظم العلاقات الدولية فى السلم والحرب بين المسلمين وغيرهم ، مما عنيت به كتب « السِّيَر » أو « الجهاد » فى فقهنا الإسلامى ، وما ينظمه فى عصرنا « القانون الدولى » .

ومن هنا لا توجد ناحية من نواحى الحياة إلا دخل فيها التشريع الإسلامى آمراً أو ناهياً ، أو مُخبراً .

وحسبنا أن أطول آية نزلت فى كتاب الله تعالى ، نزلت فى تنظيم شأن من الشؤون المدنية ، وهو المداينة ، وكتابة الدين .

ويبدو شمول التشريع الإسلامى فى أمر آخر ، أو بعد آخر ، وهو النفاذ إلى أعماق المشكلات المختلفة ، وما يؤثر فيها ، وما يتأثر بها ، والنظر إليها نظرة محيطة مستوعبة ، مبنية على معرفة النفس الإنسانية ، وحقيقة دوافعها وتطلعاتها وأشواقها ، ومعرفة الحياة البَشرية وتنوع احتياجاتها وتقلباتها ، وربط التشريع بالقِيمَ الدينية والأخلاقية ، بحيث يكون التشريع فى خدمتها وحمايتها ، ولا يكون مِعْولاً لهدمها .

ومن عرف هذا جيداً ، استطاع أن يفهم موقف التشريع الإسلامى وروعته من قضايا كثيرة ، كالطلاق وتعدد الزوجات ، والميراث ، والربا ، والحدود ، والقصاص ، وغيرها . مما أثبتت الدراسات المقارنة ، وأثبت الاستقراء التاريخى والواقعى فضل الإسلام فيه ، وتفوقه على كل تشريع سابق أو لاحق .

إن عيب البَشر الذى هو من لوازم ذواتهم المحدودة أنهم ينظرون إلى الأمور والأشياء من جانب واحد ، غافلين عن جانب أو أكثر من جوانبها الأخرى . والحقيقة أنهم لا ذنب لهم فى هذا القصور ولا حيلة ، لأن النظرة المحيطة الشاملة ، التى تستوعب الشىء من جميع جوانبه ، وتعرف كل احتياجاته ، وتدرك كل احتمالاته وتوقعاته ، لا يقدر عليها إلا رب البَشر وخالق الكون : ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ ﴾ (١) .



● واقعية التشريع الإسلامى :

ومن خصائص التشريع فى الإسلام : الواقعية ، فهو لم يغفل الواقع فى كل ما أحل وما حرم ، ولم يُهمل هذا الواقع فى كل ما وضع من أنظمة وقوانين للفرد ، وللأسرة ، وللمجتمع ، وللدولة ، وللإنسانية .

في التحليل والتحريم :

فمن مظاهر هذه الواقعية فى مجال الحلال والحرام ، وهو ما يتعلق غالباً بشؤون الفرد ، رجلاً أو امرأة :

١ - أن شريعة الإسلام لم تحرم شيئاً يحتاج إليه الإنسان فى واقع حياته ، كما لم تبح له شيئاً يضره فى الواقع .

ومن ثم أنكر القرآن تحريم الزينة والطيبات ، معلناً إباحتها لبنى الإنسان جميعاً بشرط القصد ، والاعتدال ، وعدم الإسراف فى استعمالها : ﴿ يَا بَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِد وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ ؟ (٢) .

---

(١) الملك : ١٤   (٢) الأعراف : ٣١ ، ٣٢

٢ - وراعت الشريعة فطرة البَشر فى الميل إلى اللهو والترويح عن النفس ، فرخصت فى أنواع من اللهو كالسباق وألعاب الفروسية وغيرها ، إذا لم تقترن بقمار ولا بحرام ، ولا تصد عن ذكْر الله وعن الصلاة . وخصوصاً فى المناسبات السارة ، كالأعراس والأعياد . وقد غنت جاريتان عند عائشة فى بيت النبى ﷺ ، فانتهرهما أبو بكر ، فقال النبى ﷺ : « دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد » [١] ، وقال يومئذ : « لتعلم اليهود أن فى ديننا فسحة .. وأنى بعثت بحنيفية سمحة » ! [٢] ، وأذن للحبشة أن يلعبوا فى مسجده بالحراب ، وسمح لزوجه عائشة أن تنظر إليهم حتى اكتفت .

وقد راعت الشريعة فِطرة المرأة وواقعها فى حب الزينة ، وعمق الرغبة فى التجمل ، فأباحت لها بعض ما حرمت على الرجال كالتحلى بالذهب ولبس الحرير .

٣ - ومن واقعية الشريعة : أنها قدرت الضرورات - التى تعرض للإنسان وتضغط عليه - حق قدرها ، فرخصت فى تناول المحرمات على قدر ما توجب الضرورة . وقرر فقهاء الشريعة : أن الضرورات تبيح المحظورات ، استناداً إلى ما جاء فى القرآن عند ذكر الأطعمة المحرمة من مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ ، فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [٣] .

٤ - ومن واقعية الشريعة أنها عرفت ضعف الإنسان أمام كثير من المحرمات ، فسدت الباب إليها بالكلية ، ولهذا حرمت قليلها وكثيرها ، كما فى الخمر ، لأن القليل يجر الكثير ، كما أنها عدت ما يوصل إلى الحرام حراماً ، سداً للذريعة ، وإقراراً بواقع الكثير من البَشر ، الذين لا يملكون أنفسهم إذا فتح لهم طريق إلى الحرام . ومن هنا كان تحريم الخلوة بالمرأة

---

(١) رواه الشيخان .　(٢) رواه أحمد فى مسنده .　(٣) البقرة : ١٧٣

الأجنبية ، إغلاقاً لباب قد تهب منه رياح الشر ، فلا يستطاع صدها . ومثل ذلك النظر بشهوة إلى الجنس الآخر . فإن العين رسول القلب ، والنظرة المتشهية بريد الفتنة ، وقديماً قال الشاعر :

كلُّ الحـوادث مبداها من النظـر ومعظم النار من مُسْتَصْغَر الشرر

وحديثاً ، قال شوقى :

نظرة ، فابتسامة ، فســلام فكلام ، فموعد ، فلِقاء !

فى تشريعات الزواج والأسرة :

٥ - ومن واقعية الشريعة الإسلامية : أنها راعت قوة الدوافع الجنسية لدى الإنسان فلم تطرحها دبر الأذن ، ولم تنظر إليها باستخفاف ، ولا باستقذار ، كما فعلت بعض الملل والنحل ، ولم ترض للإنسان أن يقاد من غرائزه وحدها ، كما فعلت بعض الفلسفات . . . فشرعت إشباع الدافع الجنسى بطريقة نظيفة ، تضمن بقاء الإنسان ، وكرامة الإنسان ، وارتفاع الإنسان عن الحيوان ، وذلك بشرعية « نظام الزواج » ، وقد أشار القرآن إلى ذلك بعد ما ذكر ما حرم الله من النساء ، وما أحله وراء ذلك بشرطه ، ثم قال : ﴿ يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ من قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً * يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنكُمْ ، وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً ﴾ (١) .

فالمفهوم من وصف الإنسان بالضعف فى هذا المقام : ضعفه أمام الغريزة الجنسية .

٦ - وانطلاقاً من هذه النظرة الواقعية للحياة والإنسان ، كانت إباحة تعدد الزوجات كما شرعه الإسلام .



(١) النساء : ٢٦ - ٢٨

● شرعية الحدود والقصاص والتعزير :

٧ - ومن واقعية الشريعة : أنها عملت بكل قوة على تطهير المجتمع من أسباب الجريمة ، وتربية الأفراد على حياة الاستقامة ، ولكنها مع هذا لم تكتف بالوازع الأخلاقى ، وإن حرصت عليه كل الحرص ، ولم تقتصر على التربية وحدها ، وإن كانت تراها فريضة وضرورة دينية واجتماعية ، ولكن فى الناس من لا يرتدع إلا بعقوبة زاجرة ، ولا تكفيه الموعظة الحسنة ، ولا التوجيه الرشيد ، ولهذا كان لا بد من سوط السلطان ، بجوار صوت القرآن ، حتى جاء عن عثمان رضى الله عنه : إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن !

ومن هنا أوجبت الشريعة العقوبات من الحدود والقصاص والتعازير ، ولم تذهب إلى ما يذهب إليه الخياليون من الناس الذين ينادون بإلغاء عقوبة الإعدام إشفاقاً على القاتل المسكين !! دون أن ينظروا إلى مصيبة المقتول وأهله ، وما جر عليهم من ويلات وأحزان ، ثم إلى أمن المجتمع كله من ناحية أخرى !! أو الذين يعطلون (حد السرقة) بزعم الرحمة بالمجرم (السارق) الذى لم يرحم نفسه ولا غيره ، حيث انتهك الحرمات ، وسطاً على الأموال ، وهدد أمن الجماعة ، ولم يبال - فى سبيل تحقيق مآربه ، والحرص على الإفلات من قبضة العدالة - أن يسفك دم البرآء وأن يقتل النساء والأطفال !

يقول تعالى فى شأن القصاص : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١) . وفى شأن السرقة : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللهِ ، وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢) .



● التيسير ورفع الحرج :

ومن خصائص التشريع فى الإسلام : التيسير ورفع الحرج عن المكلفين .

وهذا التيسير روح يسرى فى جسم الشريعة كلها ، كما تسرى العصارة فى

(١) البقرة : ١٧٩   (٢) المائدة : ٣٨

أغصان الشجرة الحية . وهذا التيسير مبنى على رعاية ضعف الإنسان ، وكثرة أعبائه ، وتعدد مشاغله ، وضغط الحياة ومتطلباتها عليه . وشارع هذا الدين رؤوف رحيم ، لا يريد بعباده عنتاً ولا رهقاً ، إنما يريد لهم الخير والسعادة وصلاح الحال والمآل . فى المعاش والمعاد .

كما أن هذا الدين لم يجئ لطبقة خاصة ، أو لإقليم محدود ، أو لعصر معين ، بل جاء عاماً لكل الناس ، فى كل الأرض ، وفى كل الأزمان والأجيال ، وإن نظاماً يتسم بهذا التعميم وهذه السعة ، لا بد أن يتجه إلى التيسير والتخفيف ، ليتسع لكل الناس ، وإن اختلف بهم المكان والزمان والحال .

وهذا ما يحسه ويلمسه كل من عرف هذا الدين .

فالقرآن ميسر للذكر ، والعقيدة ميسرة للفهم ، كما أن الشريعة ميسرة للتنفيذ والتطبيق . ليس فيها تكليف واحد يتجاوز طاقة المكلفين ، كيف وقد أعلن القرآن هذه الحقيقة فى أكثر من آية ، فقال : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا ﴾ (١) ، ﴿ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إلاَّ وُسْعَهَا ﴾ (٢) ، ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ مَا آتَاهَا ﴾ (٣) ، كما علم المؤمنين أن يدعوا ربهم فيقولون :

﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ (٤) ، وقد ورد فى الصحيح : أن الله استجاب لهم .

وقد نفى القرآن كل حرج عن هذه الشريعة ، كما نفى عنها العنت والعسر ، وأثبت لها التخفيف واليسر . قال تعالى وهو يحدثنا عن رخص الصيام ، من الفطر للمريض والمسافر : ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (٥) .

---

(١) البقرة : ٢٨٦ (٢) البقرة : ٢٣٣ (٣) الطلاق : ٧
(٤) البقرة : ٢٨٦ (٥) البقرة : ١٨٥

وجاءت الأحاديث النبوية تؤكد هذا الاتجاه القرآنى إلى التيسير نقرأ فيها : « بعثت بحنيفية سمحة » [1] .

« إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين » [2] .

« يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا » [3] .

وقد كانت سمة الرسول المميزة له فى كتب أهل الكتاب هى سمة الميسِّر ، ورافع الآصار ، والأغلال التى أرهقت أهل الأديان السابقة ، كما قال تعالى : ﴿ يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ ، يأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوف وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ، وَيَضَعُ عَنْهُمْ إصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [4] .

ومن أدعية القرآن التى علمها للمؤمنين : ﴿ رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾ [5] .

ولا غرو أن شرع الإسلام الرخص عند وجود أسبابها . وذلك كالترخيص فى التيمم لمن خاف التضرر باستعمال الماء لجرح أو لبرد شديد ، ونحو ذلك ، لقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴾ [6] ، ﴿ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [7] .

وكذلك الترخيص فى الصلاة قاعداً لمن تضرر بالصلاة قائماً ، والصلاة بالإيماء مضطجعاً ، أو مستلقياً لمن تؤذيه الصلاة قاعداً .

ومثل ذلك الترخيص فى الإفطار للحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما ، وكذلك لمن كان مريضاً أو على سفر ، ومثله الترخيص للمسافر فى القصر والجمع فى الصلاة .

---

(١) رواه أحمد عن عائشة . (٢) رواه البخارى والترمذى والنسائى عن أبى هريرة .
(٣) متفق عليه عن أنس . (٤) الأعراف : ١٥٧ (٥) البقرة : ٢٨٦
(٦) النساء : ٢٩ (٧) البقرة : ١٩٥

وجاء فى الحديث : « إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته » [1] .

وأنكر النبى ﷺ على من شدد على نفسه ، وصام فى السفر ، مع شعوره بشدة المشقة ، وحاجته إلى الفطر ، فقال فى مثله : « ليس من البر الصيام فى السفر » [2] .

ومن هنا أصبح من القواعد الفقهية الأساسية المقررة لدى المذاهب الإسلامية كافة ، هذه القاعدة الجليلة : « المشقة تجلب التيسير » . وهى أصل له فروع كثيرة وفيرة فى شتى أبواب الفقه . وقد ذكرها العلامة ابن نجيم الحنفى ، تفريعاً على هذه القاعدة ، أو تأكيداً لها ، لا يتسع المجال هنا لإثباتها ، فليرجع إليها من شاء التوسع والتفصيل [3] .

وهناك أشياء متعددة اعتبرتها الشريعة من أسباب التيسير والتخفيف ، منها : المرض ، والسفر ، والإكراه ، والخطأ والنسيان ، وعموم البلوى ، ولكل منها أحكام فصلتها كتب الشريعة .

مراعاة سنة التدرج :

ومن تيسير الإسلام على البشر : أنه راعى معهم سنة التدرج فيما يشرعه لهم ، إيجاباً أو تحريماً .

فتجده حين فرض الفرائض كالصلاة والصيام والزكاة ، فرضها على مراحل ودرجات حتى انتهت إلى الصور الأخيرة .

فالصلاة فرضت أول ما فرضت ركعتين ركعتين ، ثم أقرت فى السفر على هذا العدد ، وزيدت فى الحضر إلى أربع . أعنى الظهر والعصر والعشاء .

والصيام فرض أولاً على التخيير ، من شاء صام ومن شاء أفطر وفدى ،

---

(١) رواه أحمد . (٢) رواه البخارى .

(٣) راجع : الأشباه والنظائر ص ٣٧ وما بعدها .

أى : أطعم مسكيناً عن كل يوم يفطره ، كما روى ذلك البخارى عن سلمة ابن الأكوع ، تفسيراً لقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ، فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ، وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١) ، ثم أصبح الصيام فرضاً لازماً لكل صحيح مقيم لا عذر له : ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ (٢) .

والزكاة فرضت أولاً بمكة مطلقة غير محددة ولا مقيدة بنصاب ومقادير وحول ، بل تركت لضمائر المؤمنين ، وحاجات الجماعة والأفراد ، حتى فرضت الزكاة ذات النصب والمقادير فى المدينة .

والمحرمات كذلك ، لم يأت تحريمها دفعة واحدة ، فقد علم الله سبحانه مدى سلطانها على الأنفس ، وتغلغلها فى الحياة الفردية والاجتماعية .

فليس من الحكمة فطام الناس عنها بأمر مباشر يصدر لهم ، إنما الحكمة إعدادهم نفسياً وذهنياً لتقبلها ، وأخذهم بقانون التدرج فى تحريمها . حتى إذا جاء الأمر الحاسم كانوا سراعاً إلى تنفيذه قائلين : سمعنا وأطعنا .

ولعل أوضح مثل معروف فى ذلك هو تحريم الخمر على مراحل معروفة فى تاريخ التشريع الإسلامى ، حتى إذا نزلت الآيات الحاسمة فى النهى عنها من سورة المائدة ، وفى ختامها : ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ ؟ (٣) . قال المؤمنون فى قوة وتصميم : قد انتهينا يا رب .

ولعل رعاية الإسلام للتدرج ، هى التى جعلته يُبقى على نظام « الرق » ، الذى كان نظاماً سائداً فى العالم كله عند ظهور الإسلام ، وكان إلغاؤه يؤدى إلى زلزلة فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، فكانت الحكمة فى تضييق روافده بل ردمها كلها ما وُجِد إلى ذلك سبيل ، وتوسع مصارفه إلى أقصى حد ، فيكون ذلك بمثابة إلغاء الرق بطريق التدرج .

---

(١) البقرة : ١٨٤ (٢) البقرة : ١٨٥ (٣) المائدة : ٩١

وهذه السُّنَّة الإلهية فى رعاية التدرج ، ينبغى أن تتبع فى سياسة الناس ، وعندما يراد تطبيق نظام الإسلام فى الحياة ، واستئناف حياة إسلامية متكاملة .

فإذا أردنا أن نقيم (مجتمعاً إسلامياً حقيقياً) فلا نتوهم أن ذلك يتحقق ، بجرة قلم ، أو بقرار يصدر من ملك أو رئيس ، أو مجلس قيادة أو برلمان .

إنما يتحقق ذلك بطريق التدرج ، أعنى بالإعداد والتهيئة الفكرية والنفسية ، والأخلاقية والاجتماعية .

وهو نفس المنهاج الذى سلكه النبى ﷺ ، لتغيير الحياة الجاهلية إلى حياة إسلامية . فقد ظل ثلاثة عشر عاماً فى مكة ، كانت مهمته فيها تنحصر فى تربية الجيل المؤمن الذى يستطيع فيما بعد أن يحمل عبء الدعوة ، وتكاليف الجهاد لحمايتها ونشرها فى الآفاق .

ولهذا لم تكن المرحلة المكية مرحلة تشريع وتقنين ، بل مرحلة تربية وتكوين .

وكان القرآن نفسه فيها يعنى - قبل كل شىء - ، بتصحيح العقيدة وتثبيتها ، ومد أشعتها فى النفس والحياة ، أخلاقاً وأعمالاً صالحة ، قبل أن يعنى بالتشريعات والتفصيلات .



الباب الثالث

خصائص الإسلام

١ - الربانية .

٢ - الإنسانية .

٣ - الشمول .

٤ - الوسطية .

٥ - الجمع بين الثبات والمرونة .

الربَّانيَّة

إن الخصيصة الأولى من الخصائص العامة للإسلام هى : الربانية .

والربانية - كما يقول علماء العربية - مصدر صناعى منسوب إلى « الرب » ، زيدت فيه الألف والنون ، على غير قياس ، ومعناه : الانتساب إلى الرب ، أى : الله ، سبحانه وتعالى ، ويطلق على الإنسان أنه « ربانى » إذا كان وثيق الصلة بالله ، عالماً بدينه وكتابه ، معلماً له . وفى القرآن الكريم :

﴿ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ (١) .

والمراد من الربانية هنا أمران :

١ - ربانية الغاية والوجهة . ٢ - ربانية المصدر والمنهج .

١ - ربانية الغاية والوجهة :

فأما ربانية الغاية والوجهة ، فنعنى بها : أن الإسلام يجعل غايته الأخيرة وهدفه البعيد ، هو حسن الصلة بالله تبارك وتعالى ، والحصول على مرضاته ، فهذه هى غاية الإسلام ، وبالتالى هى غاية الإنسان ، ووجهة الإنسان ، ومنتهى أمله ، وسعيه ، وكدحه فى الحياة : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ ﴾ (٢) ، ﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ﴾ (٣) .

ولا جدال فى أن للإسلام غايات وأهدافاً أخرى إنسانية واجتماعية ، ولكن عند التأمل ، نجد هذه الأهداف فى الحقيقة خادمة للهدف الأكبر ، وهو مرضاة الله تعالى ، وحسن مثوبته . فهذا هو هدف الأهداف ، أو غاية الغايات .

---

(١) آل عمران : ٧٩ (٢) الانشقاق : ٦ (٣) النجم : ٤٢

فى الإسلام تشريع ومعاملات ، ولكن المقصود منها هو تنظيم حياة الناس حتى يستريحوا ، ويبرأوا من الصراع على المتاع الأدنى ، ويفرغوا لمعرفة الله تعالى ، وعبادته ، والسعى فى مراضيه .

وفى الإسلام جهاد وقتال للأعداء ، ولكن الغاية هى :

﴿ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ (١) .

وفى الإسلام حث على المشى فى مناكب الأرض ، والأكل من طيباتها ، ولكن الغاية هى القيام بشكر نعمة الله وأداء حقه : ﴿ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ (٢) .

وكل ما فى الإسلام من تشريع وتوجيه وإرشاد ، إنما يقصد إلى إعداد الإنسان ليكون عبداً خالصاً لله ، لا لأحد سواه . ولهذا كان روح الإسلام وجوهره هو التوحيد .



● من ثمرات هذه الربانية فى النفس والحياة :

ومما لا ريب فيه أن لهذه الربانية - ربانية الغاية والوجه - فوائد وأثاراً جمة فى النفس والحياة ، يجنى الإنسان ثمارها فى هذه الدنيا ، فضلاً عن ثمراتها فى الآخرة . وهى ثمار فى غاية الأهمية .

فمن آثار هذه الربانية وثمراتها :

أولاً - معرفة غاية الوجود الإنسانى :

أن يعرف الإنسان لوجوده غاية ، ويعرف لمسيرته وجهة . ويعرف لحياته رسالة ، وبهذا يحس أن لحياته قيمة ومعنى ، ولعيشه طعماً ومذاقاً ، وأنه ليس ذرة تافهة تائهة فى الفضاء ، ولا مخلوقاً سائباً يخبط خبط عشواء فى ليلة

---

(١) الأنفال : ٢٩ (٢) سبأ : ١٥

ظلماء ، كالذين جحدوا الله أو شكوا فيه ، فلم يعرفوا : لماذا وجدوا ؟ ولماذا يعيشون ؟ ولماذا يموتون ؟

كلا ، إنه لا يعيش فى عماية ، ولا يمشى إلى غير غاية ، بل يسير على هدى من ربه ، وبينة من أمره ، واستبانة لمصيره ، بعد أن عرف الله وأقر له بالوحدانية .

ثانياً – الاهتداء إلى الفطرة :

ومن ثمرات هذه الربانية وفوائدها ، أن يهتدى الإنسان إلى فطرته التى فطره الله عليها ، والتى تطلب الإيمان بالله تعالى ، ولا يعوضها شىء غيره ، يقول تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَتَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ﴾ (١) .

واهتداء الإنسان إلى فطرته ليس كسباً رخيصاً ، بل هو كسب كبير ، وغنى عظيم ، فيه يعيش المرء فى سلام ووئام مع نفسه ، ومع فطرة الوجود الكبير من حوله ، فالكون كله ربانى الوجهة ، يسبح بحمد الله : ﴿ وَإِن مِّنْ شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ (٢) .

والحقيقة أن فى فطرة الإنسان فراغاً لا يملؤه علم ، ولا ثقافة ولا فلسفة ، إنما يملؤه الإيمان بالله جل وعلا .

وستظل الفطرة الإنسانية تحس بالتوتر ، والجوع والظمأ ، حتى تجد الله ، وتؤمن به ، وتتوجه إليه .

ثالثاً – سلامة النفس من التمزق والصراع :

ومن ثمرات هذه الربانية – ربانية الغاية والوجهة – سلامة النفس البشرية من التمزق والصراع الداخلى ، والتوزع والانقسام بين مختلف الغايات ، وشتى الاتجاهات .

---

(١) الروم : ٣٠ (٢) الإسراء : ٤٤

لقد اختصر الإسلام غايات الإنسان فى غاية واحدة هى إرضاء الله تعالى ، وركز همومه فى هم واحد هو العمل على ما يرضيه سبحانه .

ولا يريح النفس الإنسانية شىء كما يريحها وحدة غايتها ، ووجهتها فى الحياة ، فتعرف من أين تبدأ ، وإلى أين تسير ، ومع من تسير .

ولا يُشْقى الإنسان شىء مثل تناقض غاياته ، وتباين اتجاهاته ، وتضارب نزعاته ، فهو حيناً يُشرّق ، وحيناً يغرّب ، وتارة يتجه إلى اليمين ، وطوراً يتجه إلى اليسار ، ومرة يُرضى زيداً فيغضب عمرو ، وأخرى يُرضى عمراً فيغضب زيد ، وهو فى كلا الحالين حائر بين رضا هذا وغضب ذاك .

وَمَنْ فى الناس يُرضى كلَّ نفس وبين هوى النفوس مدى بعيد ؟!

إن عقيدة التوحيد قد منحت المسلم يقيناً بأن لا رب إلا الله يُخاف ويُرجى ، ولا إله إلا الله ، يُجْتنب سخطه ، ويُلتَمس رِضاه . وبهذا أخرج المسلم كل الأرباب الزائفة من حياته ، وحطم كل الأصنام المادية والمعنوية من قلبه ، ورضى بالله وحده رباً ، عليه يتوكل ، وإليه يُنيب ، وفى فضله يطمع ، ومن قوته يستمد ، وله يتودد ، وإليه يحتكم ، وبه يعتصم : ﴿ وَمَن يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١) .

رابعاً – التحرر من العبودية للأنانية والشهوات :

ومن ثمرات هذه الربانية : أنها – حين تستقر فى أعماق النفس – تُحرر الإنسان من العبودية لأنانيته ، وشهوات نفسه ، ولذات حسه ، ومن الخضوع والاستسلام لمطالبه المادية ، ورغباته الشخصية .

وذلك أن الإنسان « الربانى » يَقِفُه إيمانه بالله وباليوم الآخر موقف الموازنة بين رغبات نفسه ، ومتطلبات دينه ، بين ما تدفعه إليه شهوته ، وما يأمره به ربه ، بين ما يمليه عليه الهوى ، وما يمليه عليه الواجب ، بين متعة اليوم ،

---

(١) آل عمران : ١٠١

وحساب الغد ، أو بين لذة عاجلة فى دنياه ، وحساب عسير ينتظره فى أخراه .

وهذه الموازنة والمساءلة جديرة أن تخلع عنه نير العبودية للهوى والشهوات ، وأن ترتفع به إلى أفق أعلى من الأنانية والبهيمية ، أفق الإنسانية المتحررة التى تتصرف بوعيها وإرادتها ، لا بوحى بطنها وفرجها وغريزتها الحيوانية .



٢ - ربانية المصدر والمنهج :

ذكرنا ما يتعلق بالمعنى الأول للربانية ، وهو ربانية الغاية والوجهة ، وبقى المعنى الآخر ، وهو ربانية المصدر والمنهج . ونعنى به أن المنهج الذى رسمه الإسلام للوصول إلى غاياته وأهدافه ، منهج ربانى خالص ، لأن مصدره وحى الله تعالى إلى خاتم رُسُله محمد ﷺ .

لم يأت هذا المنهج نتيجة لإرادة فرد ، أو إرادة أسرة ، أو إرادة طبقة ، أو إرادة حزب ، أو إرادة شعب ، وإنما جاء نتيجة لإرادة الله ، الذى أراد به الهدى والنور ، والبيان والبشرى ، والشفاء والرحمة لعباده . كما قال تعالى يخاطبهم : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً ﴾ (١) ، ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .



● موضع الرسول فى هذا المنهج الإلهى :

الله تعالى هو صاحب هذا المنهج ، ولهذا يُضاف إليه فيقال : منهج الله ، أو « صراط الله » على حد تعبير القرآن العزيز ، وإضافته إلى الله تعنى أن الله - جل شأنه - هو واضعه ومحدده ، كما أنه غايته ومنتهاه .

---

(١) النساء : ١٧٤ (٢) يونس : ٥٧

أما الرسول ﷺ فهو الداعى إلى هذا المنهج أو هذا الصراط ، المبين للناس ما اشتبه عليهم من أمره . يقول تعالى مخاطباً رسوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّن أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِى بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ❊ صِرَاطِ اللهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ، أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴾ (١) .



● ميزة الإسلام بين المناهج القائمة فى العالم :

إن الإسلام هو المنهج أو المذهب أو النظام الوحيد فى العالم ، الذى مصدره كلمات الله وحدها ، غير محرفة ولا مبدلة ولا مخلوطة بأوهام البَشر ، وأغلاط البَشر ، وانحرافات البَشر .

والمناهج أو الأنظمة التى نراها فى العالَم إلى اليوم ثلاثة ، فيما عدا الإسلام طبعاً :

١ - منهج ، أو مذهب ، أو نظام مدنى بشرى محض ، مصدره التفكير العقلى ، أو الفلسفى لبشر فرد ، أو مجموعة من الأفراد ، كالشيوعية ، والرأسمالية والوجودية ، وغيرها .

٢ - منهج أو نظام دينى بشرى كذلك . مثل الديانة البوذية القائمة فى الصين ، واليابان ، والهند ، والتى لا يعرف لها أصل إلهى ، أو كتاب سماوى ، فمصدرها إذن فكر بشرى .

٣ - منهج أو مذهب دينى محرف ، فهو - وإن كان إلهياً فى أصله - عملت فيه يد التحريف والتبديل فأدخلت فيه ما ليس منه ، وحذفت منه

---

(١) الشورى : ٥٢ ، ٥٣

ما هو فيه ، واختلط فيه كلام الله بكلام البشر ، فلم يبق ثمت ثقة بربانية مصدره ، وذلك كاليهودية والنصرانية ، بعد ثبوت التحريف فى التوراة والإنجيل نفسيهما ، فضلاً عما أضيف إليهما من شروح وتأويلات ومعلومات بشرية ، بدلت المراد من كلام الله .

أما الإسلام فهو المنهج الفذ الذى سلم مصدره من تدخل البَشر ، وتحريف البَشر ، ذلك أن الله تعالى تولى حفظ كتابه ، ودستوره الأساسى بنفسه ، وهو القرآن المجيد ، وأعلن ذلك لنبيه ولأُمته فقال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١) .



● الإسلام منهج ربانى خالص :

إن الإسلام منهج ربانى ، مئة فى المئة (١٠٠٪) .

عقائده وعباداته ، وآدابه وأخلاقه ، وشرائعه ونظمه ، كلها ربانية إلهية . أعنى فى أسسها الكلية ، ومبادئها العامة ، لا فى التفريعات والتفصيلات والكيفيات .



● عقيدة ربانية :

عقائد الإسلام عقائد ربانية ، مستفادة من كلام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، من القرآن الكريم الذى أرسى دعائمها ، ووضح معالمها ، ومن صحيح السُّنَّة المبينة للقرآن .

ليست هذه العقائد من وضع مجمع من المجامع ، ولا من إضافة هيئة من الهيئات ، ولا من إملاء « بابا » من البابوات .

---

(١) الحجر : ٩

ليس لأحد من تلاميذ - محمد ﷺ - ، ولا من أئمة الإسلام وفقهائه الكبار ، أن يغير ويبدل فى عقيدة الإسلام بالزيادة أو النقص أو التحوير ، كما فعل « سانت بولس » فى العقيدة النصرانية ، حتى إن بعض الكتاب الغربيين المحدثين ليسمون المسيحية الحاضرة « مسيحية بولس » ، وليست مسيحية عيسى ابن مريم .



● **عبادات ربانية :**

والعبادات الإسلامية - أعنى الشعائر التى يُتعبَّد بها لله تعالى - عبادات ربانية .

فالوحى الإلهى هو الذى رسم صورها ، وحدد أشكالها ، وأركانها وشروطها ، وعين زمانها فيما يشترط فيه الزمان ، ومكانها فيما يشترط فيه المكان .

ولم يقبل من أحد من الناس - مهما كان مجتهداً فى الدين ، ومهما علا كعبة فى العلم والتقوى - أن يبتكر صوراً ، وهيئات من عنده للتقرب إلى الله تعالى ، فإن هذا افتئات على صاحب الحق الأوحد فى ذلك ، وهو الله تعالى صاحب الخلق والأمر .

ومن فعل شيئاً من ذلك فقد شرع فى الدين ما لم يأذن به الله ، وعد عمله بدعة وضلالة ، ورد عليه عمله ، كما يرد الصيرفى النقاد العملة الزائفة .

فقد جاء الإسلام فى مجال العبادة بأصلين كبيرين ، لا يتساهل فى واحد منها قيد شعرة :

الأول : ألا يعبد إلا الله . فلا عبادة لأحد سواه ، ولا لشىء سواه ، كائناً ما كان ، فى الأرض أو فى السماء ، عاقلاً أو غير عاقل ، وهذا ما تقتضيه ربانية الغاية والوجهة .

والثانى : ألا يعبد الله إلا بما شرعه . وما شرعه إنما يعرف بواسطة رسله المبلغين عنه ، وخاتمهم محمد ﷺ ، الذى نسخ شرعه كل شرع قبله ، والذى كتب الله له الخلود ، وتكفل بحفظه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وما عدا ذلك فهو أهواء وبدع مرفوضة ، وإن دفع إليها حُسنُ النية ، وشدة الرغبة فى زيادة التقرب إلى الله جل شأنه . ولكن النية الصالحة وحدها لا تعطى العمل صفة القبول ما لم تكن صورته مشروعة بالنص الثابت .

فالعمل المقبول له ركنان : أن يكون خالصاً لله ، وأن يكون على سُنَّة رسول الله .



● أخلاق ربانية :

والأخلاق الإسلامية أخلاق ربانية : بمعنى أن الوحى الإلهى هو الذى وضع أصولها ، وحدد أساسياتها ، التى لا بد منها لبيان معالم الشخصية الإسلامية ، حتى تبدو متكاملة متماسكة متميزة فى مخبرها ومظهرها ، عالمة بوجهتها وطريقها ، إذا التبست على غيرها المسالك ، واختلطت الدروب .

ولا غرو أن وجدنا القرآن الكريم ذاته يعنى برسم المعالم الرئيسة لأدب المسلم ، وخلق المسلم ، من الإحسان بالوالدين ، وخاصة إذا بلغا الكبر أو أحدهما ، والإحسان بذوى القربى ، ورعاية اليتيم ، وإكرام الجار ذى القربى ، والجار الجنب ، والصاحب بالجنب ، وابن السبيل ، والخدم ، والعناية بالفقراء والمساكين ، وتحرير الرقاب ، والصدق فى القول ، والإخلاص فى العمل ، وغض الأبصار وحفظ الفروج ، والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر ، والتواصى بالمرحمة ، والدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وأداء الأمانات إلى أهلها ، والحكم بين الناس بالعدل ، والوفاء بالعهود ، وترك المنكرات ، واجتناب الموبقات من الشرك ،

والسحر ، والقتل ، والزنى ، والسكر ، والربا ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات المؤمنات ، والتولى يوم الزحف ، وغيرها من كبائر الإثم وفواحشه إلى غير ذلك من الأخلاق الإيجابية والسلبية ، الفردية والاجتماعية .



● **تشريعات ربانية :**

والتشريعات الإسلامية لضبط الحياة الفردية والأسرية ، والاجتماعية والدولية ، تشريعات ربانية : أعنى فى أسسها ، ومبادئها ، وأحكامها الأساسية ، التى أراد الله أن ينظم بها سير القافلة البشرية ، ويقيم العلاقات بين أفرادها وجماعاتها على أمتن القواعد ، وأعدل المبادئ ، بعيداً عن قصور البشر ، وتطرفات البشر ، وأهواء البشر ، وتناقضات البشر .

وكانت هذه هى المزية الأولى للتشريع الإسلامى على ما سواه من التشريعات قديمها وحديثها ، شرقيها وغربيها ، ليبراليها ، واشتراكيها . فهو التشريع الفذ فى العالم الذى أساسه وحى الله وكلماته المعصومة من الخطأ ، المنزهة عن الظلم : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً ، لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (١) .

وبهذا تقرر فى الأصول الإسلامية أن المشرع الوحيد هو الله .

فهو الذى يأمر وينهى ، ويحلل ويحرم ، ويكلف ويلزم ، بمقتضى ربوبيته وألوهيته وملكه لخلقه جميعاً ، فهو رب الناس ، ملك الناس ، إله الناس . له الخلق والأمر ، وله المِلك والمُلك (٢) ، وله الحمد فى الأولى والآخرة ، وله الحكم ، وإليه يرجعون .

---

(١) الأنعام : ١١٥

(٢) المِلك والمُلك : الأولى بكسر الميم والثانية بضمها .

وليس لأحد غيره حق التشريع المطلق ، إلا ما أذن الله فيه مما ليس فيه نص ملزم ، فهو فى الحقيقة مجتهد أو مستنبط أو مقنن ، وليس مشرعاً أو حاكماً . حتى الرسول ﷺ نفسه ليس مشرعاً ، وإنما وجبت طاعته ، لأنه مبلغ عن الله . فأمره من أمر الله : ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ﴾ (١) .

وقد دمغ القرآن بالشرك الذين أعطوا سُلْطة التشريع المطلق لبعض البَشر من رجال الأديان الذين بدلوا كلمات الله ، وغيروا شرع الله ، فأحلوا ما حرم الله ، وحرموا ما أحل الله ، افتراء على الله .



(١) النساء : ٨٠

الإنسَانيَّة

ومن خصائص الإسلام العامة بعد الربانية : الإنسانية .

فالإسلام يمتاز بنزعته الإنسانية الواضحة الثابتة الأصيلة فى معتقداته وعباداته ، وتشريعاته وتوجيهاته ، إنه دين الإنسان .

● بين الربانية والإنسانية :

وربما خيل لكثير من الناس - لأول وهلة - أن هناك تناقضاً بين إثبات خصيصة « الربانية » وخصيصة « الإنسانية » فى وقت واحد .

فالظاهر والمفهوم والمفترض فى أذهانهم أن ثبوت إحدى الخصيصتين ينفى الأخرى ، ويطردها ، شأن كل متضادين لا يجتمعان ، فإذا وجد الله لم يبق مكان للإنسان !

وإذا كنا قد قلنا فى خصيصة « الربانية » : إنها تعنى - من ناحية - ربانية الغاية والوجهة . على معنى أن حسن الصلة بالله تعالى وابتغاء مرضاته هو غاية الإنسان وهدف الإسلام .

كما تعنى - من ناحية أخرى - ربانية المصدر والمنهج ، على معنى أن الإسلام منهج إلهى ، صاحبه وشارعه هو الله وحده ، وإنما الرسول مبلغ عنه - فمعنى هذا أن لا موضع للإنسان .

وأين يكون مكان الإنسان ما دام الله هو الغاية ، ومرضاته هى الهدف والوجهة ، وما دام الله أيضاً هو واضع المنهج إلى تلك الغاية ؟



● ليس الإنسان نداً لله :

على أن الخطأ الأول والأساسى فى موقف هؤلاء النظر إلى الله والإنسان كأنهما ندان متقابلان ، وهؤلاء ينسون ما هو الله ؟ ، وما هو الإنسان ؟

والحقيقة التى لا ريب فيها أن الله هو صاحب هذا الكون ، وربه ، ومدبره : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (١) .

والإنسان هو مخلوق حادث من مخلوقات الله جل شأنه ، ولا يتصور أن يكون المخلوق نداً للخالق ، ولا الحادث مضاهياً للأزلى ، ولا الفانى كفواً للأبدى الباقى : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ (٢) .

إن الإنسان مخلوق لله ، ولكنه مخلوق ذو مكانة خاصة ، وله شأن ودور فى هذا الوجود ، والذى منحه هذه المكانة ، وجعل له هذا الشأن والدور هو خالقه ذاته ، هو الله تبارك وتعالى .

لننظر للإنسان إذن على هذا الأساس . وبهذا المنظار .

إنه مخلوق ، ولكنه أكرم المخلوقات على الله تعالى ، وهو الوحيد من بينها .



● لا تنافى بين الربانية والإنسانية :

إذا عرفنا ما ذكرناه من حقائق اتضح لنا :

أن الإسلام مع ربانيته فى غايته ووجهته هو إنسانى أيضاً فى الغاية والوجهة ، ومن هنا نقول : إن للإنسان مكاناً ، أى مكان فى غايات الإسلام العليا ، وأهدافه الكبرى ، مع تقرير غايته الربانية ، وإبرازها وتثبيتها ، إذ لا تنافى بين الغاية الربانية ، والغاية الإنسانية ، بل هما متكاملتان . .

---

(١) الأنعام : ١٦٤ (٢) سورة الإخلاص .

أجل ، لا تنافى - فى نظر الإسلام - بين الربانية والإنسانية ، فتقدير إنسانية الإنسان هو من الربانية التى قام عليها الإسلام .

فالله هو الذى كرَّم هذا الإنسان ، ونفخ فيه من روحه ، وجعله فى الأرض خليفة ، وسخر له ما فى الموات ، وما فى الأرض جميعاً منه ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة .

وإذا كان مصدر الإسلام « ربانياً » ، فإن « الإنسان » هو الذى يفهم هذا المصدر ، ويستنبط منه ، ويجتهد على ضوئه ، ويحوله إلى واقع تطبيقى ملموس .

وإذا كانت الربانية هى غاية المجتمع المسلم كما هى غاية الفرد المسلم ، فإن مضمون هذه الغاية هو سعادة الإنسان ، وفوزه بالنعيم المقيم فى جوار رب العالمين .

وإذا كانت الربانية هى رسالة المسلم ، فإن أهداف هذه الرسالة هى تحقيق الخير للإنسان والسمو به ، والحيلولة بينه وبين الانحراف والسقوط .

والمعانى الربانية التى توجه المسلم ، من الإيمان والتوحيد والإنابة والرجاء والخوف .. إلخ ، هى فى حقيقتها معان إنسانية ، لأنها جزء من كيان الإنسان كما فطره الله ، وهى سر من أسرار قوله تعالى : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ (1) .

وفكرة الإسلام : أن الإنسان لا يستطيع أن يكون ربانياً حقاً ، دون أن يكون إنسانياً ، كما لا يستطيع أن يكون إنسانياً حقاً ، دون أن يكون ربانياً .

إن الربانية - باعتبارها غاية ووجهة - تقتضى إخلاص النية والعمل والوجهة لله وحده ، وجعل رضوانه ومثوبته نهاية المقصد ، وغاية السعى وراء كل حركة ، وكل قول أو عمل .

---

(1) الحجر : ٢٩

ولكن المقصود بهذا كله هو تحرير الإنسان ، وإسعاد الإنسان ، وتكريم الإنسان ، وحماية الإنسان ، والسمو بالإنسان .

فهذه كلها أهداف وغايات يحرص الإسلام عليها ، ويسعى إليها ، ويعمل بكل وسيلة على بلوغها والاجتهاد فى تحقيقها .



● القرآن .... كتاب الإنسان :

وإذا نظرنا إلى المصدر الأول للإسلام وهو القرآن كتاب الله ، وتدبرنا آياته ، وتأملنا موضوعاته واهتماماته ، نستطيع أن نصفه بأنه ، كتاب الإنسان . فالقرآن كله إما حديث إلى الإنسان ، أو حديث عن الإنسان .

إن كلمة « الإنسان » تكررت فى القرآن (٦٣) ثلاثاً وستين مرة ، فضلاً عن ذكره بألفاظ أخرى مثل « بنى آدم » التى ذكرت ست مرات ، وكلمة « الناس » التى تكررت (٢٤٠) مئتين وأربعين مرة فى مكى القرآن ومدنية .

ولعل من أبرز الدلائل على ذلك أن أول ما نزل من آيات القرآن على رسول الإسلام - محمد ﷺ - خمس آيات من سورة العلق ذكرت كلمة « الإنسان » فى اثنتين منها ، ومضمونها كلها العناية بأمر الإنسان .

هذه الآيات هى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (١) .



● محمد .... الرسول الإنسان :

وإذا نظرنا إلى الشخص الذى جسد الله فيه الإسلام ، وجعله مثالاً حياً

(١) العلق : ١ - ٥

لتعاليمه ، وكان خلقه القرآن ، نستطيع أن نصفه بأنه « الرسول الإنسان » ، وسيرته ليست سيرة إله ، ولا بعض إله ، ولا ملاك متجرد من اللحم والدم ، بل هى سيرة النبى الإنسان .

والقرآن الكريم حريص كل الحرص فى شتى المناسبات على تأكيد إنسانية الرسول محمد ﷺ ، بمثل قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ (١) .



● الجانب الإنسانى فى رسالة الإسلام :

إن كل دارس للإسلام فى كتابه وسُنَّة رسوله ، يتبين له بجلاء : أنه وجه عناية بالغة إلى « الجانب الإنسانى » وأعطاه مساحة رحبة من رقعة تعاليمه ، وتوجيهاته ، وتشريعاته .

وإذا نظرت فى الفقه الإسلامى وجدت « العبادات » ، لا تأخذ إلا نحو الربع أو الثلث من مجموعه ، والباقى يتعلق بأحوال الإنسان من أحوال شخصية ، ومعاملات ، وجنايات ، وعقوبات ، وغيرها

على أنك إذا تأملت العبادات الكبرى نفسها ، وجدت إحداها « إنسانية » فى جوهرها ، وهى عبادة « الزكاة » فهى تؤخذ من الإنسان الغنى ، لترد على الإنسان الفقير ، هى للأول تزكية وتطهير ، وللثانى إغناء وتحرير .

والعبادات الأخرى لا تخلو من جانب إنسانى تلمحه فى ثناياها .

فالصلاة عون للإنسان فى معركة الحياة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾ (٢) .

والصوم تربية لإرادة الإنسان على الصبر فى مواجهة المصاعب ، وتربية

---

(١) الكهف : ١١٠ (٢) البقرة : ١٥٣

لمشاعره على الإحساس بآلام غيره ، فيسعى إلى مواساته . ولهذا سمى النبى ﷺ شهر رمضان « شهر الصبر » و« شهر المواساة » (١) .

والحج مؤتمر ربانى إنسانى ، دعا الله فيه عباده المؤمنين : ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِى أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ ﴾ (٢) ، فشهود المنافع هنا يمثل الجانب الإنسانى فى أهداف الحج .

وفوق ذلك نجد النبى ﷺ يرفع إلى درجة العبادة كل عمل يؤديه المسلم ، يترتب عليه نفع مادى لإنسان ، أو سرور نفسى لإنسان .



● من ثمرات الإنسانية فى الإسلام :

الإخاء والمساواة والحرية .

هذه النزعة الإنسانية الأصيلة فى الإسلام هى أساس هام لمبدأ الإخاء البشرى الذى نادى به الإسلام . وهى أساس هام كذلك لمبدأ المساواة الإنسانية العام الذى دعا إليه الإسلام .

وهى أساس هام كذلك لمبدأ الحرية الذى قرره الإسلام ، أكد الإسلام الدعوة إلى هذه المبادىء الإنسانية الثلاثة ، ووضع الصور العملية لتطبيقها ، وربطها بعقائده وشعائره وآدابه ربطاً محكماً ، بحيث لا تظل مجرد أمنية شاعرية تهفو إليها بعض النفوس ، أو فكرة مثالية تتخيلها بعض الرؤوس ، أو حبر على ورق سطرته بعض الأقلام .

وأكتفى هنا بالحديث عن مبدأ المساواة باعتباره ملازماً للإخاء ، وثمرة له .



(١) كما فى حديث سلمان عند ابن خزيمة .   (٢) الحج : ٢٨

● **مبدأ المساواة الإنسانية :**

أما مبدأ المساواة الإنسانية الذى قرره الإسلام ونادى به ، فأساسه : أن الإسلام يحترم الإنسان ويكرمه من حيث هو إنسان ؛ لا من أى حيثية أخرى ، الإنسان من أى سلالة كان ، ومن أى لون كان ، من غير تفرقة بين عنصر وعنصر ، وبين قوم وقوم ، وبين لون ولون ، مسقطاً كل أنواع التفرقة القبلية والعنصرية والقومية واللونية . يقول القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١) .

قد يختلف الناس فى أجناسهم وعناصرهم فيكون منهم الآرى ، والسامى ، والحامى ، والعربى ، والعجمى .

وقد يختلفون فى أنسابهم وأحسابهم فيكون منهم من ينتهى إلى أسرة عريقة فى المجد ، ومن ينتهى إلى أسرة صغيرة مغمورة فى الناس .

وقد يتفاوت الناس فى ثرواتهم فيكون منهم الغنى ، ومنهم الفقير ، ومنهم المتوسط الحال .

وقد يتفاوتون فى أعمالهم ومناصبهم ، فيكون منهم الحاكم والمحكوم ، ويكون منهم المهندس الكبير ، والعامل الصغير ، ويكون منهم أستاذ الجامعة والحارس ببابها .

ولكن هذا الاختلاف أو التفاوت لا يجعل لواحد منهم قيمة إنسانية أكبر من قيمة الآخر ، بسبب جنسه ، أو لونه ، أو حسبه ، أو ثروته ، أو عمله ، أو طبقته ، أو أى اعتبار آخر .

إن القيمة الإنسانية واحدة للجميع . فالعربى إنسان ، والعجمى إنسان ، والأبيض إنسان ، والأسود إنسان ، والحاكم إنسان ، والمحكوم إنسان ،

---

(١) الحجرات : ١٣

والغنى إنسان ، والفقير إنسان ، ورب العمل إنسان ، والعامل إنسان ، والرجل إنسان ، والمرأة إنسان ، والحر إنسان ، والعبد إنسان ، وما دام الكل إنسانا فهم إذن سواسية كأسنان المشط الواحد .

ومن هنا اعتبر الإسلام الاعتداء على نفس أى إنسان اعتداء على الإنسانية كلها ، كما جعل إنقاذ أى نفس إنقاذاً للجميع ، هذا ما قرره القرآن بوضوح : ﴿ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً ﴾ (١) .



● شعائر الإسلام تثبت معنى المواساة :

ولم يكتف الإسلام بتقرير مبدأ المساواة نظرياً ، وتثبيته فكرياً ، بل أكده عمليا بجملة أحكام وتعاليم نقلته من فكرة مجردة إلى واقع ملموس . من ذلك العبادات الشعائرية التى فرضها الإسلام ، وجعلها الأركان العملية التى يقوم عليها بناؤه العظيم من الصلاة والزكاة والصيام والحج .



● المساواة أمام قانون الإسلام :

ومن المساواة العملية التى قررها الإسلام قولاً ، وطبقها فعلاً : المساواة أمام قانون الشرع وأحكام الإسلام .

فالحلال حلال للجميع ، والحرام حرام على الجميع (٢) ، والفرائض ملزمة للجميع ، والعقوبات مفروضة على الجميع .

---

(١) المائدة : ٣٢

(٢) انظر : كتابنا « الحلال والحرام » ص ٣٥ - ٣٨ تحت عنوان : « الحرام حرام على الجميع » .

حاولت إحدى القبائل عند الدخول فى الإسلام أن تُعفى من الصلاة حيناً من الزمن ، فأبى عليها ذلك الرسول ﷺ وقال : « لا خير فى دين لا صلاة فيه » .

وحاول الصحابة أن يُشَفِّعوا أسامة بن زيد - حب رسول الله وابن حبه - فى امرأة من قريش ، ومن بنى مخزوم ، سرقت فاستحقت أن يقام عليها حد السرقة : قطع اليد ، فكلمه فيها أسامة ، فغضب صلى الله عليه وسلم غضبته التاريخية المعروفة ، وقال كلمته التى خلدها التاريخ : « إنما هلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله ، لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها » .

وفى عهود الخلفاء الراشدين رأينا كثيراً من الصور والأمثلة لتطبيق مبدأ المساواة بين جميع الناس ، دون تفريق أو تمييز . وحسبنا أن نشير هنا إلى قصة جبلة بن الأيهم - الأمير الغسانى - مع الأعرابى الذى شكا إلى عمر أمير المؤمنين كيف لطمه جبلة بغير حق ، فلم يسع عمر إلا أن يحضر جبلة ، ويطلب إليه أن يمكن الأعرابى ليقتص منه ، لطمة بلطمة ، إلا أن يعفو عنه ويصفح ، وعز على الأمير الغسانى أن يفعل ذلك ، وقال لعمر بصراحة : كيف يقتص منى وأنا ملك وهو سوقة ؟

فقال عمر : إن الإسلام قد سوى بينكما .

ولم يع الأمير المسكين هذا المعنى الكبير ، وخرج من المدينة هارباً مرتداً عن الإسلام الذى يفرض المساواة بين الملك والسوقة أمام شرع الله ، وغلبت عليه شقوته فكان من الخاسرين .

ولم يبال عمر ولا الصحابة معه بهذه النتيجة ، لأن ارتداد رجل عن الإسلام أهون بكثير من التهاون فى تطبيق مبدأ عظيم من مبادئ الإسلام ، كالمساواة . وخسارة فرد لا تقاس بخسارة مبدأ .



الشمُول

« الشمول » من الخصائص التى تميز بها الإسلام عن كل ما عرفه الناس من الأديان والفلسفات والمذاهب ، بكل ما تتضمنه كلمة « الشمول » من معان وأبعاد .

إنه شمول يستوعب الزمن كله ، ويستوعب الحياة كلها ، ويستوعب كيان الإنسان كله .

لقد عبر الشهيد حسن البنا عن أبعاد هذا الشمول فى رسالة الإسلام فقال وأجاد :

« إنها الرسالة التى امتدت طولاً حتى شملت آباد الزمن » .

« وامتدت عرضاً حتى انتظمت آفاق الأمم » .

« وامتدت عمقاً حتى استوعبت شؤون الدنيا والآخرة » .

● رسالة الزمن كله :

إنها رسالة لكل الأزمنة والأجيال ، ليست رسالة موقوتة بعصر معين أو زمن مخصوص ، ينتهى أثرها بانتهائه ، كما كان الشأن فى رسالات الأنبياء السابقين على محمد – ﷺ – فقد كان كل نبى يبعث لمرحلة زمنية محدودة ، حتى إذا ما انقضت بعث الله نبياً آخر .

أما محمد ﷺ فهو خاتم النبيين ، ورسالته هى رسالة الخلود التى قدر الله بقاءها إلى أن تقوم الساعة ، ويطوى بساط هذا العالم فهى تتضمن هداية الله الأخيرة للبشرية ، فليس بعد الإسلام شريعة ، ولا بعد القرآن كتاب ، ولا بعد محمد نبى ، ولم يسبق لنبى قبل محمد ﷺ أن أعلن أن رسالته هى

الخاتمة وأن لا نبى بعده ، بل بشرت التوراة بمن يأتى بعد موسى ، وبشر الإنجيل بمن يأتى بعد المسيح عيسى وهو « الفارقليط » الذى سيبين كل الحق ، ولا يتكلم من عند نفسه .

إنها رسالة المستقبل المديد ولا شك ، وهى أيضاً رسالة الماضى البعيد .

إنها - فى جوهرها ، وأصولها الاعتقادية والأخلاقية - رسالة كل نبى أرسل ، وكل كتاب أنزل . فالأنبياء جميعاً جاؤوا بالإسلام ، ونادوا بالتوحيد ، واجتناب الطاغوت . وهذا ما يقرره القرآن فى وضوح وتأكيد .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (١) .

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (٢) .



● **رسالة العالم كله :**

وإذ كانت هذه الرسالة غير محدودة بعصر ولا جيل ، فهى كذلك غير محدودة بمكان ولا بأمة ، ولا بشعب ولا بطبقة .

إنها الرسالة الشاملة ، التى تخاطب كل الأمم ، وكل الأجناس ، وكل الشعوب ، وكل الطبقات .

إنها ليست رسالة لشعب خاص ، يزعم أنه وحده شعب الله المختار ! وأن الناس جميعاً يجب أن يخضعوا له .

وليست رسالة لإقليم معين ، يجب أن تدين له كل أقاليم الأرض ، وتجبى إليه ثمراتها وأرزاقها .

وليست رسالة لطبقة معينة ، مهمتها أن تسخر الطبقات الأخرى لخدمة

---

(١) الأنبياء : ٢٥ (٢) النحل : ٣٦

مصالحها أو اتباع أهوائها ، أو السير فى ركابها ، سواء أكانت هذه الطبقة المسيطرة من الأقوياء أم الضعفاء ، من السادة أم من العبيد ، من الأغنياء أم من الفقراء والصعاليك . إنها رسالتهم جميعاً ، وليست لمصلحة طائفة منهم دون سواها ، وليس فهمها ، ولا تفسيرها ، ولا الدعوة إليها حكراً على طبقة خاصة ، كما قد يتوهم كثير من الناس ، إنها هداية رب الناس لكل الناس ، ورحمة الله لكل عباد الله ، وهذا ما وضحه القرآن منذ العهد المكى . تقرأ فى ذلك : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١) ، ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ (٢) .



● **رسالة الإنسان كله :**

وهى كذلك رسالة الإنسان من حيث هو إنسان متكامل .

إنها ليست رسالة لعقل الإنسان دون روحه ، ولا لروحه دون جسمه ولا لأفكاره دون عواطفه ، ولا عكس ذلك .

إنها رسالة الإنسان كله : روحه وعقله ، وجسمه ، وضميره ، وإرادته ووجدانه ، كما نبهنا على ذلك فى « خصيصة الإنسانية » .



● **رسالة الإنسان فى أطوار حياته كلها :**

إن الإسلام هو رسالة الإنسان كله ، وهو رسالته كذلك فى كل مراحل حياته ووجوده ، فهذا مظهر آخر من مظاهر الشمول الإسلامى .

إنها هداية الله ، تصحب الإنسان أنى اتجه وأنى سار فى أطوار حياته ، إنها

---

(١) الأنبياء : ١٠٧ (٢) الأعراف : ١٥٨

تصحبه طفلاً ، ويافعاً وشاباً وكهلاً وشيخاً . وترسم له فى كل هذه المراحل المتعاقبة المنهج الأمثل الذى يحبه الله ويرضاه .

فلا عجب أن تجد فى الإسلام أحكاماً وتعاليم تتعلق بالمولود منذ ساعة ميلاده مثل إماطة الأذى عنه ، والتأذين فى أذنه ، واختيار اسم حسن له ، وذبح عقيقة عنه شكراً لله ، وغير ذلك مما ضمنه إمام كابن القيم كتاباً مستقلاً له سماه « تحفة المودود فى أحكام المولود » .

وبعد ذلك نجد أحكاماً تتعلق بالإنسان صبياً وشاباً وكهلاً وشيخاً ، فلا توجد مرحلة من حياته إلا وللإسلام فيها توجيه وتشريع .

وأكثر من ذلك أنها تعنى بالإنسان قبل أن يولد ، وبالإنسان بعد أن يموت .



● رسالة الإنسان فى كل مجالات حياته :

ومن معانى الشمول فى الإسلام أيضاً : أنه رسالة للإنسان فى كل مجالات الحياة ، وفى كل ميادين النشاط البشرى ، فلا يدع جانباً من جوانب الحياة الإنسانية إلا كان له فيه موقف : وقد يتمثل فى الإقرار والتأييد ، أو فى التصحيح والتعديل ، أو فى الإتمام والتكميل ، أو فى التغيير والتبديل ، وقد يتدخل بالإرشاد والتوجيه ، أو بالتشريع والتقنين ، وقد يسلك سبيل الموعظة الحسنة ، وقد يتخذ أسلوب العقوبة الرادعة ، كل فى موضعه .

المهم هنا أنه لا يدع الإنسان وحده - بدون هداية الله - ، فى أى طريق يسلكه ، وفى أى نشاط يقوم به : مادياً كان أو روحياً ، فردياً أو اجتماعياً ، فكرياً أو عملياً ، دينياً أو سياسياً ، اقتصادياً أو أخلاقياً .

إن الإسلام كما قال المرحوم العقاد - هو العقيدة المثلى للإنسان منفرداً أو مجتمعاً ، وعاملاً لروحه أو عاملاً لجسده ، وناظراً إلى دنياه ، أو ناظراً إلى آخرته ومسالماً أو محارباً ، ومعطياً حق نفسه ، أو معطياً حق حاكمه وحكومته

فلا يكون مسلماً ، وهو يطلب الآخرة دون الدنيا ، ولا يكون مسلماً وهو يطلب الدنيا دون الآخرة ، ولا يكون مسلماً لأنه روح تنكر الجسد ، أو لأنه جسد ينكر الروح ، أو لأنه يصحب إسلامه فى حالة ، ويدعه فى حالة أخرى .. ولكنما هو المسلم بعقيدته كلها مجتمعة لديه ، فى جميع حالاتِه ، سواء تفرد وحده أو جمعته بالناس أواصر الاجتماع .



● **شمول التعاليم الإسلامية :**

وإذا كان الإسلام هو رسالة الإنسان كله فى كل أطواره ، ورسالة الحياة كلها ، بكل جوانبها ومجالاتها ، فلا عجب أن نجد التعاليم الإسلامية كلها تتميز بهذا الشمول والاستيعاب لكل شؤون الحياة والإنسان .

نجد هذا الشمول يتجلى فى العقيدة والتصور ، ويتجلى فى العبادة والتقرب ، ويتجلى فى الأخلاق والفضائل ، ويتجلى فى التشريع والتنظيم .



● **شمول العقيدة الإسلامية :**

فالعقيدة الإسلامية عقيدة شاملة من أى جانب نظرت إليها .

(أ) فهى توصف بالشمول ، باعتبار أنها تفسر كل القضايا الكبرى فى هذا الوجود . القضايا التى شغلت الفكر الإنسانى ، ولا تزال تشغله ، وتلح عليه بالسؤال ، وتتطلب الجواب الحاسم الذى يُخْرِجُ الإنسان من الضياع والشك والحيرة ، وينتشله من متاهات الفلسفات والنحل المتضاربة قديماً وحديثاً : قضية الألوهية ، قضية الكون ، قضية الإنسان ، قضية النبوة ، قضية المصير .

فإذا كانت بعض العقائد تعنى بقضية الإنسان دون قضية الألوهية والتوحيد ، أو بقضية الألوهية دون قضية النبوة والرسالة ، أو بقضية النبوة دون قضية الجزاء الأخروى ، فإن عقيدة الإسلام قد عنيت بهذه القضايا كلها ، وقالت كلمتها فيها ، بشمول واضح ، ووضوح شامل .

(ب) وتوصف العقيدة الإسلامية بالشمول كذلك ، لأنها لا تجزئ الإنسان بين إلهين اثنين : إله الخير والنور ، وإله الشر والظلمة ، كما كان فى المجوسية ، أو بين الله والشيطان الذى سمى فى الأناجيل باسم « رئيس هذا العالم » ، واسم « إله هذا الدهر » ، وانقسم العالم بينه وبين الله ، فله مملكة الدنيا ، ولله ملكوت السماوات ، فيوشك أن يكون عمله فى نظر المسيحية مضارعاً لعمل « أهريمان » إله الظلام فى المجوسية » ! [(١)] .

(جـ) وتوصف العقيدة الإسلامية بالشمول من ناحية أخرى ، وهى : أنها لا تعتمد فى ثبوتها على الوجدان ، أو الشعور وحده ، كما هو شأن الفلسفات الإشراقية والمذاهب الصوفية ، وكما هو شأن المسيحية التى ترفض تدخل العقل فى العقيدة رفضاً باتاً ، بحيث لا تؤخذ إلا بالتسليم المطلق ، على حد قولهم : اعتقد وأنت أعمى .

وهى كذلك لا تعتمد على العقل وحده ، كما هو شأن جل الفلسفات البشرية التى تتخذ العقل وسيلتها الفذة فى معرفة الله وحل ألغاز الوجود .

وإنما تعتمد على الفكر والشعور معاً ، أو العقل والقلب جميعاً ، باعتبارهما أداتين متكاملتين من أدوات المعرفة الإنسانية ، والوعى الإنسانى .

إن الإيمان الإسلامى الصحيح هو الذى ينبعث من ضياء العقل وحرارة القلب ، وبذلك يؤدى دوره ويؤتى أكله فى الحياة .

(د) وتوصف العقيدة الإسلامية بالشمول أيضاً ، لأنها عقيدة لا تقبل التجزئة ، لا بد أن تؤخذ كلها بكل محتوياتها دون إنكار ، أو حتى شك فى أى جزء منها ، فمن آمن بـ ٩٩٪ من مضمون هذه العقيدة ، وكفر بـ ١٪ لم يعد بذلك مسلماً . فالإسلام يقتضى أن يسلم الإنسان قيادة كله لله ، ويؤمن بكل ما جاء من عنده .



(١) انظر : « حقائق الإسلام » للعقاد ص ١٠٣ ، ط أولى .

• شمول العبادة فى الإسلام :

وتتمثل ظاهرة الشمول الإسلامى فى عبادته كما تمثلت فى عقيدته .

فالعبادة فى الإسلام - كما بينا فى مقومات الإسلام - تستوعب الكيان البشرى كله ، فالمسلم لا يعبد الله بلسانه فحسب ، أو ببدنه فقط ، أو بقلبه لا غير ، أو بعقله مجرداً ، أو بحواسه وحدها . بل يعبد الله بهذه كلها : بلسانه ذاكراً داعياً تالياً ، وببدنه مصلياً صائماً مجاهداً ، وبقلبه خائفاً راجياً محباً متوكلاً ، وبعقله متفكراً متأملاً ، وبحواسه كلها مستعملاً لها فى طاعته سبحانه .

ومعنى آخر للشمول فى العبادة ، وهى أنها تتسع للحياة كلها ، فلا تقتصر [1] على الشعائر التعبدية المعروفة من صلاة وزكاة وصيام وحج ، بل تشمل كل حركة وكل عمل ترتقى به الحياة ويسعد به الناس .

فالجهاد فى سبيل الله ، دفاعاً عن الحق ، وذوداً عن الحرمات ، ومنعاً للفتنة ، وإعلاء لكلمة الله . . عبادة لا تعدلها عبادة .

وكل عمل نافع يقوم به المسلم ، لخدمة المجتمع ، أو مساعدة أفراده .



• شمول الأخلاق فى الإسلام :

ويبرز الشمول كذلك فى ميدان الأخلاق والفضائل . فالأخلاق الإسلامية ليست هى التى تعرف عند بعض الناس بـ « الأخلاق الدينية » التى تتمثل فى أداء الشعائر التعبدية ، واجتناب أكل لحم الخنزير وشرب الخمر ، ونحو ذلك لا غير ، إنها أخلاق تسع الحياة بكل جوانبها ، وكافة مجالاتها .

إن الأخلاق فى الإسلام لم تدع جانباً من جوانب الحياة الإنسانية : روحية أو جسمية ، دينية أو دنيوية ، عقلية أو عاطفية ، فردية أو اجتماعية ، إلا رسمت له المنهج الأمثل للسلوك الرفيع ، فما فرقه الناس فى مجال الأخلاق باسم

الدين وباسم الفلسفة ، وباسم العرف أو المجتمع ، قد ضمه القانون الأخلاقى فى الإسلام فى تناسق وتكامل وزاد عليه .



• شمول الالتزام بالإسلام كله :

هذا الشمول الذى تميز به الإسلام - بحيث استوعب الحياة كلها ، والإنسان كله ، فى كل أطوار حياته ، وفى كل مجالات حياته - يجب أن يقابله شمول مماثل من جانب التزام المسلمين : أعنى الالتزام بهذا الإسلام كله فى شموله وعمومه وسعته . فلا يجوز الأخذ بجانب من تعاليمه وأحكامه ، وطرح جانب آخر ، أو جوانب أخرى منها ، قصداً أو إهمالاً ، لأنها « كل » لا يتجزأ .

وقد عاب القرآن الكريم على بنى إسرائيل تجزئتهم أحكام دينهم تبعاً لأهوائهم ، يأخذون منها ما راق لهم ، ويدعون ما لم يرق لهم . فقرعهم الله أشد التقريع على ذلك فقال : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ، فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ ، وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ ، فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (١) .

فلا يجوز فى نظر الإسلام أخذ جانب العقيدة والإيمان من تعاليمه ، وإغفال جانب العبادة أو الأخلاق ، كالذين قالوا : لا تضر مع الإيمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة . فإن عمل الصالحات مكمل للإيمان ، وسياج له ، وثمرة لازمة للإيمان الصادق ، كما بين ذلك القرآن والسُّنَّة : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى

---

(١) البقرة : ٨٥ ، ٨٦

رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ (١) .

ولا يجوز فى نظر الإسلام العناية بالعبادات والشعائر ، وإهمال جانب الأخلاق والفضائل ، لأن الفضائل الأخلاقية ، من شعب الإيمان الحق ، وثمرة للعبادة الصحيحة : « الإيمان بضع وسبعون شعبة ، والحياة شعبة من الإيمان » (٢) ، ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ ، إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ (٣) ، وفى الصحيح : « آية المنافق ثلاث ، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » .

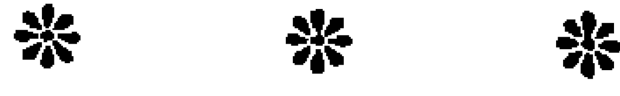
ولا يجوز فى نظر الإسلام كذلك الاهتمام بالجانب الأخلاقى ، وإغفال الجانب التعبدى ، فإن الناس إنما خلقوا ليعرفوا الله ويعبدوه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٤) ، وإنما يعبد الله تعالى بما شرع وفرض من شعائر وفرائض اعتبرها رسوله الأركان التى بنى عليها الإسلام ، وأول خُلُق يجب أن يتحلى به المسلم هو الوفاء لله بعهده ، وشكر نعمته ، وأداء أمانته ، وذلك بأداء حقه الذى افترضه على عباده من صلاة وزكاة وصيام وحج : ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (٥) .

ولا يجوز فى نظر الإسلام الأخذ بكل ما ذكر من عقيدة وعبادة وأخلاق ، مع إغفال جانب الشريعة التى نظم الله بها حياة الخلق ، وأنزل بها الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، فلا يحل لمن يؤمن بعدل الله تعالى ، وكمال علمه وحكمته وبره بخلقه ، أن يدع شرع الله عمداً ، ليحكم بشرائع البشر الممثلة لقصورهم وأهوائهم . ولهذا حذر الله رسوله – وبالتالى كل حاكم من

---

(١) الأنفال : ٢ – ٤ (٢) رواه البخارى . (٣) العنكبوت : ٤٥
(٤) الذاريات : ٥٦ (٥) آل عمران : ٩٧

بعده - أن يدع : « بعض ما أنزل الله » تأثراً بأهواء الآخرين وفتنتهم ، فإن من ترك حكم الله سقط لا محالة فى حكم الجاهلية ولا ثالث لهما . قال تعالى : ﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ، وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (1) .



(1) المائدة : ٤٩ ، ٥٠

الوسَطيَّة

وهذه خصيصة أخرى من أبرز خصائص الإسلام ، وهى « الوسطية » ، ويعبر عنها أيضاً بـ « التوازن » ، ونعنى بها التوسط أو التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين ، بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير ، ويطرد الطرف المقابل ، وبحيث لا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه ، ويطغى على مقابله ويحيف عليه .

مثال الأطراف المتقابلة أو المتضادة : الربانية والإنسانية ، الروحية والمادية ، الأخروية والدنيوية ، الوحى والعقل ، الماضوية والمستقبلية ، الفردية والجماعية ، الواقعية والمثالية ، الثبات والتغير ، وما شابهها . ومعنى التوازن بينها : أن يفسح لكل طرف منها مجاله ، ويعطى حقه « بالقسط » أو « بالقسطاس المستقيم » ، بلا وكس ولا شطط ، ولا غلو ولا تقصير ، ولا طغيان ولا إخسار . كما أشار إلى ذلك كتاب الله بقوله : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلاَّ تَطْغَوْا فِى الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ (١) .

● عجز الإنسان عن إنشاء نظام متوازن :

وهذا فى الحقيقة أكبر من أن يقدر عليه الإنسان ، بعقله المحدود ، وعلمه القاصر ، فضلاً عن تأثير ميوله ، ونزعاته الشخصية ، والأسرية والحزبية ، والإقليمية والعنصرية وغلبتها عليه من حيث يشعر أو لا يشعر .

ولهذا لا يخلو منهج أو نظام يصنعه بشر - فرد أو جماعة - من الإفراط أو التفريط ، كما يدل على ذلك استقراء الواقع وقراءة التاريخ .

---

(١) الرحمن : ٧ - ٩

إن القادر على إعطاء كل شيء فى الوجود - مادياً كان أو معنوياً - حقه بحساب وميزان ، هو الله الذى خلق كل شيء فقدره تقديراً ، وأحاط بكل شيء خبراً ، وأحصى كل شيء عدداً ، ووسع كل شيء رحمة وعلماً .

ولا عجب أن نرى هذا التوازن الدقيق فى خلق الله ، وفى أمر الله جميعاً ، فهو صاحب الخلق والأمر ، فظاهرة التوازن ، تبدو فيما أمر الله به ، وشرعه من الهدى ودين الحق ، أى : فى نظام الإسلام ومنهجه للحياة ، كما تبدو فى هذا الكون الذى أبدعته يد الله فأتقنت فيه كل شيء .



● من مظاهر الوسطية فى الإسلام :

وإذا كان للوسطية كل هذه المزايا ، فلا عجب أن تتجلى واضحة فى كل جوانب الإسلام ، نظرية وعملية ، تربوية وتشريعية .

* وسطية الإسلام فى العبادات والشعائر :

والإسلام وسط فى عباداته ، وشعائره بين الأديان ، والنحل التى ألغت الجانب « الربانى » - جانب العبادة والتنسك والتأله - من فلسفتها وواجباتها ، كالبوذية التى اقتصرت فروضها على الجانب الأخلاقى الإنسانى وحده . . وبين الأديان والنحل التى طلبت من أتباعها التفرغ للعبادة والانقطاع عن الحياة والإنتاج ، كالرهبانية المسيحية .

ولعل أوضح دليل نذكره هنا : الآيات الآمرة بصلاة الجمعة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ ، وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

---

(١) الجمعة : ٩ ، ١٠

فهذا هو شأن المسلم مع الدين والحياة حتى فى يوم الجمعة : بيع وعمل للدنيا قبل الصلاة ، ثم سعى إلى ذكر الله وإلى الصلاة ، وترك للبيع والشراء وما أشبهه من مشاغل الحياة ، ثم انتشار فى الأرض وابتغاء الرزق من جديد بعد انقضاء الصلاة ، مع عدم الغفلة عن ذكر الله كثيراً فى كل حال ، فهو أساس الفلاح والنجاح .



* وسطية الإسلام فى الأخلاق :

والإسلام وسط فى الأخلاق بين غلاة المثاليين الذين تخيلوا الإنسان ملاكاً أو شبه ملاك ، فوضعوا له من القِيَمَ والآداب ما لا يمكن له ، وبين غلاة الواقعيين الذين حسبوه حيواناً أو كالحيوان ، فأرادوا له من السلوك ما لا يليق به فأولئك أحسنوا الظن بالفطرة الإنسانية فاعتبروها خيراً محضاً ، وهؤلاء أساؤوا بها الظن ، فعدوها شراً خالصاً ، وكانت نظرة الإسلام وسطاً بين أولئك وهؤلاء .

فالإنسان فى نظر الإسلام مخلوق مركب فيه العقل ، وفيه الشهوة ، فيه غريزة الحيوان ، وروحانية الملاك ، قد هدى للنجدين ، وتهيأ بفطرته لسلوك السبيلين ، إما شاكراً وإما كفوراً . فيه استعداد للفجور استعداده للتقوى . ومهمته جهاد نفسه ورياضتها حتى تتزكى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ (1) .



* وسطية الإسلام فى التشريع :

والإسلام وسط كذلك فى تشريعه ونظامه القانونى والاجتماعى ، وأبرز ما تتجلى فيه الوسطية هنا : مجال الفردية والجماعية .

---

(1) الشمس : ٧ - ١٠

● **التوازن بين الفردية والجماعية :**

وفى النظام الإسلامى تلتقى الفردية والجماعية فى صورة متزنة رائعة ، تتوازن فيها حرية الفرد ومصلحة الجماعة ، وتتكافأ فيها الحقوق والواجبات ، وتتوزع فيها المغانم والتبعات بالقسطاس المستقيم .

لقد تخبطت الفلسفات والمذاهب من قديم ، فى قضية الفرد والمجتمع والعلاقة بينهما : هل الفرد هو الأصل والمجتمع طارئ مفروض عليه ، لأن المجتمع إنما يتكون من الأفراد ؟ أم المجتمع هو الأساس والفرد نافلة ، لأن الفرد بدون المجتمع مادة غفل (خام) ، والمجتمع هو الذى يشكلها ويعطيها صورتها ، فالمجتمع هو الذى يورث الفرد ثقافته وآدابه وعاداته وغير ذلك ؟

من الناس من جنح إلى هذا ، ومنهم من مال إلى ذلك ، واحتد الخلاف بين الفلاسفة والمشرعين والاجتماعيين والاقتصاديين والسياسيين فى هذه القضية ، فلم يصلوا إلى نتيجة .

كان (أرسطو) يؤمن بفردية الإنسان ، ويحبذ النظام الذى يقوم على الفردية ، وكان أستاذه (أفلاطون) يؤمن بالجماعية - الاشتراكية - كما يتضح ذلك فى كتابه (الجمهورية) .

وبهذا لم تستطع الفلسفة الإغريقية - أشهر الفلسفات البَشرية القديمة - أن تحل هذه العقدة ، وأن تخرج الناس من هذه الحيرة ، كشأن الفلسفة دائماً فى كل القضايا الكبيرة ، تعطى الرأى وضده ، ولا يكاد أقطابها يتفقون على حقيقة ، حتى قال أحد أساتذتها : الفلسفة لا رأى لها !!

وفى فارس ظهر مذهبان متناقضان : أحدهما فردى يدعو إلى التقشف والزهد ، والامتناع عن الزواج ، ليعجل الإنسان بفناء العالم ، الذى يعج بالشرور والآلام ، وهذا هو مذهب « مانى » ويمثل أقصى الفردية .

وقام فى مقابله مذهب آخر يمثل أقصى (الجماعية) وهو مذهب « مزدك »

الذى دعا إلى شيوعية الأموال والنساء ، وتبعه كثير من الغوغاء ، الذين عاثوا فى الأرض فساداً ، وضجت منهم البلاد والعباد .

وقد جاءت الأديان السماوية لتقيم التوازن فى الحياة ، والقسط بين الناس ، كما قرر ذلك القرآن الكريم (١) ، ولكن أتباعها سرعان ما حرفوها وبدلوا كلمات الله ، ففقدت بذلك وظيفتها فى الحياة ، حين فقدت مزيتها الأولى وهى : ربانية المصدر .

لهذا ، لم تقدم الأديان السابقة قبل الإسلام حلاً لهذه المشكلة ، فقد كان اليهود الذين تفرقوا فى الأرض يؤيدون الفردية ، بتفكيرهم وسلوكهم القائم على الأنانية : ﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ ، وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾ (٢) كما سجل عليهم القرآن العزيز .

وجاءت المسيحية أيضاً تهتم بنجاة الفرد قبل كل شىء ، تاركة شأن المجتمع لقيصر ، أو على الأقل ، هذا ما يفهم من ظاهر ما يحكيه الإنجيل عن المسيح ، حين قال : أعط ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله !!

وإذا طوينا كتاب التاريخ وتأملنا صفحات الواقع ، فماذا نرى ؟

إن عالمنا اليوم يقوم فيه صراع ضخم بين المذهب الفردى ، والمذهب الجماعى . فالرأسمالية تقوم على تقديس الفردية ، واعتبار الفرد هو المحور الأساسى ، فهى تدلله بإعطاء الحقوق الكثيرة ، التى تكاد تكون مطلقة ، فله حرية التملك ، وحرية القول ، وحرية التصرف ، وحرية التمتع ، ولو أدت هذه الحريات إلى إضرار نفسه ، وإضرار غيره ، ما دام يستعمل حقه فى « الحرية الشخصية » ، فهو يتملك المال بالاحتكار والحيل والربا ، وينفقه فى اللهو والخمر والفجور ، ويمسكه عن الفقراء والمساكين والمعوزين ، ولا سلطان لأحد عليه ، لأنه « هو حر » .

---

(١) فى قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (الحديد : ٢٥) .

(٢) النساء : ١٦١

والمذاهب الاشتراكية - وبخاصة المتطرفة منها كالماركسية - تقوم على الحط من قيمة الفرد والتقليل من حقوقه ، والإكثار من واجباته ، واعتبار المجتمع هو الغاية ، وهو الأصل . وما الأفراد إلا أجزاء أو تروس صغيرة فى تلك « الآلة » الجبارة ، التى هى المجتمع ، والمجتمع فى الحقيقة هو الدولة ، والدولة فى الحقيقة هى الحزب الحاكم ، وإن شئت قلت : هى اللجنة العليا للحزب ، وربما كانت هى زعيم الحزب فحسب ، هى الدكتاتور !!

إن الفرد ليس له حق التملك إلا فى بعض الأمتعة ، والمنقولات ، وليس له حق المعارضة ، ولا حق التوجيه لسياسة بلده وأمته ، وإذا حدثته نفسه بالنقد العلنى أو الخفى ، فإن السجون والمنافى وحبال المشانق له بالمرصاد !

ذلك هو شأن فلسفات البَشر ومذاهب البَشر ، والديانات التى حرفها البَشر ، وموقفها من الفردية والجماعية ، فماذا كان موقف الإسلام ؟

لقد كان موقفه فريداً حقاً ، لم يمل مع هؤلاء ولا هؤلاء ، ولم يتطرف إلى اليمين ولا إلى اليسار .

إن شارع هذا الإسلام هو خالق هذا الإنسان ، فمن المحال أن يشرع هذا الخالق من الأحكام والنظم ما يعطل فطرة الإنسان أو يصادمها . وقد خلقه سبحانه على طبيعة مزدوجة : فردية واجتماعية فى آن واحد . فالفردية جزء أصيل فى كيانه ، ولهذا يحب ذاته ، ويميل إلى إثباتها وإبرازها ويرغب فى الاستقلال بشؤونه الخاصة .

ومع هذا نرى فيه نزعة فطرية إلى الاجتماع بغيره ، ولهذا عد السجن الانفرادى عقوبة قاسية للإنسان ، ولو كان يتمتع داخله بما لذ وطاب من الطعام والشراب .

والنظام الصالح هو الذى يراعى هذين الجانبين : الفردية والجماعية ، ولا يطغى أحدهما على الآخر . فلا عجب أن جاء الإسلام - وهو دين الفطرة - نظاماً وسطاً عدلاً ، لا يجور على الفرد لحساب المجتمع ، ولا يحيف على

المجتمع من أجل الفرد ، لا يدلل الفرد بكثرة الحقوق التى تمنح له ، ولا يرهقه بكثرة الواجبات التى تُلقى عليه ، وإنما يكلفه من الواجبات فى حدود وسعه ، دون حرج ولا إعنات ، ويقرر له من الحقوق ما يكافىء واجباته ، ويلبى حاجته ، ويحفظ كرامته ، ويصون إنسانيته .



● **ما قرره الإسلام لرعاية حقوق الفرد ؟**

١ - من هنا قرر الإسلام حرمة الدم ، فحفظ للفرد « حق الحياة » ، وأعلن القرآن أن : ﴿ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الأَرْضِ ، فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً ، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً ﴾ (١) .

وأوجبت الشريعة فى قتل العمد القصاص ، إلا أن يعفو أولياء المقتول ، أو يقبلوا بدلاً ، وأوجبت فى قتل الخطأ الدية والكفارة .

٢ - وقرر حرمة العرض ، فصان للفرد « حق الكرامة » فلا يجوز أن يهان فى حضرته ، أو يؤذى فى غيبته ، بأى كلمة أو إشارة تسوؤه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيراً مِّنْهُمْ ، وَلاَ نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ، وَلاَ تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ ، وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ ﴾ (٢) ، ﴿ وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُمْ بَعْضاً ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً ﴾ (٣) .

٣ - وقرر حرمة المال ، فصان للفرد « حق التملك » فلا يحل أخذ ماله إلا بطيب نفس منه ، ولا يجوز للدولة ، ولا لفرد آخر نهب ماله وأخذه بغير حق . قال النبى ﷺ فى حجة الوداع : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا » (٤) .

---

(١) المائدة : ٣٢
(٢) الحجرات : ١١
(٣) الحجرات : ١٢
(٤) رواه مسلم .

٤ - وقرر حرمة البيت ، فصان بذلك للفرد « حق الاستقلال الشخصى » فلا يجو لأحد أن يتجسس عليه ، أو يقتحم عليه بيته بغير إذنه ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ﴾ (١) وقال : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ (٢) .

٥ - وقرر للفرد « حرية الاعتقاد » فلا يجوز أن يكره على ترك دينه ، واعتناق دين آخر : ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ ، قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَىِّ ﴾ (٣) ، ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٤) .

٦ - وقرر للفرد « حرية النقد » فمن حق كل فرد أن يعارض ما يراه من عوج ، وما يلاحظه من تقصير ، بل من واجبه ذلك إذا لم يقم غيره به ، وهو ما سماه الإسلام « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » .

٧ - وقرر « حرية الرأى والفكر » فمن حق كل إنسان ، بل من واجبه أن يفكر وينظر . فقد أمر الإسلام الناس أن يتفكروا ، وما دام التفكير حقاً - أو واجباً - لكل بشر ، فمن حق كل مفكر أن يخطئ ، ولا لوم عليه فى ذلك . إن الإسلام لا يحرم المجتهد من المثوبة والأجر ، وإن أخطأ إصابة الحقيقة . ففى الحديث : « المجتهد إذا أخطأ فله أجر ، وإن أصاب فله أجران » (٥) .

وليس فى الدنيا دين ولا نظام يشجع على استعمال الفكر ، ويرحب بنتائجه - أياً كانت - مثل هذا الإسلام ، الذى يثيب على الاجتهاد الخطأ .

ثم تتعايش هذه الأفكار والاجتهادات المختلفة جنباً إلى جنب ، دون ضيق ولا تبرم ، كما رأينا ذلك فى عهد الصحابة ومن تبعهم بإحسان .

---

(١) النور : ٢٧ (٢) الحجرات : ١٢ (٣) البقرة : ٢٥٦

(٤) يونس : ٩٩ (٥) متفق عليه .

وفى ظل هذه الحرية الفكرية ظهرت المدارس والمشارب المختلفة : فى الفقه ، والتفسير ، والكلام وغيرها ، من غير نكير ، إلا ما توجبه المناقشة العلمية .

٨ - وقرر الإسلام « المسئولية الفردية » ، وأكدها تأكيداً بليغاً فى كتابه فقال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ (١) ، ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ (٢) ، ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (٣) .

وهذه الآيات تطبق على الإنسان فى الدنيا وفى الآخرة ، فهو فى الحياتين لا يحمل وزر غيره .



● ما قرره الإسلام لحماية حقوق المجتمع ؟

ومع هذه الحقوق والحريات التى منحها الإسلام للفرد ، فقد فرض عليه للمجتمع واجبات تكافئها ، وقيد هذه الحقوق والحريات الفردية ، بأن تكون فى حدود مصلحة الجماعة ، وألا يكون فيها مضرة للغير ، وليس للفرد أن يستخدم حقه فيما يؤذى الجماعة ويضرها ، إذ لا ضرر ولا ضرار فى الإسلام ، أى : لا يضر الإنسان نفسه ولا يضار غيره ، كما أن حق الفرد إذا تعارض مع حقوق الجماعة ، فإن حق الجماعة أولى بالتقديم .

(أ) فالحياة التى صانها الإسلام للفرد ، إذا اقتضى المجتمع المسلم بذلها لحمايته وجب عليه أن يقدمها راضى النفس ، قرير العين ، معتقداً أن الموت هنا هو عين الحياة ، وكذلك إذا اعتدى على حق نفس أخرى كقاتل العمد ، أو على حق المجتمع فى الأمن والاستقرار ، كقاطع الطريق ، أو خرج على دينه وفارق الجماعة كالمرتد - فقدت حياته مالها من عصمة .

(ب) حق التملك مقيد بأن يأخذ المال من حله ، وينفقه فى محله ، ولا يبخل به إذا طلبته الجماعة ، فملكية الفرد للمال ليست مطلقة كما ينادى أنصار

---

(١) المدثر : ٣٨ (٢) البقرة : ٢٨٦ (٣) الإسراء : ١٥

« المذهب الحر » ، بل هى مقيدة بحدود الله وحقوق المجتمع ، حتى إن انتزاع هذا الملك من صاحبه يجوز للمصلحة العامة ، على أن يعوض عنه ثمن المثل ، ذلك أن المال مال الله ، وهو مستخلف فيه ، وبعبارة أخرى : هو وكيل الجماعة فى رعايته وتثميره وإنفاقه ، فإذا أساء التصرف فى المال ، كان من حق الجماعة أن تغل يده ، وتحجر عليه ، كما أن للجماعة عليه حقوقاً فى هذا المال ، بعضها دورى ثابت كالزكاة بأنواعها ، وبعضها غير دورى ، كما فى الحديث : « إن فى المال حقاً سوى الزكاة » (١) ، وبعضها يفرضه ولى الأمر عند الحاجة .

(جـ) والحريات والحقوق كلها مقيدة برعاية أخلاق المجتمع وعقائده ومثله العليا ، فليس معنى حرية الاعتقاد أو الرأى ، إباحة الطعن على الإسلام وأهله ، وإذاعة الكفر بالله ورسوله وكتابه ، والتشكيك فى القيم العليا ، ونشر الخلاعة والفجور ، فإن حرية الإفساد لا يقرها عقل ولا شرع .

(د) المسؤولية الفردية التى أكدها الإسلام ، نراه قد أكد كذلك مسؤولية الفرد عن الجماعة ، فكل فرد فى المجتمع المسلم راع فى مجال من المجالات ، كما فى الحديث الصحيح : « كلكلم راع وكلكم مسئول عن رعيته » (٢) ، فكما أن الإمام راع مسئول عن الأمة ، فإن الرجل فى بيته راع مسئول عن الأسرة ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ، والخادم راع فى مال مخدومه ، وكل على ثغر الإسلام ، فلا يجوز له إهمالها . . وفريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، تقتضى مسئولية المسلم عن المجتمع ، وتوجب عليه مراقبة أحواله ، وتقويم عوجه إن اعوج بكل ما استطاع ، بيده أولاً ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه : وذلك أضعف الإيمان .

إن النصيحة لكافة المسلمين خاصتهم وعامتهم ، ركن ركين من الإسلام ، ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم .

---

(١) رواه الترمذى وابن ماجه .

(٢) متفق عليه من حديث ابن عمر .

وليس لمسلم أن يعتزل الحياة والناس ويقول : نفسى نفسى ! ويدع نار الفساد تلتهم الأخضر واليابس من حوله ، فإن هذه النار إذا تركت وشأنها ، لم تلبث أن تحرقه هو ، وتحرق كل ما يحرص عليه . ولهذا يقول القرآن : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (١) ، وفى الحديث : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده » .

(هـ) ومن معانى الجماعة فى الإسلام ما عرف فى الشريعة باسم « فروض الكفاية » فكل علم أو صناعة أو حرفة أو نظام أو مؤسسة ، تحتاج إليها الجماعة المسلمة فى دينها أو دنياها ، فتحقيقها فرض كفاية على المسلمين ، على معنى أنه إذا قام بها عدد كاف فقد ارتفع الحرج ، وسقط الإثم عن باقى الجماعة ، وإلا أثمت الجماعة كلها ، واستحقت عقوبة الله .

(و) المسلمون مسئولون مسئولية تضامنية عن تنفيذ شريعة الإسلام ، وإقامة حدوده ، ومن هنا كان خطاب التكليف فى القرآن إلى الجماعة . وتكرر قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (٢) ، بهذه الصيغة الجماعية ليؤكد وجوب التكافل بين الجماعة فى تنفيذ ما أمر الله به ، واجتناب ما نهى عنه ، خوطبت الجماعة كلها بمثل قوله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾ (٣) ، ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ (٤) ، وإن كان الذى يقوم على هذه الحدود هو الدولة والحكام ، لأن الجماعة كلها مسئولة عن إقامتها ، مؤاخذة بعقاب الله إذا عطلتها .

(ز) حتى العبادة التى هى صلة بين العبد وربه ، أبى الإسلام ، إلا أن يضفى عليها روحاً جماعية ، وصبغة جماعية ، فدعا إلى صلاة الجماعة ، ورغب فيها ، حتى جعلها أفضل من صلاة المسلم وحده ، بسبع وعشرين

---

(١) الأنفال : ٢٥
(٢) ذكر هذا النداء فى القرآن كثيراً .
(٣) المائدة : ٣٨
(٤) النور : ٢

درجة ، وكلما كان عدد الجماعة أكبر ، كان ثواب الله عليها أعظم ، بل هم الرسول أن يحرق على قوم بيوتهم ، لتخلفهم عن الجماعة فى المسجد ، ولم يرخص لأعمى ، يسمع الأذان ، أن يصلى فى بيته ويترك صلاة الجماعة ، وقال : « لا صلاة لمنفرد خلف الصف » (١) كراهية منه للشذوذ والانفراد ، ولو فى المظهر ، وإذا صلى المسلم منفرداً فى خلوة لم تزل الجماعة فى وجدانه وضميره ، فهو إذا ناجى الله ناجاه بصيغة الجمع ، وإذا دعاه دعاه باسم الجميع : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (٢) .

كما شرع صلاة الجمعة فى كل أسبوع مرة ، وصلاة العيد فى كل عام مرتين ، وفرض الحج فى العمر مرة على كل مسلم ، وكلها شعائر لا بد أن تؤدى فى صورة جماعية .

(ح) فى مجال الآداب والتقاليد ، حث الإسلام على جملة من الآداب الاجتماعية ، أراد بها أن يخرج المسلم من الفردية والانعزالية ، التى قد تروق للانطوائيين من الناس ، فتحية الإسلام ، والمصافحة عند اللقاء ، وتشميت العاطس ، والتزاور والتهادى ، وعيادة المريض ، وتعزية المصاب ، وصلة الأرحام ، وإحسان الجوار ، وإكرام الضيف ، وحسن الصحبة فى السفر والحضر ، والبر باليتامى والمساكين وابن السبيل ، وغير ذلك من الآداب والواجبات ، هى التى جعلت الشعور الجماعى ، والتفكير الجماعى ، والسلوك الجماعى ، جزءاً لا يتجزأ من حياة المسلم .

(ط) وفى مجال الأخلاق ، حث الإسلام على المحبة والإخاء والإيثار ، وأمر بالتعاون على البر والتقوى ، ودعا إلى توحيد الكلمة وجمع الصف ، كما دعا إلى التراحم والتسامح ، وإلى البذل والتضحية ، واحترام النظام ، والطاعة لأولى الأمر فى المعروف .

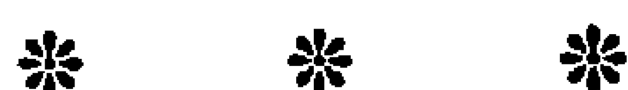
---

(١) رواه أبو داود .

(٢) الفاتحة : ٥ ، ٦

وبجوار ذلك حذر من الحسد والبغضاء والحقد ، والفرقة والتنازع . وسائر الرذائل التى تنشأ من الأنانية والغلو فى حب الذات ، وحب الشهوات .

وبهذا كله ، نعلم كيف أقام الإسلام - بالتشريع والتربية - الموازين القسط بين الفرد والمجتمع ، أو بين الفردية والجماعية فى حياة الإنسان ، كما نتبين أن نظام الإسلام لا يعد فى المذاهب الفردية ، كما لا يحسب فى المذاهب الجماعية ، ذلك لأنه أخذ من كل منهما خير ما فيه ، كما تنزه عن شر ما فيه ، فقد اعترف بالفرد وبالمجتمع ، وقرر لكل منهما حقوقه بالعدل ، وألزمه واجبات تقابلها بالمعروف . وهذه هى الوسطية ، وإن شئت قلت : هو التوازن الذى اختص به هذا الإسلام .



الجمع بين الثبات والمرونة

من أجلى مظاهر « الوسطية » ، التى تميزت بها رسالة الإسلام ، وبالتالى يتميز بها مجتمعه عن غيره : التوازن بين الثبات والتطور ، أو الثبات والمرونة . فهو يجمع بينهما فى تناسق مبدع ، واضعاً كلاً منهما فى موضعه الصحيح .. الثبات فيما يجب أن يخلد ويبقى ، والمرونة فيما ينبغى أن يتغير ويتطور .

وهذه الخصيصة البارزة لرسالة الإسلام ، لا توجد فى شريعة سماوية ولا وضعية .

فالسماوية - عادة - تمثل الثبات (١) ، بل الجمود أحياناً ، حتى سجل التاريخ على كثير من رجالاتها وقوفهم فى وجه الحركات العلمية ، والتحريرية الكبرى ، ورفضهم لكل جديد فى ميدان الفكر أو التشريع أو التنظيم .

وأما الشرائع الوضعية ، فهى تمثل - عادة - المرونة المطلقة ، ولهذا نراها فى تغير دائم ، ولا تكاد تستقر على حال ، حتى الدساتير التى هى أم القوانين ، كثيراً ما تلغى بجرة قلم ، من حاكم متغلب ، أو مجلس للثورة ، أو برلمان منتخب ، انتخاباً صحيحاً أو زائفاً ، حتى يصبح الناس ويمسوا وهم غير مطمئنين إلى ثبات أى مادة ، أو قاعدة قانونية ، كانت بالأمس موضع التجلة والاحترام .

ولكن الإسلام ، الذى ختم الله به الشرائع والرسالات السماوية ، أودع الله فيه عنصر الثبات والخلود ، وعنصر المرونة والتطور معاً ، وهذا من روائع

---

(١) يلاحظ أن الشرائع السماوية قبل الإسلام كانت مرحلية ، لزمن موقوت ، ولقوم مخصوصين ، فلم تكن فى حاجة إلى المرونة ، التى تؤهلها للعموم والخلود ، بخلاف الإسلام ، الذى بعث رسوله إلى الناس كافة ، وختم به النبيون .

الإعجاز فى هذا الدين ، وآية من آياته عمومه وخلوده ، وصلاحيته لكل زمان وكل مكان .

ونستطيع أن نحدد مجال الثبات ، ومجال المرونة ، فى شريعة الإسلام ورسالته الشاملة الخالدة ، فنقول :

إنه الثبات على الأهداف والغايات ، والمرونة فى الوسائل والأساليب .

الثبات على الأصول والكليات ، والمرونة فى الفروع والجزئيات .

الثبات على القيم الدينية والأخلاقية ، والمرونة فى الشؤون الدنيوية والعلمية .

● دلائل الثبات والمرونة فى مصادر الإسلام وأحكامه :

إن للثبات والمرونة مظاهر ودلائل شتى ، نجدها فى مصادر الإسلام ، وشريعته وتاريخه .

يتجلى هذا الثبات فى « المصادر الأصلية النصية القطعية للتشريع » من كتاب الله ، وسُنَّة رسوله ، فالقرآن هو الأصل والدستور ، والسُّنَّة هى الشرح النظري ، والبيان العملى للقرآن وكلاهما مصدر إلهى معصوم ، لا يسع مسلماً أن يعرض عنه : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ (١) ، ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُم أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ (٢) .

وتتجلى المرونة فى « المصادر الاجتهادية » التى اختلف فقهاء الأمة فى مدى الاحتجاج بها ما بين موسع ومضيق ومقال ومكثر ، مثل : الإجماع ، والقياس ، والاستحسان ، والمصالح المرسلة ، وأقوال الصحابة ، وشرع من قبلنا ، وغير ذلك من مآخذ الاجتهاد ، وطرائق الاستنباط .

---

(١) النور : ٥٤ (٢) النور : ٥١

وفى أحكام الشريعة [1] نجدها تنقسم إلى قسمين بارزين :

قسم يمثل الثبات والخلود .

وقسم يمثل المرونة والتطور .

نجد الثبات يتمثل فى العقائد الأساسية الخمس ، من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورُسُله واليوم الآخر ، وهى التى ذكرها القرآن فى غير موضع كقوله : ﴿ لَيْسَ البِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ [2] ، ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً ﴾ [3] .

وفى الأركان العملية الخمسة من الشهادتين وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت الحرام ، وهى التى صح عن الرسول ﷺ أن الإسلام بُنى عليها .

وفى المحرمات اليقينية من السحر ، وقتل النفس ، والزنى ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ، والتولى يوم الزحف والغصب والسرقة والغيبة والنميمة وغيرها مما يثبت بقطعى القرآن والسُّنَّة .

وفى أمهات الفضائل من الصدق ، والأمانة ، والعفة ، والصبر ، والوفاء بالعهد ، والحياء وغيرها من مكارم الأخلاق التى اعتبرها القرآن والسُّنَّة من شعب الإيمان .

وفى شرائع الإسلام القطعية فى شؤون الزواج ، والطلاق ، والميراث والحدود ، والقصاص ، ونحوها من نظم الإسلام التى ثبتت بنصوص قطعية الثبوت قطعية الدلالة فهذه الأمور ثابتة ، تزول الجبال ولا تزول .

---

(١) نريد بالشريعة هنا ما هو أعم من (الجانب القانونى) فى رسالة الإسلام ، بل المراد : ما بعث الله به محمداً ﷺ من عقائد ، وعبادات ، ومعاملات ، وأخلاق وغيرها كما عرفها بذلك التهانوى فى كتابه : « كشاف اصطلاحات العلوم والفنون » .

(٢) البقرة : ١٧٧ (٣) النساء : ١٣٦

يقول الإمام ابن القيم فى كتابه « إغاثة اللهفان » :

« الأحكام نوعان :

نوع : لا يتغير عن حالة واحدة هو عليها ، لا بحسب الأزمنة ولا الأمكنة ، ولا اجتهاد الأئمة ، كوجوب الواجبات ، وتحريم المحرمات ، والحدود المقدرة بالشرع على الجرائم ، ونحو ذلك ، فهذا لا يتطرق إليه تغيير ولا اجتهاد يخالف ما وضع عليه .

والنوع الثانى : ما يتغير بحسب اقتضاء المصلحة له زماناً ومكاناً وحالاً ، كمقادير التعزيزات وأجناسها وصفاتها ، فإن الشارع ينوع فيها حسب المصلحة ، وقد ضرب ابن القيم لذلك عدة أمثلة من سُنَّة النبى ﷺ ، وسُنَّة خلفائه الراشدين المهديين من بعده - ثم قال :

« وهذا باب واسع ، اشتبه فيه على كثير من الناس الأحكام الثابتة اللازمة التى لا تتغير ، بالتعزيزات التابعة للمصالح وجوداً وعدماً » (١) .



● الثبات والمرونة فى هدى القرآن :

والذى يتدبر القرآن الكريم ، يجد فى نصوصه المقدسة دلائل جمة ، على هذه الخصيصة البارزة ، من خصائص الأُمة المسلمة ، وهى :

الجمع بين الثبات والمرونة جمعاً متوازناً عادلاً .

وإذا كان بالمثال يتضح المقال ، فلا بأس أن نذكر هنا بعض الأمثلة التى توضح ما قلناه :

(أ) يتمثل الثبات فى مثل قوله تعالى فى وصف مجتمع المؤمنين : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ (٢) ، وفى قوله لرسوله : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ ﴾ (٣) ،

---

(١) إغاثة اللهفان : ١/٣٤٦ ، ٣٤٩

(٢) الشورى : ٣٨ (٣) آل عمران : ١٥٩

فلا يجوز لحاكم ، ولا لمجتمع ، أن يلغى الشورى من حياته السياسية والاجتماعية ، ولا يحل لسلطان أن يقود الناس رغم أنوفهم إلى ما يكرهون ، بالتسلط والجبروت .

وتتمثل المرونة ، فى عدم تحديد شكل معين للشورى ، يلتزم به الناس فى كل زمان وكل مكان فيتضرر المجتمع بهذا التقييد الأبدى ، إذا تغيرت الظروف بتغير البيئات أو الأعصار أو الأحوال ، فيستطيع المؤمنون فى كل عصر أن ينفذوا ما أمر الله به من الشورى بالصورة التى تناسب حالهم وأوضاعهم ، وتلائم موقعهم من التطور ، دون أى قيد يلزمهم بشكل جامد .

(ب) يتمثل الثبات فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (١) ، ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ ﴾ (٢) ، فأوجب التقيد بالعدل والالتزام بكل ما أنزل الله ، والحذر من اتباع الأهواء ، وكل هذا مما لا مجال للتساهل فيه ، فهو يمثل جانب الثبات قطعاً فى مجال الحكم والقضاء .

وتتمثل المرونة فى عدم الالتزام بشكل معين للقضاء والتقاضى ، وهل يكون من درجة أو أكثر ؟ وهل يسير على أسلوب القاضى المفرد أم على أسلوب المحكمة الجماعية ؟ وهل يكون هناك محكمة جنايات وأخرى للمدنيات . . إلخ ، كل هذا متروك لاجتهاد أولى الأمر ، وأهل الحل والعقد فى مثل هذه الأمور ، وليس للشارع قصد فيه إلا إقامة العدل ، ورفع الظلم ، وتحقيق المصلحة ، ودرء المفسدة .

لقد اهتم الشارع بالنص على المبدأ والهدف ، ولكنه لم يعتن بالنص على

---

(١) النساء : ٥٨ (٢) المائدة : ٤٩

الوسيلة والأسلوب ، وذلك ليدع الفرصة ، ويفسح الطريق للإنسان كى يختار لنفسه الأسلوب المناسب ، والصورة الملائمة لزمنه وبيئته ، ووضعه وحالته .



● الثبات والمرونة فى الهدى النبوى :

وإذا تأملنا فى السُّنَّة المطهرة - قولاً وفعلاً وتقريراً - وجدناها حافلة بشتى الأمثلة والدلائل التى يتمثل فيها الثبات والمرونة جنباً إلى جنب .

(أ) يتمثل الثبات فى رفضه - صلى الله عليه وسلم - التهاون أو التنازل فى كل ما يتصل بتبليغ الوحى أو يتعلق بكليات الدين ، وقيمه ، وأسسه العقائدية والأخلاقية .

ومهما حاول المحاولون أن يثنوا عنانه عن شيء من ذلك بالمساومات ، أو التهديدات ، أو غير ذلك من أنواع التأثير على النفس البشرية ، فموقفه هو الرفض الحاسم ، الذى علمه إياه القرآن فى مواقف شتى . فحين عرض عليه المشركون ، أن يلتقوا فى منتصف الطريق ، فيقبل شيئاً من عبادتهم ويقبلوا شيئاً من عبادته ، لو يعبد آلهتهم مدة ، ويعبدوا إلهه مدة كان الجواب الحاسم يحمله الوحى الصادق فى سورة قطعت كل المساومات وحسمت كل المفاوضات ، وهى قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (١) .

ولما تلا عليهم آيات الله بينات ، منكرة عليهم شركهم وعنادهم ، ناعية ضلالهم وجحودهم ، قالوا له صلى الله عليه وسلم : ﴿ ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ (٢) ، فكان الرد القاطع ، تلقيناً من الله تعالى لرسوله : ﴿ قُلْ : مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ ، إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلْ : لَّوْ شَاءَ اللهُ

---

(١) سورة الكافرون .
(٢) يونس : ١٥

مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَاكُمْ بِهِ ، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ؟ (١) .

وهكذا تعلم - صلى الله عليه وسلم - من وحى الله : أن لا تنازل ولا تساهل فى أمور العقيدة وما يتصل بها .

وفى مقابل ذلك ، نجد مرونة واسعة فى مواقف السياسة و« التكتيك » ومواجهة الأعداء ، بما يتطلبه الموقف المعين ، من حركة ووعى وتقدير لكل الجوانب والملابسات ، دون تزمت أو تشنج أو جمود .

نجده فى يوم الأحزاب مثلاً يأخذ برأى (سلمان) فى حفر الخندق حول المدينة ، ويشاور بعض رؤساء الأنصار فى إمكان إعطاء بعض المهاجمين مع قريش جزءاً من ثمار المدينة ، ليردهم ويفرقهم عن حلفائهم ، كسباً للوقت إلى أن يتغير الموقف .

ويقول لنعيم بن مسعود الأشجعى - وقد أسلم ، وأراد الانضمام إلى صفوف المسلمين - « إنما أنت رجل واحد ، فخذل عنا ما استطعت » فيقوم الرجل بدور له شأنه فى التفريق بين قريش وغطفان ويهود بنى قريظة .

وفى يوم الحديبية تتجلى المرونة النبوية بأروع صورها .

تتجلى فى قوله ذلك اليوم : « والله لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألوننى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها » .

وفى قبوله - صلى الله عليه وسلم - أن يكتب فى عقد الصلح : « باسمك اللّهم » بدل (بسم الله الرحمن الرحيم) وهى تسمية رفضها قريش .

وفى قبوله - صلى الله عليه وسلم - أن يمحو كلمة « رسول الله » بعد اسمه الكريم ، على حين رفض (على) رضى الله عنه أن يمحوها بعد كتابتها .

---

(١) يونس : ١٥ ، ١٦

وفى قبوله من الشروط ما فى ظاهره إجحاف بالمسلمين ، وإن كان فى عاقبته الخير كل الخير .

والسر فى هذه المرونة هنا ، والتشدد فى المواقف السابقة : أن المواقف الأولى تتعلق بالتنازل عن العقيدة والمبدأ ، فلم يقبل فيها أى مساومة أو تساهل ، ولم يتنازل قيد أنملة عن دعوته . أما المواقف الأخيرة فتتعلق بأمور جزئية ، وبسياسات وقتية ، أو بمظاهر شكلية ، فوقف فيها موقف المتساهل .

(ب) يتمثل الثبات والمرونة معاً فى موقفه - صلى الله عليه وسلم - من وفد ثقيف وقد عرضوا عليه أن يدخلوا الإسلام - ولكنهم سألوه أن يدع لهم (الطاغية) - وهى (اللات) التى كانوا يعبدونها فى الجاهلية - ثلاث سنين فأبى رسول الله ﷺ ذلك عليهم ، فما برحوا يسألونه سنة سنة ، ويأبى عليهم حتى سألوه شهراً واحداً بعد مقدمهم فأبى عليهم إلا أن يبعث أبا سفيان ابن حرب والمغيرة بن شعبة فيهدماها .

وقد كانوا سألوه مع ترك (الطاغية) ، أن يعفيهم من الصلاة ، وألا يكسروا أوثانهم بأيديهم ، فقال رسول الله ﷺ : « أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه ، وأما الصلاة فإنه لا خير فى دين لا صلاة فيه » [1] .

فهو صلى الله عليه وسلم أمام العقائد والمبادىء لا يتنازل ولا يترخص ولا يتسامح ، كما فى أمر (الطاغية) وأمر الصلاة . وأما فى الكيفيات والجزئيات ففيها متسع للترخص والمسامحة كما فى كسر الأوثان بأيديهم فهو أمر لا يتعلق بالمبدأ ، بل بطريقة التنفيذ .



(١) سيرة ابن هشام بتحقيق السقا والأبيارى وشلبى : ٤/ ١٨٤ ، ١٨٥ ، طبعة ثالثة دار إحياء التراث .

● **الفقه الإسلامى بين الثبات والتطور :**

ولا عجب بعد ما ذكرنا من هدى القرآن ، وسُنَّة الرسول ، ومواقف الصحابة ، من الثبات والمرونة - أن نجد الفقه الإسلامى ، بمختلف مدارسه ومذاهبه ، يسير فى نفس هذا الاتجاه ثابتاً على الأصول والكليات ، مرناً متطوراً فى الفروع والجزئيات .

إنه لا يعطى المسلم حرية مطلقة فى تنظيم حياته ولو على حساب عقائده وقيمه ومفاهيمه ، كما أنه لا يقيده فى كل شئونه بتشريعات مفصلة دائمة ، لا يستطيع الفكاك منها .

فالفقيه المسلم ، مقيد حقاً بالنصوص المحكمة الثابتة من القرآن والسُّنَّة ، وهى المجزوم بثبوتها ، القواطع فى دلالتها ، التى أراد الشارع الحكيم أن تلتقى عندها الأفهام ، ويرتفع عندها الخلاف ، وينعقد عليها الإجماع ، فهى أساس الوحدة الفكرية والسلوكية ، للمجتمع المسلم ، وهى للأمة كالجبال للأرض تمسكها أن تميد ، وتحميها أن تضطرب وتتزلزل ، وهذا النوع من النصوص قليل جداً بالنسبة إلى سائر النصوص .

ومع هذا التقيد الملزم ، يجد الفقيه المسلم نفسه فى حرية واسعة أمام منطقتين فسيحتين ، من مناطق الاجتهاد وإعمال الرأى والنظر .



● **منطقة الفراغ التشريعى :**

أما المنطقة الأولى ، فهى ما يمكن تسميته : « منطقة الفراغ التشريعى » تلك المنطقة التى تركتها النصوص - قصداً - لاجتهاد أولى الأمر والرأى ، وأهل الحل والعقد فى الأمة ، بما يحقق المصلحة العامة ، ويرعى المقاصد الشرعية ، من غير أن يقيدنا الشارع فيها بأمر أو نهى . وهى المنطقة التى يسميها بعض الفقهاء « العفو » تبعاً لما جاء فى بعض الأحاديث : « ما أحل الله فى كتابه

فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو ، فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن لينسى شيئاً ، وتلا : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ [1] » .

وفى حديث آخر : « إن الله حد حدوداً فلا تعتدوها ، وفرض فرائض فلا تضيعوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تبحثوا عنها » [2] .

فالحدود التى قدرها الشرع ، لا يجوز اعتداؤها ، مثل تحديد الطلاق الذى تجوز بعده الرجعة بمرتين ، وتحديد عدة المطلقة بثلاثة قروء أو بوضع الحمل ، وتحديد أنصبة الورثة فى تركة الميت ، وتحديد نصاب الزكاة ومقدار الواجب فيها ، وكذلك العقوبات المقدرة بمئة جلدة ، أو بثمانين ، أو بقطع اليد ونحوها .

ومثل ذلك الفرائض التى أوجبها الله كالعبادات الأربع التى هى أركان الإسلام ، ومبانيه العظام ، ومثل ذلك الجهاد ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والإحسان إلى الجار ، وأداء الأمانات ، والحكم بالعدل وغيرها .

وكذلك المحرمات اليقينية ، التى أشرنا إليها من قبل ، مثل : الشرك والسحر ، والقتل ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات ، والزنى وشرب الخمر ، والسرقة وشهادة الزور ، ونحوها .

وما عدا هذه الحدود والفرائض والمحرمات ، فهى أمور مسكوت عنها ، متروكة للاجتهاد ، رحمة بالأمة ، وتيسيراً وتوسعة عليها ، وبهذا تجد أمامها مجالاً رحباً مرناً ، تتحرك فيه بيسر وسهولة دون أن تشعر بالإثم فى دينها ، أو الحرج فى دنياها .

---

(١) رواه البزار والحاكم وصحّحه - والآية من سورة مريم : ٦٤

(٢) رواه الدارقطنى ، وحسّنه النووى فى الأربعين ، ونوزع فى ذلك كما فى شرح هذا الحديث لابن رجب الحنبلى فى كتاب (جامع العلوم والحكم) .

أما كيف تملأ الأمة هذا « الفراغ التشريعى » أو « منطقة العفو » التى تركتها النصوص قصداً ، كما قلنا ، فهناك طرائق ومسالك عديدة يختلف فى تقديرها وفى الأخذ بها فقهاء الشريعة ما بين قابل ورافض ، ومطلق ومقيد ، ومقل ومكثر .

هناك القياس بقيوده وشروطه وإن خالف فيه بعض المعتزلة والظاهرية والإمامية .

هناك الاستحسان الذى أخذ به الحنفية والمالكية وجاء عن بعضهم : إنه تسعة أعشار العلم .

هناك الاستصلاح أو اعتبار المصلحة المرسلة ، وهى التى لم يجئ نص خاص من الشارع باعتبارها ولا بإلغائها ، واشتهر الأخذ بها عند المالكية ، وإن كانت المذاهب الأربعة كلها قد أخذت بها عند التحقيق والتطبيق ، كما يتضح ذلك بالقراءة والاستقراء لكتب كل مذهب .

هناك اعتبار العرف بقيوده وشروطه ، ولهذا كان من القواعد الكلية الشرعية : أن العادة محكمة ، وأن المعروف عرفاً كالمشروط نصاً .



● منطقة النصوص المحتملة :

والثانية : منطقة النصوص المتشابهات ، التى اقتضت حكمة الشارع أن تجعلها هكذا محتملات ، تتسع لأكثر من فهم ، وأكثر من رأى ، ما بين موسع ومضيق ، وما بين قياسى وظاهرى ، وما بين متشدد ومترخص ، وما بين واقعى ومفترض .

وفى كل هذا فسحة وسعة لمن أراد الموازنة والترجيح وأخذ أقرب الآراء إلى الصواب ، وأولاها بتحقيق مقاصد الشرع ، فقد يصلح رأى لزمن ولا يصلح لآخر ، أو يصلح لبيئة ولا يصلح لأخرى ، أو يصلح لحال ولا يصلح لغيره .

وهكذا نجد فى النظام الإسلامى مواضع إجماعية لم يختلف فيها اثنان من علماء الأمة وهى الأسس الثابتة ، التى يرتكز عليها بناء النظام الإسلامى ، مثل ملكية الأرض للأفراد ، وجواز استغلالها وشرعية توارثها ، فهذا مما لم يخالف فى ثبوته ومشروعيته أحد من فقهاء المسلمين .

ولكن إذا جئنا إلى طريقة استغلال الأرض ، وجدنا مذاهب وأقوالاً شتى ، يستند كل منها إلى أدلة شرعية محتملة للتضعيف والترجيح .

فهناك من يقول بمنع المزارعة ، وبإباحة المؤاجرة استناداً إلى ما ورد فى ذلك من آثار ، وإلى المشروعية العامة للإيجار والاستئجار فى سائر الأشياء ، ومنهم من عكس فأباح المزارعة لما صح من معاملة النبى لأهل خيبر على أساسه ولما فيها من المشاركة فى المغنم والمغرم ، ولكنه منع المؤاجرة لما فيها من مخاطرة بالبذور والنفقة والجهد دون فائدة محققة للمستأجر مع الربح المحقق للمالك ، أما المزارعة ففيها اشتراك فى الغنم والغرم قل أو كثر .

وهناك من يجيز المزارعة والمؤاجرة جميعاً ، بشرط ألا تشتمل المزارعة على شرط فاسد ، لأنه لم يصح عنده نهى مطلق عن هذه أو تلك .

وبعضهم يوجب فى المؤاجرة أن يضع المالك من الأجرة فى حالة الجوائح والآفات تصيب الزرع وفقاً لقدر الخسارة ، لما جاء فى الحديث أن النبى ﷺ أمر بوضع الجوائح .

وهناك من لا يجيز المزارعة ولا المؤاجرة جميعاً ، ويوجب على المالك أحد أمرين :

إما آن يزرع أرضه بنفسه وأدواته .

وإما أن يعيرها لغيره ليزرعها بدون مقابل ، أخذاً بحديث : « من كانت له أرض فليزرعها أو يمنحها أخاه » متفق عليه .

أية مرونة ، وأية سعة ، يجدها الفقيه المسلم ، وبالتالى المجتمع المسلم إزاء هذه الآراء المتنوعة ، وهذه الخصوبة الفقهية المثرية ؟

إن لكل رأى من هذه الآراء مستنده الفقهى ، ودليله الشرعى ، ولكل منها وجهة معتبرة .

ويمكننا أن نأخذ بما نراه أرجح وأقوى وأدنى إلى تحقيق المصلحة بالنظر إلى ظروف مجتمعنا وعصرنا ، دون أن ينكر علينا فقيه واحد ، لأن من المتفق عليه : أنه لا إنكار على مجتهد فى المسائل الاجتهادية .

فهذه هى شريعة الإسلام : لو شاء الله لجعل أحكامها كلها منصوصاً عليها نصاً قطعى الثبوت قطعى الدلالة ، وبذلك لا يكون هناك مجال لاجتهاد أو استنباط ، ولاختلاف المشارب وتعدد المدارس ، وتطور الآراء ، وتغير الفتوى بتغيير الزمان والمكان والحال ، وإنما هو حكم واحد ثابت مؤيد .



● تغير الفتوى بتغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والعوائد :

ومن هنا لم يجد المحققون من فقهاء المسلمين ، فى مختلف العصور أى غضاضة أو حرج فى إعلان وجوب تغير الفتوى ، بتغير الأزمنة والأمكنة والأعراف والأحوال .

يقول الإمام ابن القيم فى فصل تغير الفتوى واختلافها بحسب ما ذكرناه :

« هذا فصل عظيم النفع جداً ، وقد وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة ، أوجب من الحرج والمشقة وتكليف ما لا سبيل إليه - ما يعلم أن الشريعة الباهرة التى فى أعلى رتب المصالح لا تأتى به ، فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد فى المعاش والمعاد ، وهى عدل كلها ، ورحمة كلها ، ومصالح كلها ، فكل مسألة خرجت من العدل إلى الجور ،

وعن الرحمة إلى ضدها ، وعن المصلحة إلى المفسدة ، وعن الحكمة إلى العبث ، فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل »(١) .

وكذلك كتب الإمام القرافى المالكى فى كتابه « الأحكام » مبيناً أن استمرار الأحكام ، التى مدركها العرف والعادة - مع تغير تلك العوائد - خلاف الإجماع وجهالة فى الدين .

كما عالج ذلك فى كتابه « الفروق » بهذه الروح نفسها .

وفى القرن الثالث عشر الهجرى ، كتب علامة متأخرى الحنفية « ابن عابدين » رسالته المشهورة (نشر العرف فى بناء بعض الأحكام على العرف) مستخلصاً أحكامها مما قرره علماء المذهب أنفسهم وأفتوا به فى مختلف الأعصار .

وقد ذكر فى هذه الرسالة النافعة : أن كثيراً من الأحكام تختلف باختلاف الزمان لتغير عرف أهله ، أو لحدوث ضرورة ، أو لفساد أهل الزمان ، بحيث لو بقى الحكم على ما كان عليه أولاً ، للزم منه المشقة والضرر بالناس ، ولخالف قواعد الشريعة المبنية على التخفيف والتيسير ودفع الضرر والفساد .

ولهذا نرى مشايخ المذهب خالفوا ما نص عليه المجتهد (إمام المذهب) فى مواضع كثيرة بناها على ما كان فى زمنه ، لعلمهم بأنه لو كان فى زمنهم لقال بما قالوا به ، أخذاً من قواعد مذهبه (٢) .

ومن أمثلة ما تغيرت فيه الفتوى والحكم بتغير البيئات ، والأزمان ، والأحوال :

ما وقع من عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - إذ كان والياً على المدينة ، فكان يحكم للمدعى بدعواه ، إذا جاء بشاهد واحد ، وحلف اليمين ، فيعد

---

(١) أعلام الموقعين لابن القيم ، الجزء الثالث .

(٢) مجموعة رسائل ابن عابدين : ٢/١٢٥

يمين المدعى قائمة مقام الشاهد الثانى فلما ولى الخلافة ، وأقام فى عاصمة الدولة بالشام لم يحكم إلا بشهادة رجلين ، أو رجل وامرأتين فسئل فى ذلك فقال : لقد وجدنا أهل الشام على غير ما عليه أهل المدينة (١) .

وما فعله عمر فى الشام لا ينافى ما جاء عن النبى ﷺ أنه قضى بشاهد ويمين ، فإن قضاء النبى ﷺ بذلك يدل على جوازه ومشروعيته ، ولا يدل على الوجوب والإلزام ، فيجوز القضاء بالشاهد الواحد مع اليمين فى بعض الحالات ، وتركه فى حالات أخرى بناء على اعتبارات صحيحة ، كما فعل عمر بن عبد العزيز .

كما أنه من المجازفة - وقد صح حديث الشاهد مع اليمين - أن يرد الحديث رداً مطلقاً ، ويمنع العمل به فى أى حال من الأحوال .



(١) انظر : أصول التشريع للأستاذ على حسب الله ، ص ٨٤ ، ٨٥ ، وراجع فصل اختلاف الفتوى باختلاف الأزمنة والأمكنة فى أعلام الموقعين : ٣/٢٧ وما بعدها .

الباب الرابع

أهداف الإسلام

١ - بناء الإنسان الصالح .
٢ - بناء الأسرة الصالحة .
٣ - بناء المجتمع الصالح .
٤ - بناء الأمة الصالحة .
٥ - بناء الدولة الصالحة .
٦ - الدعوة إلى خير الإنسانية .

بناء الإنسان الصالح

أول ما يهدف إليه الإسلام هو بناء « الإنسان الصالح » الجدير بأن يكون خليفة الله فى الأرض ، والذى كرمه الله أفضل تكريم ، وخلقه فى أحسن تقويم ، وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً ، فهو إنسان اكتملت فيه خصائص الإنسانية ، وارتفع عن حضيض الحيوانية البهيمية أو السُبعية ، وهذا الإنسان الصالح هو أساس الأسرة الصالحة ، والمجتمع الصالح ، والأمة الصالحة .

● إنسان إيمان وعقيدة :

وإنسان الإسلام هو – قبل أى اعتبار – إنسان إيمان وعقيدة ، قد اتضحت فكرته عن نفسه ، وعن العالم من حوله ، فهو ليس نباتاً (شيطانياً) كنبات البرية ، ظهر وحده من غير زارع زرعه ، ولا الكون من حوله برز وحده من غير خالق خلقه ومدبر دبره ، بل هو يؤمن أن له ربا خلقه فسواه فعدله ، وعلمه البيان ، ومنحه العقل والإرادة ، وأرسل إليه الرُّسُل ، وأنزل له الكتب ، وأقام عليه الحجة ، وعرفه الغاية ، والطريق .

كما أن هذا العالم البديع وراءه خالق عظيم ، خلق كل شىء فقدره تقديراً ، وأعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، ولكن الذى خلقه سيفنيه ، ويبدل به عالماً آخر ، هو عالم الخلود ، فيه توفى كل نفس ما كسبت ، وتجزى بما عملت ، وهم لا يظلمون .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطلاً ، ذَلكَ ظَنُّ الَّذينَ كَفَرُوا ، فَوَيْلٌ لِّلَّذينَ كَفَرُوا منَ النَّار * أَمْ نَجْعَلُ الَّذينَ آمَنُوا وَعَملُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِى الأَرْضِ ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالفُجَّارِ ﴾ ؟ (١) .

---

(١) سورة ص : ٢٧ ، ٢٨

﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ، مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللهِ وَلِياً وَلاَ نَصِيراً * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً ﴾ (١) .

وبهذا عاش الإنسان المسلم مؤمناً بالله تعالى ، مؤمناً برسالاته ، بجميع كتبه ورُسُله ، وآخرها رسالة محمد ﷺ ، مؤمناً بلقائه تعالى وحسابه وعدالة جزائه ، في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، ﴿ يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً * وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ، وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً وَلاَ هَضْماً ﴾ (٢) .

إن هذا الإيمان هو أول ما يميز الإنسان المسلم ، فهو مؤمن بعقيدة جوهرها التوحيد ، ومعنى التوحيد : أنه لا خالق إلا الله ، ولا معبود إلا الله ، فهو يعني توحيد الربوبية ، وتوحيد الإلهية ، ولا يغني أحدهما عن الآخر ، فقد كان مشركو العرب يؤمنون بأن الله هو وحده خالق السموات والأرض ، كما حكى عنهم القرآن : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّن خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ ﴾ (٣) .

ومع هذا الإقرار بتوحيد الربوبية ، رأيناهم يعبدون مع الله ألهة أخرى ، بغير سلطان ولا برهان ، إلا دعاوى فارغة ، مثل قولهم : ﴿ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ ﴾ (٤) .

﴿ وَمَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَىٰ ﴾ (٥) .

والإسلام جاء دعوة تحريرية كبرى ، لتحرير الإنسان من كل عبودية لغير

---

(١) النساء : ٢٣ ، ٢٤ (٢) طه : ١٠٩ - ١١٢ (٣) العنكبوت : ٦١
(٤) يونس : ١٨ (٥) الزمر : ٣

الله تعالى : من عبوديته للطبيعة ، وللأشياء ، فى الأرض كانت أو فى السماء ، ومن عبوديته للحيوان ، ومن عبوديته للشيطان ، ومن عبوديته للإنسان ، سواء كان ملكاً أم كاهناً ، بل من عبوديته لنفسه وهواه ، فلا يعبد إلا الله ، ولا يشرك به شيئاً . ولهذا كان يبعث النبى ﷺ برسائله إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام ويختم رسائله إليهم بهذه الآية الكريمة : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ : أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ ، وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللهِ ﴾ (١) .



● إنسان نسك وعبادة :

وإنسان الإسلام كذلك ، إنسان نسك وعبادة ، فهو يعلم أن الكون من حوله خلق له ، أما هو فخلق لله وحده ، وبهذا أدرك غاية حياته ، وسر وجوده .

فعبادة الله وحده لا شريك له ، هى غاية غاياته ، فلها خلق ، ومن أجلها سخر له ما فى السموات وما فى الأرض . يقول الله تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (٢) .

إن المخلوقات يخدم بعضها بعضاً - كل جنس يخدم ما كان أعلى منه مرتبة ، فالجماد يخدم النبات ، والنبات يخدم الحيوان ، والحيوان يخدم الإنسان ، فمن يخدم الإنسان ؟

الإنسان لم يخلق إلا لخدمة ربه وبارئه ، أى لعبادته ، وعبادته وحده ، دون إشراك أحد أو شىء من خلقه فى الأرض ، أو فى السماء .

---

(١) آل عمران : ٦٤ (٢) الذاريات : ٥٦ - ٥٨

بهذا بعث الله الرُّسُل على مختلف العصور والأزمان : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ (١) .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ : أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (٢) .

ومن هنا يحب الإنسان المسلم متعبداً لله تعالى ، مؤتمراً بأمره ، منتهياً عما نهى عنه ، جاعلاً خشيته وتقواه نصب عينه : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٣) .

وتتمثل العبادة أول ما تتمثل فى إقامة الشعائر الكبرى التى فرضها الإسلام وجعلها من أركانه العظام ، من الصلاة والصيام والزكاة والحج ، ثم ما يكملها من الذكر والدعاء وتلاوة القرآن ، والتسبيح والتهليل والتكبير .

فالمسلم يذكر ربه فى كل حين ، وعلى أية حال ، فى أكله وشربه ، وعند نومه وعند يقظته ، وفى إصباحه وإمسائه ، ولدى مدخله ومخرجه ، ويوم سفره وأوبته ، وعند لبسه ثوبه ، أو ركوبه ، مركبته ، حتى عند ممارسته الغريزية مع أهله لا ينسى فى هذه المواقف وغيرها أن يذكر الله تعالى شأن أولى الألباب : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ﴾ (٤) .

وإذا كان أكثر اتباع الأديان لا يعبدون ربهم إلا مرة فى كل أسبوع ، فإن المسلم على موعد مع الله كل يوم خمس مرات ، فى صلواته المفروضة ، ثم هو مع الله دائماً بالنوافل والذكر والدعاء والاستغفار : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ (٥) .

على أن المسلم يستطيع أن يجعل حياته كلها عبادة إذا التزم منهج الله ، وقصد بعمله – حتى الدنيوى – وجه الله تعالى .



---

(١) النحل : ٣٦ (٢) الأنبياء : ٢٥ (٣) المائدة : ٢٧
(٤) آل عمران : ١٩١ (٥) الأحزاب : ٤١ ، ٤٢

• إنسان خلق وفضيلة :

والإنسان المسلم - إلى جوار كونه إنسان إيمان وعقيدة ، وإنسان نسك وعبادة - هو أيضاً إنسان خلق وفضيلة ، تتجسم فيه الطهارة بكل معانيها ، وتتمثل فيه فضائل العدل والرحمة والإيثار ، قد اتخذ من رسول الله (أسوة حسنة) وقد بعثه الله (ليتمم مكارم الأخلاق) ، ووصفه بأنه (على خلق عظيم) ، فهو يقتبس من نوره ويهتدى بهداه ، ويتخلق بخلقه ، ليكون أقرب إليه يوم القيامة . فهو إنسان قد انتصر على نوازعه وشهواته ، حين زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والمراقبة ، حتى انتقلت من (النفس الأمارة بالسوء) إلى (النفس اللوامة) ، وبهذا استحقت (الفلاح) حين انتصرت فيها التقوى على الفجور ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ (١) .

لقد علمنا الإسلام أن الخلق والفضيلة من لوازم العقيدة ، وتمام الإيمان ، كما أنهما ثمرة لازمة للعبادة الحقة ، وإذا لم تثمر العبادة فى الخلق والسلوك دل ذلك على أنها عبادة مدخولة .

والقرآن الكريم يحدثنا عن الإيمان مجسداً فى أخلاق وفضائل ، كما فى قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِى صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ .... وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ .... ﴾ (٢) .

والرسول الكريم يحدثنا عن الإيمان كذلك فى صورة أخلاق وأعمال وفضائل ، كما فى قوله صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليصل رحمه ، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » .

---

(١) الشمس : ٧ - ١٠ (٢) المؤمنون : ١ - ٨

« الإيمان بضع وسبعون شعبة ، أعلاها : لا إله إلا الله ، وأدناها : إماطة الأذى من الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » .

وقد ألف الإمام البيهقى كتاباً كبيراً سماه « الجامع لشعب الإيمان » .

يشمل كل الفضائل وأعمال الخير التى دعا إليها الإسلام ، واعتبرها كلها من شعب الإيمان ، كما دل على ذلك الحديث .

والعبادات الشعائرية المفروضة من شأنها أن تثمر زكاة النفس ، بالفضائل ، وطهارتها من الرذائل ، كما أشار إلى ذلك القرآن ، إذ يقول فى شأن الصلاة : ﴿ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنْكَرِ ﴾ (١) ، وفى شأن الزكاة : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ (٢) ، وفى شأن الصيام : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٣) .

وفى الحديث عند البخارى : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » .

« رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع ، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر » .

وخلق المسلم لا يتجزأ ، فهو ليس كخلق اليهودى الذى يحرم الربا فى تعامله مع مثله ، ويستحله فى تعامله مع الآخرين ، وليس كخلق إنسان الغرب الاستعمارى الذى يتعامل داخل أوطانه بأخلاق وفضائل مثالية ، فإذا تعامل مع البلاد الأخرى سرق وظلم ، وطغى واستكبر .

المسلم يعدل مع من يحب ومن يكره ، مع القريب الأقرب ، ومع العدو الأبعد ، ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾ (٤) .

---

(١) العنكبوت : ٤٥ — (٢) التوبة : ١٠٣

(٣) البقرة : ١٨٣ — (٤) النساء : ١٣٥

﴿ ولاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ ﴾ (١) .



● إنسان شريعة ومنهج :

والمسلم - فضلاً عن التزامه بالخلق والفضيلة - هو ملتزم كذلك بمنهج ربانى ، بشريعة محكمة ، مفروضة عليه من ربه ، أحلت له الحلال ، وحرمت عليه الحرام ، وحددت له الواجبات ، وبينت له الحقوق ، وفصلت له كل ما يحتاج إليه ، فلم تدعه هملاً ، ولم تتركه نهباً للفلسفات والأنظمة البشرية المتضاربة ، تميل به عن يمين وشمال ، بل رسمت له (الصراط المستقيم) وألزمته بالسير فيه ، مراعية ما يعرض له من أعذار ، فشرعت له الرخص ويسرت عليه الأمر ، ومقدرة ما يطرأ عليه من ضرورات ، فأباحت له بعض ما حظرت عليه بقدر ما توجب الضرورة وحجمها وزمنها ، من غير بغى ولا عدوان ، كما قال تعالى فى شأن الأطعمة المحرمة : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) .

المسلم مقيد فى حياته كلها بما أحل الله له ، فهو ليس (سائباً) يفعل (ما يشتهى) ، بل هو منضبط بفعل (ما ينبغى) .

فإذا أخذنا الأكل مثلاً ، فهو لا يأكل الميتة ولا الدم ولا لحم الخنزير ، ولا يأكل من اللحم إلا ما ذبح ذبحاً شرعياً ، أما ما لم يذبح ، أو (ذبح على النصب) أو(أهل لغير الله به) فلا يحل للمسلم أكله .

وكذلك لا يحل له أن يأكل طعاماً غصب من صاحبه الشرعى ، أو سرق أو أخذ بالباطل ، كما لا يحل له أن يأكل طعام امرىء بغير طيب نفس منه .

والوعيد فى ذلك شديد ، فكل جسد نبت من سحت ، فالنار أولى به .

---

(١) المائدة : ٨ (٣) البقرة : ١٧٣

وكذلك لا يحل للمسلم أن يتناول أى طعام أو أى مادة يضره تناولها : لأنه ليس ملك نفسه ، والإضرار بنفسه حرام ، لأنه قتل بطيء لها ، والله تعالى يقول : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ، إِنَّ اللهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴾ (١) .

والرسول يقول : « لا ضرر ولا ضرار » أى لا تضروا أنفسكم ، ولا تضاروا غيركم .

ومن هنا كان تناول (التبغ) وملحقاته ، بعد أن ثبت ضرره علماً وطباً وواقعاً - حراماً بلا شك ، ومن باب أولى : المخدرات التى هى بمنزلة السموم ، فالتحريم فى الإسلام يتبع الخبث والضرر : ﴿ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ (٢) .

كما أن المسلم لا يشرب الخمر ، حفاظاً على عقله وجسمه وخلقه ، ويعتبرها أم الخبائث ورجساً من عمل الشطان ، وكبيرة منافية للإيمان ، كما فى الحديث الصحيح : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » .

وحتى المأكل الحلال ، والمشرب الحلال ، لا يتناوله المسلم فى آنية ذهب ولا فضة ، فإن الذى يأكل أو يشرب فى آنية الذهب ، أو الفضة ، إنما يجرجر فى بطنه نار جهنم ، كما صح بذلك الحديث .

وهو حين يأكل أو يشرب ما يحل له ، لا يتجاوز الحد المناسب ، فيدخل فى دائرة الإسراف المحرم ، كما قال تعالى : ﴿ يَا بَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٣) .

والمسلم فى علاقاته الأسرية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية مقيد بأحكام الشريعة الإلهية ، فهو يتزوج أو يطلق ، ويبيع ويشترى ، ويستأجر ويؤجر ويكتسب وينفق ، ويتملك ويهب ، ويرث ويورث ، ويحكم ويحتكم ،

---

(١) النساء : ٢٩ (٢) الأعراف : ١٥٧ (٣) الأعراف : ٣١

ويسالم ويحارب ، وفقاً لأوامر الشريعة ونواهيها ، واقتضائها وتخييرها : « فما أحل الله فهو حلال ، وما حرم فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عفو » .



● **إنسان دعوة وجهاد :**

والإنسان المسلم فوق ذلك : إنسان دعوة وجهاد ، أعنى أنه لا يقف عند صلاح نفسه ، بل يبذل جهده لإصلاح غيره ، ودعوة الآخرين إلى ما هداه الله إليه .

ومن هنا وجدنا سورة العصر – على وجازتها – تشترط لنجاة الإنسان من خسر الدنيا والآخرة – إلى جوار الإيمان وعمل الصالحات – التواصى بالحق والتواصى بالصبر : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (١) .

ومعنى التواصى هنا : أن يوصى غيره بالحق ويدعوه إليه ، وأن يتقبل من غيره الوصية بالحق كذلك ، فكل مسلم موصٍ ، وموصى بالحق فى الوقت ذاته ، وهذا هو معنى التواصى .

فالمسلم بطبيعته داعية ، لأنه يوقن أن رسالته للعالم كله ، وللزمن كله ، وللحياة كلها ، فهو يسعى لمد شعاعها ، وتعميم رحمتها على العالم : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٢) .

وكما أن محمداً ﷺ بعث رحمة للعالمين ، كما علمنا القرآن ، وكما قال عن نفسه : « إنما أنا رحمة مهداة » ، فأمته مبعوثة كذلك بما بعثه الله به ، وكل من اتبعه فهو داعية إلى الله ، مقتدياً به ، كما قال تعالى مخاطباً له : ﴿ قُلْ : هَذِهِ سَبِيلِى أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ، أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِى ﴾ (٣) ،

---

(١) العصر : ١ – ٣ (٢) الأنبياء : ١٠٧ (٣) يوسف : ١٠٨

فكل من اتبعه عليه الصلاة والسلام فهو داع إلى الله على بصيرة ، أو هكذا يجب أن يكون .

وهكذا قال الصحابى ربعى بن عامر لرستم قائد الفرس : إن الله (ابتعثنا) لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

والمسلم يبدأ دعوته فى محيطه الخاص أولاً ، أى فى أهله وأولاده وأسرته ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ (١) ، ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ، لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً ، نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ (٢) .

ثم يمتد بدعوته فى المجتمع من حوله ، داعياً إلى الخير ، محذراً من الشر آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، فلا يجوز له أن يقف موقف المتفرج ، أو غير المبالى ، من شيوع المنكر ، أو ضياع المعروف ، بل لا بد أن يتقدم ليغيّر المنكر إن استطاع بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان .

ولا يفهم من (التغيير بالقلب) هنا : أنه (موقف سلبى) بل هو (غليان من الداخل) فى مواجهة منكر غالب وراءه قوى ظالمة تسنده وتحميه . وهذا الغليان لا بد أن يتجسد يوماً فى عمل إيجابى له أهميته فى تغيير المجتمع .

المهم ألا يتخذ المنكر صفة الشرعية بطول السكوت عنه ، فهذا هو الذى يجلب لعنة الله على المجتمعات ، ويحل بها سخطه ونقمته : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٣) .

---

(١) التحريم : ٦ (٢) طه : ١٣٢ (٣) المائدة : ٧٨ ، ٧٩

حتى لو كان الذين يقترفون المنكر ، أو يحمونه ، من أولى الأمر ، وأصحاب الشأن ، ينبغى للمسلم ألا يضعف فى مواجهتهم بالأمر والنهى ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، مستنداً إلى قوة الحق الذى معه ، وإلى اليقين بأن رزقه بيد الله لا يملك أحد أن ينقصه ، وإن أجله عند الله مسمى ، لا يستأخر عنه ساعة ولا يستقدم .

وهذا هو الجهاد الداخلى الذى اعتبره النبى العظيم فى القمة من أنواع الجهاد حين سئل عن أفضل الجهاد ، فقال : « كلمة حق عند سلطان جائر » .

وقال فى الحديث الذى رواه ابن مسعود : « ما من نبى بعثه الله قبلى إلا كان له حواريون » .

ولا يقف المسلم عند حد الجهاد الداخلى بالدعوة والأمر والنهى ، بل هو يجاهد بلسانه ، ونفسه وماله ، لتصل كلمة الله إلى الناس كافة ، كما جاء فى الحديث : « جاهدوا المشركين بأيديكم ، وألسنتكم وأموالكم » (١) .

واعتبر القرآن الكريم الجهاد بتبليغ الدعوة من الجهاد الكبير ، حين قال لرسوله : ﴿ فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ - أى بالقرآن - جِهَاداً كَبِيراً ﴾ (٢) .

وهذه الآية مكية ، أى قبل أن يشرع القتال فى المدينة بسنوات .

وإذا كانت الأديان الأرضية ، والأديان السماوية المحرفة ، تسعى لنشر دعوتها فى العالم ، فأولى بدين الله الخالد والخاتم أن يجد من ينشره فى الآفاق حتى يتحقق وعد الله : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ (٣) ، ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (٤) .



(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائى وابن حبان والحاكم عن أنس ، صحيح الجامع الصغير : ٣٠٩٠

(٢) الفرقان : ٥٢ (٣) الصف : ٩ (٤) فصلت : ٥٣

● **إنسان عقل وعلم :**

وإذا كان إنسان الإسلام إنسان إيمان وعقيدة ، فهو - فى الوقت نفسه - إنسان عقل وعلم ، إذ لا تعارض فى الإسلام بين الإيمان والعقل ، ولا بين الدين والعلم .

الإيمان الإسلامى لا يقول للمسلم ما تقوله أديان أخرى : اعتقد وأنت أعمى ! بل يدعوه أن يكون على (بينة من ربه) وأن يؤسس عقيدته على (اليقين) لا على (الظن) وأن يعتمد على (البرهان) لا على (التقليد) .

والقرآن ينادى أصحاب الملل والنحل المختلفة بقوله : ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إن كُنتُمْ صَادقِينَ ﴾ (١) ، ﴿ قُلْ : هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ؟ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ ، وَإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ ﴾ (٢) .

ويدمغ القرآن المشركين بقوله : ﴿ إنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ ، وَإِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِى مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾ (٣) .

وكما أنكر القرآن اتباع الظن فى الموضع الذى يتطلب اليقين ، أنكر كذلك اتباع الهوى والعواطف فى مقام يوجب الموضوعية الخالصة . فقال تعالى عن عباد الأصنام : ﴿ إن يَتَّبِعُونَ إلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ ، وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾ (٤) .

وإلى جوار ذلك شن حملة شديدة العنف على التقليد الأعمى للآخرين ، الذى يجعل الإنسان يلغى عقله ، ويفكر بعقل غيره ، سواء كان هذا الغير يتمثل فى الآباء والأجداد المعظمين عنده ، أو فى السادة والكبراء ذوى النفوذ والسلطان الذى قد يبلغ درجة التأله فى الأرض ، أو فى جمهور الناس وغوغائهم الذين اختلت موازينهم .

وفى نقد التقليد للآباء جاءت آيات كثيرة ، منها فى القرآن المكى قوله

---

(١) النمل : ٦٤

(٢) الأنعام : ١٤٨

(٣) النجم : ٢٨

(٤) النجم : ٢٣

تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ﴾ ؟! (١) .

وفى القرآن المدنى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا : حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ ؟! (٢) .

وفى نقد التقليد للكبراء والسادة ، تقرأ فى القرآن المكى ، وهو يصور بعض مشاهد الآخرة ومواقف المعذبين فى الجحيم بعضهم من بعض : الأتباع والمتبوعين ، الأذناب والرؤوس : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ : رَبَّنَا هَؤُلاء أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ ، قَالَ : لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لاَّ تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولاَهُمْ لِأُخْرَاهُمْ : فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ (١) .

وهذا التلاوم تكرر كثيراً فى السور المكية .

وفى القرآن المدنى نقرأ قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ، وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا : لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا ، كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ، وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ (٤) .

وفى نقد التقليد للعامة ، والاندفاع وراء الجمهور ، ولو كانوا على باطل ، جاء الحديث النبوى يحذر من هذه التبعية فيقول : « لا يكن أحدكم إمعه ،

---

(١) الزخرف : ٢٣ - ٢٤ (٢) المائدة : ١٠٤

(٣) الأعراف : ٣٨ ، ٣٩ (٤) البقرة : ١٦٦ ، ١٦٧

فيقول : أنا مع الناس إن أحسنوا أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا ألا تظلموا » رواه الترمذى وحسنه .

ومن ناحية أخرى يحث القرآن بأبلغ الأساليب على النظر والتفكير والتدبر ، سواء فى آيات الله الكونية المنظورة ، أم فى آياته التنزيلية المقروءة والمسموعة ، وبعبارة أخرى فى المصحف الصامت وهو الكون ! والمصحف الناطق وهو القرآن .

اقرأ إن شئت هذه الآيات : ﴿ قُلِ : انْظُرُوا مَاذَا فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (١) .

﴿ أَوَ لَمْ يَنظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَىْءٍ ﴾ (٢) .

﴿ وَفِى الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِى أَنفُسِكُمْ ، أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ ؟ (٣)

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (٤) .

﴿ قُلْ : إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ : أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ، ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ (٥) .

- ومعنى قيامهم لله أن يتجردوا من الأهواء ، ويبحثوا عن الحقيقة مخلصين .

وإنما قال : « مثنى وفرادى » ليكونوا بمنأى عن تأثير العقل الجمعى وإيحاءاته ، وإنما يفكر المرء مع رفيقه بهدوء ، أو مع نفسه حين يخلو إليها كأنها رفيق يناجيه .

---

(١) يونس : ١٠١ (٢) الأعراف : ١٨٥ (٣) الذاريات : ٢٠ ، ٢١
(٤) فصلت : ٥٣ (٥) سبأ : ٤٦

ويقول تعالى : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً ﴾ (١) .

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ، وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾ (٢) .

والقرآن هو الكتاب المقدس الوحيد الذى أمر بالنظر والتفكر والعقل والتدبر ، كما أمر بالعبادة والتنسك ، فلا غرو أن يعتبر التفكر « فريضة إسلامية » كما قال العقاد – رحمه الله – ، فهذا ما تنادى به الأدلة ، ولا غرو أن يعتبر إمام كالغزالى (التفكر) أحد (المنجيات العشرة) الكبرى فى كتابه الشهير « إحياء علوم الدين » ، وفيه يروى عن السلف : تفكر ساعة خير من قيام ليلة ، بل قال بعضهم : تفكر ساعة خير من عبادة سنة !

والعقل عند المسلمين ليس نقيضاً للوحى ، بل هو الدليل على صدقه ، ولهذا يعتبر المحققون من علماء المسلمين : أن العقل أساس النقل ، إذ لولا العقل ما عرفنا وجود الله تعالى ، ولا أقمنا الأدلة عليه ، وأبطلنا شبهات الدهريين والملاحدة . . ولولا العقل كذلك ما قام البرهان على إمكان الوحى ووقوعه ، وصدق الأنبياء والرسل ، وآخرهم محمد ﷺ .

ولكن للعقل مجالاً لا ينبغى أن يتجاوزه ، وإلا تاه فى أودية الضلال ، وهو مجال هذه المخلوقات وما أكثرها ، وأوسع مداها ، وأما ذات الله تعالى وما يتعلق بجلال شأنه فليس للعقل سلطان عليه ، والأولى له التسليم للوحى فيه ، والتلقى عنه ، بعد أن يثبت هو صحته ، فالعقل هو الذى يقيم الدليل على صدق الوحى ، ثم يعزل بعد ذلك نفسه – كما قال الغزالى – ويأخذ عنه ما لا يدخل فى اختصاصه من شئون الألوهية وعوالم الغيب ، وأحوال الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ، قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ، وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (٣) .

---

(١) النساء : ٨٢ (٢) سورة ص : ٢٩ (٣) الإسراء : ٨٥

وقد روى فى حديث : « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله فتهلكوا » .

وبهذا التسليم يوفر الإنسان طاقته العقلية للبحث فيما هو أجدى عليه وأليق به .

وعلى المسلم أن يطلب كل علم نافع من أهله ، فطلب العلم فريضة ، منه ما هو فريضة عينية ، ومنه ما هو فريضة كفائية على مجموع الأمة ، سواء كان علماً دينياً أم دنيوياً ، مما يحتاج إليه الفرد أو المجتمع .

وإنما العلم بالتعلم ، وقد منح الله الإنسان أدوات العلم ، فلا يجوز له أن يعطلها : ﴿ وَاللهُ أَخرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١) .

والقرآن يذم الكفار ، ويجعلهم حطب جهنم لتعطيلهم هذه الأدوات : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ (٢) .

وينهى القرآن عن اتباع ما ليس للإنسان دليل عليه : ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ (٣) .

ودليل الماديات هو الحس ، ولهذا أنكر القرآن على الذين زعموا الملائكة إناثاً بقوله : ﴿ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ﴾ ؟ (٤) .

ودليل العقليات هو الفكر : ﴿ قُلْ : هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٥) .

ودليل التاريخيات ونحوها هو النقل الصادق : ﴿ ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٦) .

---

(١) النحل : ٧٨ (٢) الأعراف : ١٧٩ (٣) الإسراء : ٣٦

(٤) الزخرف : ١٩ (٥) البقرة : ١١١ ، والنمل : ٦٤ (٦) الأحقاف : ٤

ودليل الغيبيات والشرعيات هو الوحى : ﴿ قُلْ : آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ ﴾ ؟ (١) ، ﴿ نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) .

وعلى هذه المبادىء أقام الإنسان المسلم حضارة شامخة جمعت بين العلم والإيمان ، وتركت آثارها فى حياة الإنسان علوماً ومعارف شتى ، سادت الدنيا قروناً من الزمان .



● إنسان عمارة وإنتاج :

والإنسان المسلم ليس راهباً فى دير ، بل هو إنسان عمل وإنتاج للحياة ، يعطيها كما يأخذ منها ، ويعد عمارتها هدفاً من أهداف خلق الإنسان واستخلافه فى الأرض ، كما قال تعالى على لسان صالح لقومه : ﴿ يَا قَوْمِ اعبُدُوا اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (٣) ، ومعنى (استعمركم) أى طلب إليكم عمارتها ، والأصل فى الطلب هو الوجوب ، لا تنافى العبادة ، بل هى - إذا استقامت على أمر الله ، وانضبطت بتعاليم شرعه - تصبح عبادة وقربة إلى الله تعالى ، كما سيأتى .

والله تعالى وهب الإنسان العقل ، وأهله بالعلم لمنصب الخلافة فى الأرض ، وفضله بذلك على الملائكة ، الذين لم يعلمهم ما علم آدم من الأسماء والخصائص ، وإنما آثره بذلك ليستخدم عقله وعلمه فى تعمير الأرض ، والانتفاع بما سخره الله فيها لمصلحته ، دون علو ولا إفساد .

وقد جعل الله الأرض للإنسان مهاداً وفراشاً ، وجعل له فيها مستقراً ومتاعاً إلى حين وبارك فيها وقدر فيها أقواتها ، وأودع فيها أسباب المعايش التى تحقق بقاء هذا النوع إلى ما شاء الله ، فما من دابة فى الأرض ، ولا طائر يطير بجناحيه إلا ورزقه موفور فى هذه المعمورة .

---

(١) يونس : ٥٩ (٢) الأنعام : ١٤٣ (٣) هود : ٦١

ولكن جرت سُنَّة الله ألا ينال رزقه إلا بكدح وسعى ، فمن جد وجد ، ومن زرع حصد .

يقول الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً ، فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا ، وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ (١) .

فمن مشى فى مناكب الأرض الذلول أكل من رزق الله ، ومن قعد وتقاعس - بلا عذر - كان جديراً ألا يأكل ، إلا أخذاً من حق غيره من المشاة العاملين .

والعبادات الشعائرية فى الإسلام لا تعطل المسلم عن العمل لدنياه ، فهى لا تحتاج إلى تفرغ ولا انقطاع ، بل هى دقائق معدودات لكل صلاة من الصلوات اليومية ، الموزعة على أوقات اليوم والليلة .

ويوم الجمعة الذى فرضت فيه صلاة أسبوعية على المسلم ، ليس يوم انقطاع عن العمل الدنيوى كيوم السبت عند اليهود ، بل هو يوم كسائر الأيام ، إن شاء المسلم عمل فيه ، وإن شاء استراح إن كان لا بد له أن يستريح .

والقرآن يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا إذَا نُودِىَ للصَّلاة مِنْ يَوْمِ الجُمُعَة فَاسْعَوْا إلَى ذكْرِ الله وَذَرُوا الْبَيْعَ ، ذَلكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانْتَشِرُوا فِى الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ الله ﴾ (٢) .

وبهذا نرى أن المسلم - كما يصوره القرآن - كان فى بيع وشراء وعمل قبل الصلاة حتى إذا سمع النداء ، توقف وسعى إلى ذكر الله ، فإذا انتهى من الصلاة عاد من جديد يواصل رحلة الكدح فى الحياة ، منتشراً فى الأرض مبتغياً من فضل الله .

و(الابتغاء من فضل الله) تعبير قرآنى متميز ، عن طلب الكسب من التجارة وغيرها ، وهو تعبير له إيحاؤه وتأثيره فى نفس المسلم .

---

(١) الملك : ١٥ (٢) الجمعة : ٩ ، ١٠

والقرآن يصف رواد المساجد ، العابدين لله تعالى بقوله : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ ، وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴾ (١) .

ليس هؤلاء العباد المخلصون رهباناً ولا دراويش ، بل هم رجال أعمال وأموال ، ولكن لم تلههم دنياهم عن آخرتهم ، ولم يشغلهم حظ أنفسهم عن حق ربهم .

والمسلم مطالب أن يعمل لدنياه ، بما تيسر له من فروع الإنتاج ، زراعة أو صناعة أو تجارة ، أو رعياً أو صيداً ، أو استخراجاً لما فى الأرض ، أو غير ذلك ، مما تحتاج إليه الجماعة .

وفى الحديث الصحيح : « ما من مسلم يغرس غرساً ، أو يزرع زرعاً ، فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة إلا كان له به صدقة » متفق عليه .

بل جاء فى حديث آخر : « إن قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها » رواه أحمد والبخارى فى الأدب المفرد .

ومعنى هذا أن المسلم مطالب بالعمل للحياة إلى أن تلفظ آخر أنفاسها ، سواء انتفع بعمله أحد أم لم ينتفع ، إنما هو مطالب بالعمل لذات العمل ، فهو عبادة ، وجهاد مقدس .

وجاء فى حديث البخارى : « ما أكل أحد قط طعاماً أفضل من أن يأكل من عمل يده ، وأن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده » رواه البخارى .

وفى حديث آخر : « التاجر الصدوق يحشر مع الشهداء » .

ولهذا اختلف الفقهاء والشراح : أى هذه الأعمال أفضل وأبر عند الله تعالى : الزراعة أم الصناعة أم التجارة ؟

---

(١) النور : ٣٦ - ٣٧

والذى رجحوه أن الأفضل منها ما اشتدت حاجة الناس إليه ، وانشغل الناس عنه . . . . فإذا انصرف الناس عن الزراعة إلى الصناعة أو التجارة ، لكثرة مكاسبهم بها ، مع مسيس حاجتهم إلى الأقوات والثمار ، كانت الزراعة أفضل وأعظم مثوبة عند الله .

وإذا انصرف الناس عن الصناعات والحرف ، وأصبحوا فيها عالة على غيرهم من غير المسلمين ، كان العمل فى هذا الميدان أولى وأعظم أجراً .

وإذا احتاج الناس إلى التجارة ، لانقطاع الطرق ، أو لوجود مخاطر شديدة ، أو لقلة المكاسب بها ، أو لغلبة بعض الأفراد أو الفئات على الأسواق ، وتلاعبهم بالأسعار واحتكارهم للسلع والأقوات ، تكون التجارة هنا أفضل .



بناء الأسرة الصالحة

كما هدف الإسلام إلى تكوين الفرد أو الإنسان الصالح ، بوصفه اللبنة الأساسية فى البنيان الاجتماعى للأمة ، هدف كذلك إلى بناء الأسرة الصالحة ، التى هى الخلية الأولى والضرورية لقيام المجتمع الصالح .

ولا خلاف أن الزواج - الذى يربط بين الرجل والمرأة برباط مقدس - هو أساس تكوين الأسرة المنشودة ، فلا مكان لقيام أسرة صالحة ، أو أسرة حقيقية بغير الزواج ؛ كما شرعه الله تعالى .

● أفكار منحرفة عارضت الزواج :

عرفت الإنسانية فى القديم والحديث أفكاراً ومذاهب تعارض فكرة الزواج .

ففى فارس ظهرت قبل الإسلام فلسفة « مانى » الذى يزعم أن العالم ملىء بالشر ، ويجب فناؤه ، ومنع الزواج أقرب وسيلة إلى المسارعة بفناء العالم .

وفى ظل النصرانية ظهرت « الرهبانية » العنيفة ، التى تفرّ من الحياة ، وتلجأ إلى الأديرة ، وتحرم الزواج ؛ لأن المرأة فتنة مجسمة ، وشيطان فى صورة إنسان ، والقرب منها خطيئة تلوث الأرواح ، وتبعد عن ملكوت السماء .

وفى العصر الحديث وجد فى الغرب فلاسفة متشائمون ، صبوا جل سخطهم على المرأة ، وقالوا : إنها حية تسعى لين مسها ، قاتل سمها ، والزواج يعطيها فرصة لتتحكم فى الرجل ، وتثقله بالقيود والتكاليف ، فلماذا يضع الرجل - باختياره - الغُلّ فى عنقه ، وقد خلق حراً ؟

ومن المؤسف أن بعض شبابنا « العصريين » غرتهم هذه الأفكار ، فأعرضوا عن الزواج ، لما وراءه من مسئوليات وتكاليف وقيود ، وهم يريدون أن

يعيشوا العمر كله أطفالاً يعبثون ، لا يحملون عبئاً ، ولا يتحملون تبعة ، فإن غلبتهم الشهوة ، ونادتهم الغريزة ، ففى مباءات الحرام الخبيث ، ما يغنيهم عن طيب الحلال .



● الإسلام يرغب فى الزواج :

أما الإسلام فقد رفض تلك الأفكار المنحرفة ، والمذاهب المتشائمة ، ولم يقبل الرسول ﷺ الرهبانية فى الإسلام ، ونهى عن التبتل (الانقطاع عن الزواج للعبادة) ووجه نداءه إلى الشباب يحثهم على الزواج : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج » [1] .

وكان صلى الله عليه وسلم إذا علم من بعض أصحابه نزوعاً إلى التبتل ، وإغراقاً فى التزهد والتعبد ، نهاهم عن الغلو ، وأمرهم بالقصد ، وردهم إلى صراط الإسلام المستقيم ، وحُكْمه الوسط العدل .

روى الشيخان عن أنس قال : « جاء رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادة النبى ﷺ فلما أخبروا (أخبرتهم زوجاته) كأنهم تقالّوها (اعتبروها قليله) فقالوا : وأين نحن من النبى - صلى الله عليه وسلم - ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . .

قال أحدهم : أما أنا فإنى أصلى الليل أبداً .

وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر .

وقال آخر : أنا أعتزل النساء ، فلا أتزوج أبداً .

فجاء رسول الله - صلّى الله عليه وسلم - فقال : « أنتم الذين قلتم كذا

---

(١) رواه البخارى فى كتاب الصوم وفى كتاب النكاح عن ابن مسعود .

وكذا ؟ . . أما والله إنى لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، ولكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » [1] .



● مقاصد الإسلام من الزواج :

(أ) سُنَّة الله فى هذا الكون أن لا شىء فيه يستطيع أن يؤدى مهمته وحده ، بل خلقه الله محتاجاً إلى الاتصال بغيره من نوعه ليكمل به ويكمله ، فلا بد أن يتصل الموجب بالسالب فى عالم الكهرباء حتى يحدث التيار ، وآثاره من الضوء والحرارة والحركة وغيرها ، وكذلك لا بد أن يتصل الألكترون بالبريتون فى عالم الذرة .

ولا بد من اتصال حبوب التذكير بحبوب التأنيث فى عالم النبات حتى ينتج الزرع والشجر ، ويخرج الحب والثمر ، ولا بد من اتصال الذكر بالأنثى فى عالم الحيوان حتى يحدث الدر والنسل .

وإلى هذه السُّنَّة الكونية العامة أشار القرآن الكريم ، فقال تعالى :

﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [2] .

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [3] .

واستجابة لهذه السُّنَّة شرع الله سبحانه فى عالمنا الإنسانى لوناً رفيعاً كريماً من الاتصال بين الرجل والمرأة يليق بمكانة الإنسان وكرامته ، وهو ما نسميه « الزواج » .

لقد أودع الله صدر الرجل حنيناً إلى المرأة وأودع صدر المرأة حنيناً إلى الرجل ، فلا يزال كل منهما يحس بحاجة تناديه فوق المأكل والمشرب ، يشعر

---

(١) متفق عليه ، كما فى اللؤلؤ والمرجان (٨٨٥) .
(٢) الذاريات : ٤٩
(٣) يس : ٣٦

بفراغ فى كيانه النفسى لا يملؤه إلا هذا اللقاء على شرع الله وسُنَّته « الزواج » فيستقر بعد اضطراب ، ويطمئن بعد قلق ، ويجد كلاهما فى صاحبه السكون والمودة والرحمة ، تغمر جوانحه ، وتضيء جوانب حياته ، وهذه آية من آيات الله الكبرى فى هذا الوجود ، لفتنا إليه الكتاب العزيز : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١) .

(ب) وبالزواج يحدث النسل ، الذى يمتد به وجود الإنسان ، فيطول عمره ، ويتصل عمله ، بذريته الصالحة من بعده ، ولهذا امتن الله على عباده فقال : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ (٢) .

ولهذا دعا نبى الله زكريا ربه فقال : ﴿ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ (٣) .

﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِياً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِياً ﴾ (٤) .

ودعا أبو الأنبياء إبراهيم ربه فقال :

﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ ﴾ (٥) .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ (٦) .

وذكر القرآن من أوصاف عباد الرحمن :

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ (٧) .

---

(١) الروم : ٢١ (٢) النحل : ٧٢ (٣) الأنبياء : ٨٩
(٤) مريم : ٥ ، ٦ (٥) الصافات : ١٠٠ ، ١٠١ (٦) إبراهيم : ٢٩
(٧) الفرقان : ٧٤

وبالنسل تنمو الأمة ، ويكثر عددها ، فتعمر أرضها وتستغل كل طاقاتها ، وتقوى على مجابهة أعدائها ، ولا شك أن لكثرة العدد قيمة فى ميزان القوى العالمية . ومن هنا امتن الله على قوم بالكثرة ، فقال على لسان شعيب لقومه : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ ﴾ (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « تزوجوا ، فإنى مكاثر بكم الأمم ، ولا تكونوا كرهبانية النصارى » (٢) .

وبالنسل يبقى النوع الإنسانى كله ، وتستمر حياته على الأرض إلى ما شاء الله من أجل معلوم .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ (٣) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ (٤) .

(جـ) والزواج · من جهة ثالثة – تمام الدين للمرء المسلم ، به يغض بصره ، ويعف نفسه ، ويجد متنفساً لشهوته فى الحلال ، فلا يفكر فى الحرام ، ولهذا قال – صلى الله عليه وسلم – عن الزواج : « أنه أغض للبصر وأحصن للفرج » .

وقال : « من رزقه الله امرأة صالحة ، فقد أعانه على شطر دينه ، فليتق الله فى الشطر الباقى » (٥) .

والشطر : النصف .

---

(١) الأعراف : ٨٦

(٢) رواه البيهقى فى السنن عن أبى أمامة ، وذكره فى صحيح الجامع الصغير (٢٩٤١) . (٣) النساء : ١ (٤) الحجرات : ١٢

(٥) قال المنذرى فى الترغيب : رواه الطبرانى فى الأوسط ، والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد . أقول : ووافقه الذهبى : ٢/١٦١

(د) والزواج ليس حفظاً للدين فحسب ، ولكنه أيضاً من مقومات السعادة الدنيوية ، التى لا يكرهها الإسلام ، بل يحبها لأتباعه ، ويوفرها لأبنائه ، ليفرغهم لما هو أعظم ، من السمو بالنفس ، والاتصال بالملأ الأعلى قال - صلى الله عليه وسلم - : « الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة » (١) .

وقال : « أربع من السعادة : المرأة الصالح ، والمسكن الواسع ، والجار الصالح ، والمركب الهنئ » (٢) .

وعن سعد بن أبى وقاص قال : قال رسول الله ﷺ : « من سعادة ابن آدم : ثلاثة ، ومن شقاوة ابن آدم ثلاثة ؛ من سعادة ابن آدم : المرأة الصالحة ، والمسكن الصالح ، والمركب الصالح ؛ ومن شقاوة ابن آدم : المرأة السوء ، والمسكن السوء ، والمركب السوء » (٣) .

(هـ) والزواج هو الطريق الوحيد لتكوين الأسرة التى هى نواة المجتمع ، وأساس بنائه ، ولا يقوم مجتمع إنسانى كريم ، إلا إذا قامت قبله الأسرة ، ففى ظلال الأمومة والأبوة ، والبنوة والأخوة ، تغرس المشاعر الطيبة والعواطف الخيرة من المحبة والإيثار والعطف والرحمة والتعاون .

(و) وبالزواج تنمو الصلات الاجتماعية ، فيضم الإنسان عشيرة إلى عشيرته ، وأسرة إلى أسرته ، أولئك هم أصهاره وأخوال أولاده وخالاتهم . وبذلك تتسع دائرة الألفة والمودة ، والترابط الاجتماعى ، فقد جعل الله المصاهرة لحمة كلحمة النسب ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً ، وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً ﴾ (٤) .

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه عن عبد الله بن عمرو .

(٢) رواه الحاكم وأبو نعيم فى الحلية والبيهى فى شعب الإيمان عن سعد ، وذكره فى صحيح الجامع الصغير (٨٨٧) .

(٣) قال الهيثمى : رواه أحمد والبزار والطبرانى فى الكبير والأوسط ، ورجال أحمد رجال الصحيح : ٤/ ٢٧٢ .

(٤) الفرقان : ٥٤

(ز) وبالزواج تتاح الفرصة الملائمة التى تكتمل بها شخصية الرجل بتحمله مسئوليته زوجاً وأباً ، وتكتمل شخصية المرأة بتحمل مسئوليتها زوجة وأماً .

إن كثيراً من الرجال يفرون من الزواج ، لأنهم - كما قلنا - يريدون أن يعيشوا عمرهم أطفالاً كباراً ، دون رباط يربطهم ، أو بيت يضمهم ، أو تبعة تلقى على كواهلهم . ومثل هؤلاء لا يصلحون للحياة ، ولا تصلح بهم الحياة ، أما الزواج فإنه رباط وميثاق غليظ ، ومسئولية مشتركة بين الرجل والمرأة من أول يوم ، قال تعالى : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ (١) ، ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ، فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللهُ ﴾ (٢) .

وقال الرسول - صلى الله عليه وسلم - « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته : فالرجل راع فى أهل بيته وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسئولة عن رعيتها » (٣) ، « كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت » (٤) ، « إن الله سائل كل راع عما استرعاه : حفظ أم ضيع » (٥) ، « إن لزوجك عليك حقاً » (٦) .

(ح) وبالزواج يتفرغ الرجل لإتقان أعماله فى خارج البيت ، مطمئناً إلى أن فى بيته من يدبر أمره ، ويحفظ ماله ، ويرعى أولاده . وفى هذا ما يعينه

---

(١) البقرة : ٢٢٨ (٢) النساء : ٣٤

(٣) متفق عليه عن ابن عمر ، اللؤلؤ والمرجان (١١٩٩) .

(٤) رواه أحمد وأبو داود والحاكم ، والبيهقى عن ابن عمرو ، صحيح الجامع الصغير (٤٤٨١) .

(٥) رواه النسائى وابن حبان عن أنس ، وحسنه فى الحديث السابق (١٧٧٤) .

(٦) متفق عليه عن ابن عمرو .

على إحسان العمل وزيادة الإنتاج ، بخلاف ذلك القلق المضطرب المشغول ، الموزع بين عمله وبيته ، وبين هم شغله فى الخارج وهم مطعمه ومشربه وملبسه فى الداخل .

وقديماً قال الشاعر :

إذا لم تكن فى منزل المرء حرة تدبّره ، ضاعت مصالح داره !

* *

● وصايا للراغبين فى الزواج :

يعمل الإسلام على إقامة الزواج على ركائز متينة ، من التفاهم والتراضى بين الزوجين ، وأهل كل منهما ، حتى يتم على أساس مكين ، لا تزعزعه عواصف الحياة مهما اشتدت . ولهذا يوصى من أول الأمر بوصايا غاية فى الأهمية .

* حسن اختيار شريك الحياة :

أول هذه الوصايا : أن يحسن كل واحد منهما اختيار شريك حياته ، ولا يكون همهما المظهر البراق وحده ، فالمظاهر قد تخدع ، والإنسان لا يقوم بحسن مظهره ، بل بحسن جوهره . ولهذا حثت الأحاديث النبوية على اختيار (الزوجة الصالحة) ، وإيثارها على (الزوجة الغنية) أو (الزوجة الفاتنة الجمال) أو (الزوجة ذات النسب العريق) .

والمراد بالزوجة الصالحة : ذات الدين والخلق .

وفى الحديث : « الدنيا متاع وخير متاعها : المرأة الصالحة » (١) .

وقال : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ولنسبها ، ولجمالها ، ولدينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » (٢) .

---

(١) رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو .

(٢) متفق عليه : عن أبى هريرة ، اللؤلؤ والمرجان (٩٢٨) .

وفى حديث آخر : « فعليك بذات الدين والخلق تربت يمينك »[1] .

وكذلك حث المرأة وأولياءها على اختيار (الزوج الصالح) لا مجرد الزوج ذى المال أو ذى النسب والجاه .

والزوج الصالح : هو ذو الدين والخلق .

وفى الحديث : « إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض »[2] .



* النظر إلى المخطوبة :

ومع هذا لا بد أن يكون كلاهما من حيث الشكل والصورة مقبولاً عند صاحبه ، وهذا يختلف من شخص لآخر ، ولأجل هذا شرع الإسلام النظر قبل الزواج .

وقد قال المغيرة بن شعبة للنبى ﷺ : خطبت امرأة ، فقال : أنظرت إليها ؟ قال : لا ، قال : « اذهب فانظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما »[3] ، وذلك لأن العين رسول القلب ، وهذا النظر قبل الزواج إذا كان معه القبول يفتح قلب كل منهما لصاحبه ، ولا بأس أن يراها بغير علمها ، حتى لا يجرح مشاعرها لو رآها وهى تعلم ، ثم لم تعجبه . وقد قال جابر : كنت أتخبأ لها حتى رأيت منها ما دعانى إلى نكاحها .

---

(١) قال المنذريُ فى الترغيب والترهيب : رواه أحمد بإسناد صحيح والبزار وأبو يعلى وابن حبان فى صحيحه ، المنتقى (١١٠٥) ، وقال الهيثمى : رواه أحمد وأبو يعلى والبزار ورجاله ثقات : ٤/ ٢٥٤ .

(٢) رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم عن أبى هريرة ، والترمذى والبيهقى عن أبى حاتم المزنى ، وحسَّنه فى صحيح الجامع الصغير (٢٧٠) .

(٣) رواه أحمد والدارقطنى والحاكم والبيهقى عن أنس ، ورووه - ومعهم الطبرانى - عن المغيرة ، وصحَّحه فى المصدر السابق (٨٥٩) .

ومن حق المرأة أن تنظر إلى الرجل ، كما ينظر الرجل إليها ، فإنه يعجبها من الرجل ما يعجب الرجل منها .

ولا يكفى أن ينظر إليها فقط ، بل لا بد أن يتحدث إليها وتتحدث إليه ، ليتعرف كل منهما على ملامح شخصية صاحبه ، ولو بصورة مبدئية ، والرؤية لا تكشف ذلك ، إنما يكشفها الحديث والسؤال والجواب .

ومما يؤسف له أن المسلمين فى عصرنا وقعوا بين طرفى الإفراط والتفريط ، فهناك من يرفض مجرد الرؤية من الخاطب لابنته ، بل بعضهم يرفض أن يراها ، حتى بعد العقد عليها ، ولا يراها إلا ليلة البناء بها ، مع أنها تذهب إلى المدرسة أو الجامعة أو السوق ، وتسافر إلى الخارج ، ويراها كل الناس ما عدا خاطبها .

وهناك - على نقيض هؤلاء - من يسمحون للخاطب بالخلوة بالمخطوبة ، ولم يعقد عليها بعد ، والخروج متأبطاً ذراعها إلى الخلوات والنزهات والسينمات .

وإنما يضيع الدين والأخلاق بين الغلاة والمتسيبين !



* ضرورة رضا الفتاة :

ولا يجوز لأب أن يزوج ابنته ممن يريدها هو ، وإن كانت هى لا تريده ، بل لا بد أن توافق عليه صراحة أو ضمناً ، وذلك بالسكوت إذا غلبها الحياء ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « الأيم أحق بنفسها من وليها ، والبكر تستأذن فى نفسها ، وإذنها صُماتها » [1] ، وقد روى البخارى عن خنساء بنت خدام الأنصارية : أن أباها زوجها ، وهى ثيب ، فكرهت ذلك ، فأتت رسول الله ﷺ فرد نكاحه [2] .

---

(١) رواه مالك وأحمد عن ابن عباس ، صحيح الجامع الصغير (٢٨٠٩) .

(٢) البخارى فى كتاب النكاح ، باب : إذا زوج الرجل ابنته وهى كارهة فنكاحه مردود .

وروى أبو داود عن ابن عباس : أن جارية بكراً أتت النبى ﷺ ، فذكرت أن أباها زوجها ، وهى كارهة ، فخيرها النبى ﷺ [1] .

ولا ينبغى للآباء أن يستبدوا بزواج بناتهن ، ويضربوا بعواطفهن عرض الحائط . فعن ابن عباس قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ ، فقال : إن عندنا يتيمة ، وقد خطبها رجل معدم ، ورجل موسر ، وهى تهوى المعدم ، ونحن نهوى الموسر : فقال صلى الله عليه وسلم : « لم يُرَ للمتحابين مثلُ النكاح » [2] .

وينبغى أن يتم الزواج برضا الأطراف كلها من أسرة المرأة ، وأسرة الرجل ، لهذا اشترط الفقهاء إذن ولى المرأة بل حضوره العقد ، وجعل ذلك بعضهم أمراً مستحباً لا واجباً ، ولهم فى ذلك أدلة من القرآن والسُّنَّة ، تبحث فى كتب الفقه .

والأولى ألا تتزوج المرأة بغير إذن وليها ، حتى لا يلعب بها الزوج بعد ذلك ، ويضيع حقوقها ولا تجد من يدافع عنها .

بل الأولى أن تشاور المرأة فى زواج ابنتها ، كما ورد فى حديث : « آمروا النساء فى بناتهن » [3] لأن الأم أعرف بابنتها من أبيها ، ولأنها إذا لم توافق على الزواج فقد تنكد عيش زوج ابنتها بعد ذلك .

يقول الأستاذ عبد الحليم أبو شقة رحمه الله فى موسوعة تحرير المرأة فى عصر الرسالة :

« إن حضور الولى عقد الزواج كما يثبت إقرار العائلة لهذا الزواج ، يساعد على تأكيد أن رابطة الزواج لا تقتصر على علاقة حميمة بين شخصين

---

(١) أبو داود فى النكاح ، باب : البكر يزوجها أبوها ولا يستأمرها .

(٢) روى المرفوع ابن ماجه والحاكم ، صحيح الجامع الصغير (٥٢٠٠) ، والقصة رواها ابن منده فى الأمالى ، كما فى الصحيحة للألبانى (٦٢٤) .

(٣) رواه أحمد ، وفى إسناده ضعف ، ولكن تؤيده أحاديث أخرى .

رجل وامرأة ، بل هى كذلك صلة وثيقة بين عائلتين أو عشيرتين ، وكما يحضر ولى أمر المرأة فيندب حضور والد الرجل فضلاً عن أقارب الزوجين حتى يكون هذا الزواج بداية التحام بين العائلتين » .

وفى هذا المعنى يقول الإمام محمد عبده :

« لا يخفى أن أحكام الشريعة المقدسة ترشدنا إلى أن المصاهرة نوع من أنواع القرابة ، تلتحم بها العائلات المتباعدة فى النسب ، وتتجدد بها صلات الألفة والاتحاد ، فقد حرم الله على الشخص أن يتزوج بأمه أو أنثى من أصولها وفروعها ، كما حرم عليه أن يتزوج بأخته أو أنثى من أصول نفسه وفروعه .

وكذلك حرم على زوجته أن تقترن بشىء من أصوله أو فروعه ، فكأنما أنزل الله كلا من الزوجين منزلة نفس الآخر ، حتى أنزل فروع كل منهما وأصوله بالنسبة إلى الآخر منزلة أصول نفسه وفروعه . فهذه حكمة بالغة أقامها الشرع لنا برهاناً واضحاً على أن اتصال إحدى العائلتين بالأخرى بطريق المصاهرة ، مساو لنفس القرابة النسبية فى الأحكام والحقوق والاحترام ، وهذا هو الموافق لما عليه طبيعة الاجتماع الإنسانى . . . فمن كانت له ابنة ، وهو يميل إليها ميل الوالد إلى ولده ، ثم قضت سُنَّة الله فى خلقه بأن يقترن بها شخص من الناس ، فمقتضى محبة الوالد لابنته أن يطلب لها جميع الخيرات ويود لو بلغت أقصى درجات السعادة ، وحيث إن سعادتها يبعد أن تكون بدون سعادة زوجها الذى هى مقترنة به ، فمن الواجب عليه أن يميل إلى زوجها ميله إلى نفسها ، ويكون عوناً له على سعادتها ، لتتصل بها سعادة ابنته ، وهكذا كل من ينتسب إليها بنوع من القرابة ، فعليهم أن يكونوا على طراز من المحبة لزوجها ، مثل ما هم عليه بالنسبة إليها » .



● حقوق المعاشرة بين الزوجين :

الزواج عقد وثيق ، وشركة مقدسة ، حرص الإسلام على أن تدوم وتستقر وتتوطد ، ففرض لكل من الزوجين حقوقاً ، وألزمه واجبات ، بحيث إذا التزماها سعدأ بحياة زوجية هانئة وارفة الظلال .

وخلاصة هذه الحقوق والواجبات تتركز فى كلمة واحدة هى المعاشرة بالمعروف قال تعالى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (٢) ، والمعروف هنا : ما يقره العرف السليم ، ويعتاده أهل الاعتدال والاستقامة من الناس ، من الصحبة الجميلة ، وكف الأذى ، بل احتماله من صاحبه ، وبذل الحق دون مطل ، مع البشر وطلاقة الوجه ، ولا يتبعه أذى أو منّة . والجميل حقاً : أن الآية السابقة جعلت الحقوق والواجبات متبادلة بين الزوجين ، فكل حق يقابله واجب .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : إنى لأحب أن أتزين لامرأتى ، كما أحب أن تتزين لى ، لقوله تعالى : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ وهو فهم دقيق لمفهوم الآية الكريمة .

ولكن الآية الكريمة جعلت للرجال على النساء درجة ، فما هذه الدرجة ؟ بعض المفسرين ذهب إلى أنها درجة القوامة والمسؤولية عن الأسرة ، وهذه المسؤولية توجب على الرجل أعباء أكثر من المرأة . ولهذا نقل القرطبى عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ (٣) ، قال : الدرجة إشارة إلى حض الرجل على حسن العشرة ، والتوسع للنساء فى المال والخلق ، أى أنه الأفضل فينبغى أن يتحامل على نفسه . قال ابن عطية : وهذا قول حسن بارع .

واختار الطبرى أن أولى الأقوال فى تفسير الآية : أن الدرجة التى ذكرها

---

(١) النساء : ١٩ (٢) البقرة : ٢٢٨ (٣) البقرة : ٢٢٨

الله تعالى هنا ، هى : الصفح من الرجل لامرأته عن بعض الواجب عليها ، وإغضاؤه لها عنه ، وأداء كل واجب لها عليه ، وذلك ليكون للرجل فضل درجة عليها .

وهناك حقوق مشتركة بين الزوجين ، مثل الاحترام المتبادل ، والتشاور فيما يهم الأسرة ، كما قال تعالى فى شأن الوالدات المرضعات : ﴿ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ﴾ (١) .

ومنها : حقوق المعاشرة الجنسية ، فهى حق لكل منهما على صاحبه بالمعروف فى حدود الطاقة ، كما قال تعالى : ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ (٢) ، وإنما عبر عن هذه العلاقة باللباس ، لما توحى به الكلمة من الزينة والستر واللصوق والدفء .

ومنها : حق التعاون فى السراء والضراء ، على البر والتقوى ، فإذا كان ذلك مطلوباً من المسلمين جميعاً ، فأولى من يطلب منهم ذلك الرجل وامرأته .

ومنها : حق حفظ أسرار الزوجية ، فلا يجوز لأحدهما أن يفشى سر صاحبه ، ففى ذلك خيانة للأمانة المشتركة .

ومنها : حق التجمل الذى أشار إليه ابن عباس بقوله : أتزين لامرأتى ، كما تتزين لى امرأتى .



● **حقوق الزوجة :**

ومن الحقوق التى تلزم الزوج لزوجته :

١ - **المهر** : وهو خالص حق المرأة ، فلا يحل للزوج أن يمطلها به إذا طلبته ، أو يسترده منها - كله أو بعضه - بعد دفعه لها ، فإذا تنازلت له عن شىء منه راضية غير مكرهة فلا بأس بأخذه . قال تعالى : ﴿ وَآتُوا

---

(١) البقرة : ٢٣٣ (٢) البقرة : ١٨٧

النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ، فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَّرِيئاً ﴾ (١) .

وإذا رضى الزوج بالزيادة على ما تراضيا عليه فلا حرج فى ذلك . قال تعالى : ﴿ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ (أى مهورهن) فَرِيضَةً ، وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ﴾ (٢) .

٢ – **النفقة** : فالزوجة لا تلزمها نفقة نفسها وإن كانت غنية ، وإنما تلزم الزوج ، لأنه هو الراعى المسئول عنها ، وقد أصبحت تحت رعايته وحمايته ، مكلفة بتدبير بيته ، والقيام بمطالبه ، وتربية ولده .

وتشمل هذه النفقة :

(أ) الطعام والشراب الكافيان .

(ب) الكسوة للشتاء والصيف .

(جـ) المسكن الملائم .

(د) العلاج إن مرضت .

(هـ) خادم ، إن كانت ممن يخدم مثلها عرفاً .

(و) مؤنسة إن كانت فى مكان موحش تخشى فيه على نفسها من عدو أو لص .

والأصل فى إيجاب هذه الأشياء : أن تركها ينافى المعاشرة بالمعروف التى أمر الله بها .

وفى الحديث : « اتقوا الله فى النساء ، فإنهن عوانٍ عندكم ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ..... ولهن عليكم رزقهن

---

(١) النساء : ٤   (٢) النساء : ٢٤

وكسوتهن بالمعروف » [١] ، والمعروف هو قدر الكفاية التى يعرفها العرف ، بحسب قدرة الزوج ، ومكانة الزوجة .

قال تعالى : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّنَ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ ، لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾ [٢] .

وإذا كان الزوج موسراً ولكنه يقتر على زوجته وولده ، وقدرت على الأخذ من ماله ، فلها الأخذ منه بغير إذنه ، بقدر كفايتها وكفاية ولدها منه ، لما روى البخارى ومسلم : أن هنداً امرأة أبى سفيان قالت : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل شحيح ، وليس يعطينى من النفقة ما يكفينى وولدى ، فقال صلى الله عليه وسلم : « خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف » [٣] .

وإنما رخص لها بأخذ كفايتها بدون إذنه ، لأن الحاجة قاضية بذلك ، إذ لا غنى عن النفقة ولا قوام إلا بها ، وهى تتجدد بتجدد الزمن ، فتشق المرافعة بها إلى الحاكم ، والمطالبة بها كل يوم . والمرأة إذا نشزت وتمردت على زوجها سقطت نفقتها ، لأنها لم تفِ بحقه عليها ، فلم تستحق نفقته .

وإذا عجز الزوج عن الإنفاق على زوجته ، وتعذرت عليها النفقة بالاستدانة وغيرها ، كان لها الحق فى أن تطلب فسخ الزواج ، إذ لا حياة بدون نفقة ، وقد قال تعالى : ﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾ [٤] ، وقد تعذر الإمساك بالمعروف ، فتعين التسريح بالإحسان ، لحديث : « لا ضرر ولا ضرار » [٥] ، وإذا أمكنها أن تصبر فهو أولى ؛ لأنه من مكارم الأخلاق .

٣ - **التلطف والمؤانسة** : وليست حاجة المرأة من زوجها مادية تقتصر على

---

(١) مسلم كتاب الحج رقم (١٢١٨) .　　(٢) الطلاق : ٧

(٣) متفق عليه عن عائشة ، اللؤلؤ والمرجان (١١١٥) .　　(٤) البقرة : ٢٢٩

(٥) رواه أحمد وابن ماجه عن ابن عباس ، وابن ماجه عن عبادة ، صحيح الجامع الصغير (٧٥١٧) .

النفقة والكسوة ونحوها ، فحسب ، بل لها حاجة نفسية أن يتلطف بها ، ويطيب نفسها ويدخل السرور عليها ، فهذا من تمام المعاشرة بالمعروف .

ولا يظن أحد أن هذا مما ينافى وقار الرجل ويسقط من هيبته . فقد كان سيد البشر محمد ﷺ يسابق عائشة زوجه فتسبقه مرة ، ويسبقها أخرى ، ويقول لها : « هذه بتلك » (١) .

« وقالت عائشة : كنت ألعب بالبنات (العرائس أو اللُعب) عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيته ، وكان لى صواحب يلعبن معى ، وكان رسول الله ﷺ إذا دخل ينقمعن (يستخفين هيبة له) فيسربهن إلىّ فيلعبن معى » (٢) ، « وقالت : كان رسول الله ﷺ يسترنى بردائه ، وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون فى المسجد ، حتى أكون أنا الذى أسأمه ، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن ، الحريصة على اللهو » (٣) .

« وقد استمع النبى الكريم إلى عائشة وهى تحدث عن النساء الإحدى عشر ، وما قالت كل واحدة عن زوجها ، وذلك فى الحديث المعروف بحديث : « أم زرع » (٤) .

٤ - صيانة كرامتها :

وعلى الزوج أن يعرف لزوجته حرمتها ويصون كرامتها ، فلا يؤذيها بسبّ أو قول خارج ، ولا يفضى سر ما بينهما أمام الناس ، ولا ينتقص أهلها ، ولا يتجسس عليها ويتتبع عثراتها ، ولهذا نهى النبى ﷺ المسافر أن يطرق أهله ليلاً

---

(١) ابن ماجه رقم (١٩٧٩) ، عشرة النساء (٥٧) .

(٢) متفق عليه عن عائشة ، اللؤلؤ والمرجان (١٥٨١) .

(٣) مسلم ، كتاب صلاة العيدين ، رقم (٨٩٢) ص ٦٠٩

(٤) متفق عليه عن عائشة ، اللؤلؤ والمرجان (١٥٩٠) .

(عند عودته) يتخونهم أو يطلب عثراتهم [1] ، لما فى ذلك من سوء الظن ، وإفساد المودة .

ومن حق الزوج أن يغار على زوجته ، ولكن دون إفراط ، ولئلا يساء الظن بها ، وترمى بالشر من أجله ، والخير فى الوسط ، وكل أمر زاد عن حده انقلب إلى ضده ، وفى الحديث :

« إن من الغيرة ما يحب الله ، ومن الغيرة ما يبغض الله ، فأما الغيرة التى يحب الله ، فالغيرة فى الريبة ، وأما الغيرة التى يبغضها الله فالغيرة فى غير الريبة » [2] .

والريبة : أن يرى على سلوك المرأة قرائن ودلائل تقتضى الشك والارتياب ، فلا يجوز أن يسد أذناً من طين وأخرى من عجين ، حتى لا يكون (ديوثاً) .

٥ - الصبر والاحتمال :

والمرأة ليست ملاكاً - كما يتوهم بعض السابحين فى الخيال - وإنما هى إنسان يحسن ويسئ ، ويصيب ويخطئ ، وعلى الرجل أن يصبر ويحتمل حفاظاً على الحياة الزوجية أن تنهدم .

وفى الحديث : « استوصوا بالنساء خيراً » [3] ، « أن المرأة كالضلع (أى لا تخلو من عوج) ، إن ذهبت تقيمها كسرتها ، وإن استمتعت بها ، استمتعت بها وفيها عوج » [4] ، ويراد بالعوج فى المرأة : غلبة الجانب العاطفى عليها أكثر من الرجل ، فلا بد من مداراتها والصبر عليها ، استبقاء لدوام العشرة ، وإلا فتقويم الضلع لا يكون إلا بكسره ، وهو أمر غير مرغوب ولا محمود .

---

(١) مسلم عن جابر برقم (٧١٥) .
(٢) أبو داود ، عن جابر بن عتيك برقم (٢٦٥٩) .
(٣) متفق عليه عن أبى هريرة ، اللؤلؤ والمرجان (٩٣٤) .
(٤) متفق عليه عن أبى هريرة ، اللؤلؤ والمرجان (٩٣٣) .

وفى الحديث الآخر : « لا يفرك - أى لا يكره - مؤمن مؤمنة ، إن سخط منها خلقاً رضى منها آخر » (١) ، وبذلك ينظر إليها نظرة عادلة ، يذكر محاسنها ، كما يذكر عيوبها ، وأى إنسان سلم من العيوب ؟!

إن الرجل المسلم حقاً هو الذى يغلّب الواقع إلى الخيال ، ويحكم العقل فى العاطفة ، حت أنه ليضغط على نفسه مع شعوره بالكراهية ، لتستمر الحياة الزوجية ، استجابة لقول الله تعالى :

﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً ﴾ (٢) .



● **حقوق الزوج :**

وللزوج على زوجته حقوق يجب أن ترعاها ، لتتم المعاشرة بالمعروف كما أمر الله تعالى ، أهمها :

١ - الطاعة فى المعروف :

وذلك أن كل شركة لا بد لها من رئيس مسئول ، والرجل قد رشحته الفطرة ، ورشحه ما يدفعه من مهر ونفقة أن يكون هو سيد البيت والمسئول الأول عن الأسرة ، فلا عجب أن يكون له حق الطاعة ، قال تعالى : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ (٣) ، وهذه القوامة والمسئولية هى الدرجة التى ميز بها الرجل عن المرأة : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ، وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾ (٤) .

---

(١) رواه أحمد ومسلم عن أبى هريرة ، صحيح الجامع (٧٧٤١) .

(٢) النساء : ١٩   (٣) النساء : ٣٤   (٤) البقرة : ٢٢٨

ويحرم عليها أن تعصى زوجها أو تتركه بغير سبب شرعى ، وفى الحديث : « إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى ترجع » متفق عليه [1] ، وأكد الإسلام حق الزوج فى ذلك ، فلم يجز لها أن تتطوع بصلاة أو صوم وهو حاضر إلا بإذنه . قال صلى الله عليه وسلم : « لا يحل للمرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه » متفق عليه [2] .

٢ - أن تحفظه فى غيبته فى نفسها وماله :

قال تعالى : ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ [3] .

وفى الحديث المتفق عليه : « المرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسئولة عن رعيتها » [4] .

ومن حفظه فى نفسه أن تصون أسراره ، ولا تأذن بالدخول فى بيته لمن يكره من الناس ، وقد ذكر الرسول من صفات الزوجة الصالحة : « إذا غاب عنها حفظته فى نفسها وماله » [5] .

ومن حفظه فى ماله ألا تبسط يدها بالإنفاق مسرفة مبذرة ، ولا بأس أن تتصدق منه بما جرت به العادة ، وهما شريكان فى مثوبة الله ، وفى الحديث : « إذا أنفقت المرأة من بيتها زوجها غير مفسدة ، كان لها أجرها ، وله مثله بما كسب » [6] .

٣ - أن تعاونه بالمعروف :

وقد ذهب كثير من الأئمة إلى أن المرأة ليس عليها خدمة زوجها فى عجن

---

(١) متفق عليه عن أبى هريرة ، اللؤلؤ والمرجان (٩١٢) .
(٢) متفق عليه عن أبى هريرة ، اللؤلؤ والمرجان (٦٠٤) .
(٣) النساء : ٣٤
(٤) متفق عليه عن ابن عمر ، اللؤلؤ والمرجان (١١٩٩) .
(٥) ابن ماجه عن أبى أمامة (١٨٥٧) .
(٦) متفق عليه عن عائشة ، اللؤلؤ والمرجان (٦٠٣) .

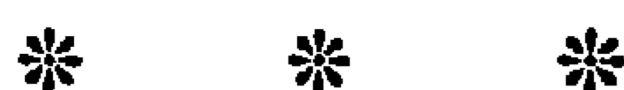
وخبز وطبخ وغسل ونحوه من أمور البيت . وإن كان الأولى لها فعل ما جرت به العادة . ولكن شيخ الإسلام ابن تيمية أوجب عليها أن تعاونه بالمعروف من مثلها لمثله . وهذا هو مقتضى قوله تعالى : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (١) ، وإن كان التعاون مأموراً به فى كل حال فهو بين الزوجين أولى وأوكد .

٤ - تأديبها عند النشوز أو ترك الفرائض :

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ (٣) .

وما دام الرجل هو سيد البيت المسئول أمام الله وأمام الناس ، فمن حقه أن يردعها عن ارتكاب المحرمات ، أو إهمال الفرائض ، أو التهاون فى حقوق الزوجية ، حتى لا تتعرض الأسرة للانهيار . ولكن ذلك يتم فى إطار المحافظة على إنسانية المرأة وكرامتها .



---

(١) البقرة : ٢٢٨ (٢) التحريم : ٦ (٣) طه : ١٣٢

بناء المجتمع الصالح

ويهدف الإسلام إلى تكون المجتمع الصالح ، كما هدف إلى الفرد الصالح ، والأسرة الصالحة ، وهما - ولا شك - أساس متين لصلاح المجتمع المنشود .

والمجتمع الصالح هو الذى يرتبط أفراده وأسره بقِيَم الإسلام العليا ، ومبادئه المثلى ، ويجعلها رسالة حياته ، ومحور وجوده .

وأهم القِيَم الإسلامية فى هذا المقام هى :

(أ) التجمع على العقيدة : فالمجتمع الإسلامى ليس مجتمعاً قومياً أو إقليمياً ، وإنما هو مجتمع عقائدى ، مجتمع فكرة وعقيدة ، وعقيدته هى الإسلام ، فهو الأساس « الأيديولوچى » لهذا المجتمع .

قد يكون أبناء هذا المجتمع من أجناس مختلفة ، أو ألوان مختلفة ، أو أوطان مختلفة ، أو ألسنة مختلفة ، أو طبقات مختلفة ، ولكن هذا الاختلاف كله يذوب وينصهر أمام وحدة العقيدة ، أمام « لا إله إلا الله - محمد رسول الله » ، أمام الإيمان المشترك الذي يضم الجميع فى رحاب أخوته : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (١) .

فإذا أردنا أن نصف هذا المجتمع بصفة فذة تميزه عما سواه ، لم نجد إلا أن نقول : إنه « مجتمع مؤمن » ، أو هو « مجتمع المؤمنين » أولئك الذين وصفهم الله تعالى فى مطلع سورة البقرة : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن

---

(١) الحجرات : ١٠

قَبْلِكَ ، وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

والإيمان الإسلامى ليس مجرد شعار أو دعوى ، أو تعصب على الآخرين ، وإنما هو حقيقة تستقر فى النفس ، ينبثق عنها سلوك ، ويصدقها عمل إيجابى ، ومن ثم جسد القرآن الإيمان أبداً فى أعمال وأخلاق ، كما فى أوائل سورة الأنفال ، وسورة المؤمنين ، وأواخر سورة الحجرات ، وغيرها .

(ب) ومن هنا جاء الاهتمام بقيمة أخرى من القِيَم التى يقوم عليها المجتمع الصالح الذى يهدف الإسلام إلى تحقيقه ، وهى : « احترام العمل الصالح » بل تقديسه ، سواء كانت صيغته دينية كالصلاة والصيام والحج والعمرة ، والذكر والتلاوة والدعاء ، أم دنيوية ، كالسعى فى طلب الرزق ، وعمارة الأرض بالزراعة والصناعة والاحتراف ، وكل ما فيه منفعة الناس ، والإحسان إليهم . فهذا أصل مقرر معروف ، اعتبره القرآن ركناً فى كل دين ، مقروناً بالله واليوم الآخر . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٢) .

وقرن القرآن العمل بالإيمان فى أكثر من سبعين آية ، فى مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ (٣) .

ولا ريب أن إقامة شعائر الله ، وأداء فرائضه الكبرى - من إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان ، وحج البيت هى أول ما ينطبق عليه معنى العمل الصالح ، فليس هناك عمل أصلح للمخلوق من معرفة خالقه ، وعبادة ربه ، وإخلاص الدين له ، شكراً لنعمته ، ووفاء بحق ربوبيته ، ولكننا رأينا

(١) البقرة : ٣ - ٥ (٢) البقرة : ٦٢ (٣) الكهف : ٣٠

فى حديثنا عن « العبادة » فى « مقومات الإسلام » أنها تسع الحياة كلها ، وتشمل كيان الإنسان كله ، فكل عمل نافع عبادة .

(جـ) والدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، أصل بين من أصول هذا الدين ، فليس يكفى - فى منطق الإسلام - أن يكون المرء صالحاً فى خاصة نفسه ، غافلاً عن فساد غيره ، بل الصالح عنده حقاً ، من أصلح نفسه ، وحاول إصلاح غيره ، ولو بالدعوة والأمر والنهى ، كما قال تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) . وبهذه الخصيصة ترجحت الأمة المسلمة على سائر الأمم : ﴿ كُنتُمْ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﴾ (٢) .

ومن هنا سجل القرآن لعنة الله لبنى إسرائيل - على لسان داوود وعيسى ابن مريم - لسكوتهم عن المنكر - وعدم تناهيهم عنه : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا من بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٣) .

(د) والجهاد فى سبيل الله - حماية للحق ، وتثبيتاً للخير ، وتأميناً للدعوة ، ومنعاً للفتنة ، وصداً للمغيرين ، وتأديباً للناكثين ، وإنقاذاً للمستضعفين - أصل إسلامى لا ينكره مسلم ، ولا يجهل منزلته وفضله ، وما أعد الله لأهله ، فضلاً عن مشروعيته ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ ؟ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ ؟ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ * إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ

---

(١) آل عمران : ١٠٤ (٢) آل عمران : ١١٠ (٣) المائدة : ٧٨ ، ٧٩

شَيْئاً ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) ، ﴿ وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ (٢) ، ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * .... وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعاً ﴾ (٤) ، ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ ، اللهُ يَعْلَمُهُمْ ، وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ﴾ (٥) .

(هـ) وتثبيت الفضائل الخلقية كلها فى شتى جوانب الحياة ، ونشرها وحمايتها ، من العدل ، والإحسان ، والبر ، والصلة ، والتعاون على البر والتقوى ، واحترام النظام ، والصدق والعفاف ، ورعاية الأمانة والوفاء بالعهد ، والإخلاص فى السر والعلانية ، وقول الحق فى الغضب والرضا ، والقصد فى الفقر والغنى ، والصبر فى البأساء والضراء وحين البأس ، وكف اليدين واللسان عن إيذاء الناس ، وطهارة القلب من الغل والحسد ، والرياء ، والنفاق ، وحب الدنيا ، وسائر أمراض النفوس - كلها من الركائز المعنوية التى لا يقوم مجتمع مسلم إلا عليها .



- **الإخاء والمحبة :**

(و) والإخاء والمحبة من دعائم المجتمع المسلم ، وهذا مقتضى الإيمان الذى يربط بين أهله برباط العقيدة الوثيق : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (٦)

---

(١) التوبة : ٣٨ ، ٣٩ — (٢) النساء : ٧٥ — (٣) البقرة : ١٩٠ - ١٩٣

(٤) النساء : ٧١ — (٥) الأنفال : ٦٠ — (٦) الحجرات : ١٠

وقد أثبت التاريخ والواقع أنه لا رباط أقوى من العقيدة ، وأن لا عقيدة أقوى من الإسلام .

وأدنى مراتب هذا الإخاء : سلامة الصدور من الحسد والبغضاء ، التى اعتبرها الحديث النبوى : « داء الأمم » وسماها « الحالقة » ، ليست حالقة الشعر ولكن حالقة الدين ، وقد مدح الله تعالى أجيال التابعين للصحابة بإحسان بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ : رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (١) .

وكلما عمقت جذور الإيمان ، امتدت فروع الإخاء وظلاله وثماره فى النفس والحياة ، وتحررت الأنفس من الأنانية المقيتة ، وتطلعت إلى العطاء لا الأخذ ، وإلى التضحية لا الغنيمة ، وفى الحديث : « لا يؤمن أحدكم حتى يُحب لأخيه ما يحب لنفسه » (٢) .

وقد يرتقى ذلك إلى درجة الإيثار الذى وصف الله به مجتمع الصحابة بقوله : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (٣) .



● التعاطف والتراحم :

(ز) التعاطف والتراحم ، وهذا من ثمرات الإخاء الحق ، وهو ما صوَّره الحديث الشريف أبلغ تصوير حين قال : « ترى المسلمين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء ، بالحمى والسهر » (٤) .

وفى الحديث الآخر : « الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » (٥) .

---

(١) الحشر : ١٠ (٢) متفق عليه عن أنس ، كما فى اللؤلؤ والمرجان (٢٨) .

(٣) الحشر : ٩ (٤) متفق عليه عن النعمان بن بشير ، اللؤلؤ والمرجان (١٦٧١) .

(٥) رواه أحمد وأبو داود والترمذى والحاكم عن ابن عمرو ، وذكره فى صحيح الجامع الصغير وزيادته (٣٥٢٢) .

وأوجب ما يكون العطف والرحمة : للضعفاء من الناس من اليتامى والمساكين وأبناء السبيل والخدم والمعوقين من البشر ، ولهذا اعتبر القرآن من مظاهر الكفر والتكذيب بالدين القسوة على هؤلاء وتركهم يهلكون جوعاً وعرياً وضياعاً : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ (١) ، وذم المجتمع الجاهلى بقوله : ﴿ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ (٢) .

ويعرض علينا القرآن مشهداً من مشاهد يوم القيامة ، وإذا الذى يأخذ كتابه بشماله ، لم يغن عنه ماله ، أو يمنعه سلطانه ، ينادى عليه على رؤوس الإشهاد : ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ الْعَظِيمِ * وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ (٣) ، فرق بين عدم الإيمان وعدم الحض ، ليدل على عظم جريمة القسوة على المساكين .



● **التساند والتعاون :**

(ح) التساند والتعاون ، وهو المظهر العملى للإخاء والتراحم ، والتعاون الإسلامى مجاله البر والتقوى وليس الإثم والعدوان ، كما بيَّن ذلك القرآن الكريم : ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ (٤) ، ولهذا حرَّم الإسلام الربا والاحتكار لما فيهما من استغلال القوى للضعيف ، واعتصار الغنى للفقير .

وقد مثَّل النبى ﷺ ذلك بقوله : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً وشبَّك أصابعه » (٥) .

---

(١) الماعون : ١ - ٣ (٢) الفجر : ١٧ ، ١٨

(٣) الحاقة : ٣٠ - ٣٤ (٤) المائدة : ٢

(٥) متفق عليه ، عن أبى موسى ، اللؤلؤ والمرجان (١٦٧٠) .

وهو يشمل التعاون بين أفراد الشعب وفئاته بعضهم وبعض ، أو بين الشعب والحاكم ، كما ذكر القرآن التعاون بين « ذى القرنين » ، وتلك الجماعة المهددة من « يأجوج ومأجوج » قال : ﴿ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً ﴾ (١) .



● التكافل والتضامن :

(ط) التكافل والتضامن : بحيث ينهض القوى بالضعيف ، ويعود الغنى على الفقير ، ولا يضيع عاجز ولا مسكين فى هذا المجتمع ، والحد الأدنى فى ذلك هو فريضة الزكاة - الركن الثالث فى الإسلام - والتى يقوم عليها حراس ثلاثة : حارس من داخل ضمير الفرد المسلم ، وهو الإيمان .. وحارس من داخل المجتمع ، وهو الرأى العام المسلم .. وحارس من قبَل الدولة ، وهو القانون والسلطان : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ (٢) .

وفى المال حقوق أخرى سوى الزكاة ، وبخاصة حق الجار على جاره ، بحيث يتكافل المجتمع له فى السراء والضراء .

وفى الحديث : « ليس بمؤمن مَن بات شبعان وجاره إلى جنبه جائع » (٣) .

والتكافل الإسلامى يستوعب كل جوانب الحياة - مادية ، ومعنوية - فهو

---

(١) الكهف : ٩٥ (٢) التوبة : ١٠٣

(٣) رواه البخارى فى الأدب المفرد ، والطبرانى فى الكبير ، والحاكم فى المستدرك ، والبيهقى فى السنن بألفاظ قريبة ، عن ابن عباس وذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٧٥٨٣) ، ورمز له بالصحة .

تكافل معيشى وعلمى وأدبى وعسكرى إلى غير ذلك من المجالات التى فصلها الدكتور مصطفى السباعى رحمه الله فى كتابه « اشتراكية الإسلام » .



● **التواصى والتناصح :**

(ى) التواصى والتناصح ، وهذا من التكافل الأدبى ، الذى يجعل كل مسلم مسئولاً عمن حوله من أبناء المجتمع ، ينصح لهم وينصحون له ؛ ويوصيهم بالحق والصبر ، ويتقبل الوصية منهم كذلك . وليس فى المسلمين أحد أكبر من أن يُنصح ، ولا أحد أصغر من أن ينصح . وهذا من أساسيات الدين ، وموجبات الإيمان ، وشروط النجاة من الخسران ، وفى القرآن : ﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ ﴾ (١) ، ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ (٢) .

وفى الحديث : « الدين النصيحة : لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم » (٣) ، وفى الحديث الآخر : « المؤمن مرآة المؤمن » (٤) .



● **التطهر والترقى :**

(ك) التطهر والترقى ، فالمجتمع المسلم مجتمع نظيف يربى أبناءه على الطهارة والعفة والإحصان ، ويُحرِّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ويعتبر الخمر والميسر ، رجساً من عمل الشيطان ، ويأمر المؤمنين والمؤمنات أن يَغضُّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، وينهى عن التبرج والإغراء بالقول أو بالمشى

---

(١) سورة العصر كاملة . (٢) التوبة : ٧١ (٣) رواه مسلم عن تميم الدارى .
(٤) رواه الطبرانى فى الأوسط عن أنس (صحيح الجامع الصغير : ٦٦٥٥) .

أو بالحركة ، حتى لا يطمع الذين فى قلوبهم مرض ، وحتى لا يثير الغرائز الهاجعة ، فتنطلق تعيث وتعربد ، بلا قيود من خُلُق ولا دين .

والمجتمع المسلم ليس مجتمع ملائكة مطهَّرين ، ولكن مَن ابتُلِىَ منهم ، بارتكاب معصية ، استتر بها ، ولم يتبجح بفعلها ، أو بالإعلان عنها ، وبذلك ينحصر أثرها ، ولا يتطاير شررها ، ثم يُرجى منه بعد ذلك أن يتوب منها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (١) .



● **العدالة :**

(ل) العدالة ، وتشمل عدالة التعامل بين الناس فى شئون الحياة ، فإن العدل فريضة ، والظلم حرام ، كما فى الحديث القدسى : « يا عبادى ؛ إنى حرَّمتُ الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرَّماً ، فلا تظالموا » (٢) .

وتشمل العدالة الاقتصادية أو الاجتماعية التى تقف فى وجه الأقوياء حتى لا يمتصوا دماء الضعفاء ، بل تعمل على الحد من طغيان الأغنياء ، بقدر ما ترفع من مستوى الفقراء ، وما تفرض لهم من حقوق المال ، الزكاة ، أولها وليست آخرها .

وتشمل العدالة القانونية والقضائية ، بحيث يصل لكل إنسان حقه ، وإن كان عند خليفة المسلمين ، وأن يستوفى عقوبته على جرمه ، وإن كان ابن أمير المؤمنين : « وَايْمُ الله ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها » (٣) .



● **مجتمع متقدم :**

(م) ومن أهم ما يوصف به هذا المجتمع الذى ينشئه الإسلام : أنه مجتمع متقدم ، وليس مجتمعاً متخلفاً بحال .

---

(١) البقرة : ٢٢٢ (٢) رواه مسلم . (٣) متفق عليه .

وهذا أمر يحتاج إلى تجلية وتوضيح ، فإن كلمة « تقدم » كلمة مطاطة ، قابلة لأكثر من تفسير ، والحضارة الغربية اليوم تزعم لنفسها أنها حضارة التقدم ، وأن مجتمعاتها مجتمعات متقدمة ، وأن مجتمعات المسلمين وغيرهم من أبناء ما يسمونه « العالَم الثالث » كلهم من المتخلفين ، وقد يتلطفون معهم ، فلا يسمون بلادهم البلاد « المتخلفة » ، وإنما يسمونها « النامية » .

« ولا بد لنا أن نجيب بصراحة هنا عن موقفنا من التقدم - أو بعبارة أدق - عن موقف الإسلام من التقدم .

إن الإجابة عن هذا السؤال تقتضى منا أن نحدد أولاً مفهوم التقدم ، فالحكم للشيء ، أو عليه ، فرع عن تصوره .

والتقدم فى معناه البسيط : أن يكون الإنسان قدام غيره ، أى فى جهة الإمام ، ويقابله : التخلف ، وهو أن يكون الإنسان فى الخلف .

والأمامية والخلفية من الأمور النسبية ، فقد تعتبر فى الأمام بالنسبة لشخص وراءك ، وتعتبر فى الخلف بالنسبة لشخص أمامك ، وقد تكون أمام مجموعة كلها من المتخلفين ، فأنت حينئذ أسبق المتخلفين ، كالسابق بين العرجان !



● ارتباط التقدم بأهداف الحياة :

ولكن التقدم قد يُقاس بالنسبة لهدف يريد الإنسان أن يبلغه ، فكل حركة فى اتجاهه تُقرِّب إليه ، تُعَد تقدماً ، بخلاف أى حركة فى عكس الاتجاه الموصل إلى الهدف ، لأنها حركة إلى الوراء حتماً .

وكذلك التوقف والجمود فى موضع واحد لا يعدوه صاحبه ، لا إلى أمام ولا إلى وراء ، هذا فى حد ذاته تخلف ، لأن توقفك يعطى غيرك فرصة ليخطو خطوة أو خطوات إلى الأمام ، وأنت واقف فى مكانك ، فستتخلف

أنت بقدر ما يتحرك هو . وخصوصاً أن الأصل فى الإنسان أنه حى متحرك ، والحركة دليل الحياة .

وهنا يبرز السؤال الكبير ، ما الهدف أو الأهداف التى يجب على البَشر أن يبلغوها ويحققوها فى حياتهم ؟ حتى يكون القُرب منها أو البُعْد عنها مقياساً للتقدم أو التخلف .



● الأهداف الأساسية للحياة الإنسانية :

إن الإسلام يجعل لحياة البشر على الأرض أهدافاً أساسية ، وأبرزها كما جاء بها القرآن العظيم - ثلاثة ، ذكرها الإمام الراغب الأصفهانى فى كتابه القيم « الذريعة إلى مكارم الشريعة » ، وهى :

١ - العبادة لله ، وإليها يشير قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (١) .

٢ - الخلافة لله فى الأرض ، وإليها يشير قوله : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (٣) .

٣ - والعمارة للأرض ، وإليها الإشارة بقوله : ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (٤) .



● تقدم متكامل :

إن التقدم الذى يطلبه الإسلام للحياة : تقدم متكامل ، روحى ومادى ،

---

(١) الذاريات : ٥٦ (٢) البقرة : ٣٠

(٣) الأعراف : ١٢٩ (٤) هود : ٦١

أخلاقى وعمرانى ، دنيوى وأخروى ، علمى وإيمانى ، ولا يجد أى تعارض بين هذه المتقابلات ، بل هو يجمع بينها فى توازن واتساق .

إنه تقدم فى الأهداف والغايات ، وتقدم فى الوسائل والأساليب معاً ، فالإسلام أحرص ما يكون على نظافة الوسيلة ، حرصه على شرف الغاية ، ولا يقبل بحال الوصول إلى الغايات النبيلة بوسائل خسيسة أو قذرة ، بل هو يرفض الوصول إلى الحق بطريق الباطل ، يرفض أكل الربا وكسب الحرام لبناء المساجد ، وتشييد المدارس ، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً .

وفى ضوء هذا المفهوم المتكامل للتقدم قامت الحضارة الإسلامية الشامخة التى جمعت بين الروائع المادية التى تمثلت فى مبدعات العمارة والفنون وغيرها ، وبين المعانى الإيمانية والأخلاقية التى كانت هى الدوافع الحقيقية وراء هذا الإبداع ، وكانت هى السند الروحى والمعنوى لهذه الحضارة التى لا تخطىء العين فى عامة مظاهرها ومنجزاتها : إنها حضارة ربَّانية ، محورها الإيمان ، وركيزتها الأخلاق .



بناء الأمة الصالحة

من أهداف الإسلام الأساسية : تكوين (أمة) متميزة ، تطبق رسالته ، وتؤسس حياتها على عقيدته وشريعته ومثله ، وتربى أجيالها على هداه ، وتحمل رسالته إلى العالَم كله ، فتحمل معها الرحمة والنور والخير للبشرية كلها ، كما قال تعالى لرسوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١) ، ولم يكن تكوين هذه الأمة بالأمر السهل فى ظروف نشأة الإسلام المعروفة ، فقد وُلِدَ الإسلام فى جزيرة العرب ، وهى قائمة على القَبَلية والعصبية لها . فالقبيلة هى أساس الولاء ، ومصدر الاعتزاز والانتماء ، فلا مكان لابن القبيلة إلا بها ، بل لا وجود له إلا بها ، فهى النَسب والحَسب ، وهى السُلْطة والقوة ، وهى الاقتصاد والسياسة ، يرضى برضاها ، ويغضب بغضبها ، أو بغضب شيخها ، ويتعصب لابن القبيلة محقاً كان أو مبطلاً ، شعار كل واحد فيها : « انصر أخاك - أى ابن القبيلة - ظالماً أو مظلوماً » بالمعنى الظاهرى للعبارة ، ولقد وصف أحدهم زعيم قبيلة كبيرة بقوله : إنه رجل إذا غضب غضب له مائة ألف سيف لا يسألونه : فيم غضب ؟!

وكل قبيلة تحاول أن تستعلى على القبيلة الأخرى ، وتنقص من أطرافها ، ولهذا كثرت الغارات من بعضهم على بعض ، حتى قال قائلهم :

وأحـــياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا !

فلما جاء الإسلام نقلهم نقلة كبيرة فى عالَم الفكر ، وعالَم الشعور ، وعالَم الواقع ، نقلهم من سجن القَبَلية الضيقة ، إلى باحة الأمة الواسعة . وحذَّر أشد التحذير من الدعوة إلى العصبية بكل ألوانها ، وخصوصاً العصبية للقبيلة .

---

(١) الأنبياء : ١٠٧

وفى الحديث : « ليس منا مَن دعا إلى عصبية ، أو قاتل على عصبية ، أو مات على عصبية » [1] .

« مَن قاتل تحت راية عُمِّيَّة ، يغضب لعَصَبَة ، أو يدعو إلى عَصبة ، أو ينصر عَصبة ، فقُتِل ، فقتلته جاهلية » [2] .

وسُئل صلى الله عليه وسلم عن « العصبية » فقال : « أن تعين قومك على الظلم » [3] ، ففسَّرها بأثرها فى واقع المجتمع القَبَلى ، فصاحب العصبية مع جماعة وإن جاروا وظلموا ، وضد خصومهم وأن بروا وأقسطوا أو أُوذوا وظُلموا ، على خلاف ما جاء به الإسلام من القيام بالقسط : ﴿ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾ [4] ، ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُواْ ﴾ [5] .

وفى لحظة من لحظات الضعف البَشرى ، أطلت النزعة القَبَلية عند بعض الصحابة ، فتنادوا بأسماء قبائلهم : يا بنى فلان ، ويا بنى علان . فغضب النبى ﷺ أشد الغضب ، وقال : « أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم » ؟! [6] وقال عن دعوة العصبية كلمته المعبرة : « دعوها فإنها منتنة » [7] .

لقد أراد الإسلام أن يبنى « أُمة » على أساس العقيدة والفكرة ، وليس على أى أساس مادى أو أرضى مما يبنى عليه البَشر أُممهم ، من عنصر أو لون أو لغة أو أرض ، مما ليس للإنسان فيه إرادة واختيار . بل هو قدر مفروض عليه ،

---

(١) رواه أبو داود فى الأدب (١٥٢١) عن جبير بن مطعم ، والحديث فيه ضعف ، ولكن يشهد له حديث مسلم الآتى بعده .

(٢) رواه مسلم فى الإمارة عن أبى هريرة (١٨٤٨) . وعُمِّيَّة : الأمر لا يستبين وجهه .

(٣) رواه أبو داود فى الأدب (٥١١٩) عن واثلة بن الأسقع ، وابن ماجه فى الفتن (٣٩٤٩) .

(٤) النساء : ١٣٥

(٥) المائدة : ٨

(٦) ذكره ابن كثير فى تفسيره عن ابن إسحاق : ١/٣٨٩

(٧) رواه البخارى .

فلم يختر الإنسان جنسه ولا لونه ولا لغته ولا أرضه التى وُلِدَ فيها . إنما ورث هذا كله دون أن يكون له رأى فيه .

أما العقيدة . . فالأصل فيها أنها من اختيار الإنسان ، وإيمان المقلِّد مشكوك فى قبوله ، بل مرفوض عند المحققين من علماء المسلمين .

أراد الإسلام للمسلمين أن يكونوا أُمة تنتسب إلى الحق لا إلى زيد أو عمرو من البَشر ، فهى لا تقوم على رابطة عِرقية ولا لونية ولا إقليمية ولا طبقية . بل هى أُمة عقيدة ورسالة قبل كل شىء .

هى أُمة الإسلام ، أو أُمة المسلمين كما قال تعالى : ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (١) ، وهى أُمة الإيمان أو أُمة المؤمنين . ولهذا تُنادَى دائماً بـ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ .



● **أوصاف الأُمة الأساسية فى القرآن :**

أبرز ما يميِّز هذه الأُمة عن غيرها من الأُمم أوصاف أربعة ذكرها القرآن :

● **الربانية :**

الأول : الربَّانية - ربانية المصدر ، وربَّانية الوجهة . فهى أُمة أنشأها وحى الله تعالى ، وتعهدتها تعاليمه وأحكامه ، حتى اكتمل لها دينها ، وتمت به نعمة الله عليها كما قال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً ﴾ (٢) .

فالله تعالى هو صانع هذه الأمة . ولهذا نجد القرآن الكريم يقول : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ (٣) . فهذا التعبير « جَعَلْنَاكُمْ » يفيد أنَّ الله هو جاعل هذه الأمة ومتخذها وصانعها .

---

(١) الحج : ٧٨ (٢) المائدة : ٣ (٣) البقرة : ١٤٣

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (١) ، فتعبير « أُخْرِجَتْ » يدل على أن هناك مُخرِجاً أخرج هذه الأُمة ، فهى لم تظهر اعتباطاً ، ولم تكن نباتاً برياً ينبت وحده دون أن يزرعه زارع ، بل هو نبات مقصود متعهَد بالعناية والرعاية . والذى أخرج هذه الأمة وزرعها وهيأها لرسالتها هو الله جَلَّ شأنه .

فهى أُمة مصدرها ربانى ، ووجهتها ربانية كذلك ، لأنها تعيش لله ، ولعبادة الله ، ولتحقيق منهج الله فى أرض الله . فهى من الله وإلى الله (٢) ، كما قال تعالى لرسوله : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلهِ رَبِّ العَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ ﴾ (٣) .

● **الوسطية :**

والثانى : الوَسطية . . التى تؤهل الأمة للشهادة على الناس ، وتبوئها مكان الأستاذية للبَشرية . وفيها جاءت الآية الكريمة : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ (٤) .

وهى وسطية شاملة جامعة : وَسطية فى الاعتقاد والتصور ، ووسطية فى الشعائر والتعبد ، ووَسطية فى الأخلاق والسلوك ، ووَسطية فى النظم والتشريع ، ووَسطية فى الأفكار والمشاعر .

وَسطية بين الروحية والمادية . . بين المثالية والواقعية . . بين الفردية والجَماعية (٥) .

إنها الأمة التى تمثل « الصراط المستقيم » بين السُبل المتعرجة والملتوية ،

---

(١) آل عمران : ١١٠

(٢) انظر : خصيصة « الربانية » فى كتابنا « الخصائص العامة فى الإسلام » ، ط . مكتبة وهبة ومؤسسة الرسالة . (٣) الأنعام : ١٦٢ - ١٦٣ (٤) البقرة : ١٤٣

(٥) انظر : خصيصة « الوسطية » من كتابنا المذكور .

صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض . صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين ، لا صراط المغضوب عليهم ولا الضالين .

● **الدعوة :**

والوصف الثالث : الدعوة . فهى أُمة دعوة ورسالة ، ليست أُمة منكفئة على نفسها ، تحتكر الحق والخير والهداية لذاتها ، ولا تعمل على نشرها فى الناس . بل الدعوة فريضة عليها ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع الإيمان بالله أساس تفضيلها على كل الأمم . كما قال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﴾ (١) .

فهى لم ترجح سائر الأُمم فى ميزان الله لسبب مادى أو عنصرى . كيف وهى تتكون من عناصر شتَّى ، من كل مَن يدخل فى دين الله من أجناس البَشر عرباً أو عجماً ؟

إنما رجحت فى ميزان الحق ؛ لأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله .

وقبل ذلك بآيات ، قال الله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

ومعناها عل أحد التفسيرين : اجعلوا من أنفسكم أُمة الدعوة والأمر والنهى ، فبهذا تستحقون أن يُقصر الفلاح عليكم . و« من » هنا تجريدية لا تبعيضية .

وعلى التفسير الآخر : هيئوا منكم طائفة متماسكة قادرة على الدعوة والأمر والنهى . ولتسقط فرض الكفاية عنكم ، وتكونوا أنتم عوناً لها .

إن رسالة الإسلام رسالة عالَمية ، رسالة لكل الأجناس ، ولكل الألوان ،

---

(١) آل عمران : ١١٠ (٢) آل عمران : ١٠٤

ولكل الأقاليم ، ولكل الشعوب ، ولكل اللغات ، ولكل الطبقات . كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ (٢) .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ (٣) .

وعلى الأُمة المسلمة أن تدعو الناس جميعاً إلى الإسلام بألسنتهم حتى نبيِّن لهم ، ونقيم الحُجَّة عليهم ، وأن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، حتى لا تُلعن كما لُعِنَ الذين من قبلها حين فرَّطوا فى هذا الواجب : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ من بَنِى إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ * كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ (٤) .

● **الوحدة :**

والوصف الرابع : الوحدة . فالأُمة التى يريدها الإسلام أُمة واحدة ، وإن تكونت من عروق وألوان وطبقات ، فقد صهرها الإسلام جميعاً فى بوتقته ، وأذاب الفوارق بينها ، وربطها بالعروة الوثقى لا انفصام لها .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَّاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ (٥) .

ويقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ (٦) .

وكيف لا تكون هذه الأُمة واحدة ، وقد وحَّد الله عقيدتها وشريعتها ، وحَّد غايتها ، ووحَّد منهاجها ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ، وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ (٧) .

---

(١) الأنبياء : ١٠٧ (٢) الفرقان : ١ (٣) الأعراف : ١٥٨
(٤) المائدة : ٧٨ - ٧٩ (٥) الأنبياء : ٩٢ (٦) المؤمنون : ٥٢
(٧) الأنعام : ١٥٣

أمة ربها واحد هو الله ، ونبيها واحد هو محمد ﷺ ، وكتابها واحد هو القرآن ، وقِبْلتها واحدة هى الكعبة البيت الحرام ، وشريعتها واحدة هى شريعة الإسلام ، ووطنها واحد هو « دار الإسلام » على اتساعها ، وقيادتها واحدة تتمثل فى « خليفة المسلمين » وأمير المؤمنين ، الذى يُجسِّم الوحدة السياسية للأُمة .

ولهذا رفض الإسلام أن يكون للمسلمين خليفتان فى وقت واحد ، حرصاً على وحدة الأُمة ، ومنعاً لتفرق كلمتها ، وشتات أمرها .

ولهذا لا يجوز أن نقول فى تعبيرنا : الأُمم الإسلامية ، بل الأُمة الإسلامية فهى أمة واحدة كما أمر الله ، وليست أمماً متفرقة ، كما أراد الاستعمار .

يقول الله تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ ﴾ (١) .

ويقول : ﴿ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢) .

ولقد نبَّه القرآن على دسائس بعض أهل الكتاب الذين يسعون جهدهم لتمزيق شمل المسلمين ، وإثارة النعرات العصبية بينهم ، قال تعالى محذراً : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴾ (٣) .

وسبب نزول الآية الكريمة وما بعدها يدل على أن المقصود : يردوكم بعد وحدتكم متفرقين ، وبعد أخوَّتكم متعادين .

إن وحدة الأُمة توجب عليها أن تجعل أخوتها الإسلامية فوق كل العصبيات ، فقد جعلها الله تعالى معبِّرة عن الإيمان ومجسدة له : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (٤) .

---

(١) آل عمران : ١٠٣
(٢) آل عمران : ١٠٥
(٣) آل عمران : ١٠٠
(٤) الحجرات : ١٠

وقال رسوله الكريم ﷺ : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه »(١) أى لا يخذله عند الشدة أو عند الاعتداء عليه ، بل ينصره ويسانده ، وهذا هو مقتضى الأُخوة . وهو ما يؤكده الحديث الآخر : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، يسعى بذمتهم أدناهم ، ويجير عليهم أقصاهم ، وهم يد على مَن سواهم »(٢) .

ويُحذِّر الإسلام أبلغ التحذير من تعادى أبناء الأُمة الواحدة إلى حد أن يحارب بعضها بعضاً ، كما كانت تفعل قبائل الجاهلية . يقول ﷺ : « لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض »(٣) ، « سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر »(٤) .



● الإيمان بالأُمة لا ينفى خصوصيات الأقوام :

ومن المفيد هنا أن ننبِّه على قضية ذات شأن ، وهى : أن الإيمان بـ « الأُمة » المؤسسة على عقيدة الإسلام ، وأُخوّة الإيمان ، والتى تضم جميع المسلمين فى رحابها حيث كانوا - لا ينفى أن هناك خصوصيات معيَّنة لكل قوم ، يعتزون بها ، ويحافظون عليها ، ولا يُفرِّطون فيها ، ولا مانع من ذلك إذا لم تتحول إلى عصبية عِرقية تقاوم أخوة الإسلام ، أو إلى نزعة أنانية انفصالية تهدد وحدة دولة الإسلام .

ولقد ترك الرسول ﷺ وأصحابه من بعده القبائل تقاتل تحت راياتها ، تحت القيادة الإسلامية العامة ، ليكون ذلك مصدراً إضافياً لحماسهم وإقدامهم ، حتى لا يجلبوا العار على أقوامهم وعشائرهم .

---

(١) متفق عليه عن ابن عمر كما فى صحيح الجامع الصغير .

(٢) رواه أبو داود فى الجهاد (٢٧٥١) ، وابن ماجه (٢٨٥٢) عن عبد الله بن عمرو .

(٣) متفق عليه عن جرير بن عبد الله كما فى اللؤلؤ والمرجان (٤٤) ، وعن ابن عمر (٤٥) .

(٤) متفق عليه عن ابن مسعود كما فى اللؤلؤ والمرجان (٤٣) .

إنَّ حب الرجل لقومه وعشيرته ورغبته فى جلب الخير لهم ، ودفع الشر عنهم ، نزعة فطرية لا غبار عليها ، ولا خطر فيها . كما لا خطر فى حبه لأسرته ، واهتمامه بها ، ولا غرو أن أمر الرسول بتعلم الأنساب لما وراءها من تواصل فى الأرحام وإن تباعدت : « تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم » (١) .

وفى الحديث : « خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يأثم » (٢) .

إنَّ الخطر إنما يتمثل فيما إذا وقف قومه موقفاً معادياً للإسلام ، وحادوا الله ورسوله ، هنا تحرم الموادة والموالاة ، ولو كانت لأقرب الناس للإنسان ، كأمه وأبيه وزوجه وأخيه .

يقول تعالى : ﴿ لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُواْ آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ (٣) .

ويقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لا تَتَّخِذُواْ آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ ، وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِىَ اللهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٤) .

لا بأس أن يحب الرجل أسرته ، ويحب قومه وعشيرته ، ولكن إذا

---

(١) رواه الترمذى فى البِّر والصلة عن أبى هريرة وقال : غريب من هذا الوجه (١٩٨٠) ، وأحمد : ٢/ ٣٧٤ ، والحاكم ، وصححَّه ووافقه الذهبى : ٤/ ١٦١

(٢) رواه أبو داود من حديث سراقة بن مالك فى الأدب (٥١٢٠) ، وفيه أيوب بن سويد ، ضعيف .

(٣) المجادلة : ٢٢ (٤) التوبة : ٢٣ - ٢٤

تعارض ذلك مع حب الله ورسوله . فإن حب الله ورسوله أغلى من كل شىء . هنا يتغنى المسلم بقول القائل :

أبى الإسلام لا أب لى سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم !

هنا يقول المسلم ما قاله سلمان رضى الله عنه حين سُئل : ابن مَن أنت ؟ فقال : أنا ابن الإسلام !



● القومية عند حسن البنا :

ولقد كان هذا المعنى واضحاً عند الإمام البنا ، فلم يرفض فكرة « القومية » رفضاً كلياً ، ولم يقبلها قبولاً مطلقاً ، بل فصَّل فيها كما فصَّل فى « الوطنية » قال رضى الله عنه :

« إن كان الذين يعتزون بمبدأ « القومية » يقصدون به أن الأخلاف يجب أن ينهجوا نهج الأسلاف فى مراقى المجد والعظمة ومدارك النبوغ والهمة وأن تكون لهم بهم فى ذلك قدوة حسنة ، وأن عظمة الأب مما يعتز به الابن ويجد لها الحماس والأريحية بدافع الصلة والوراثة ، فهو مقصد حسن جميل نشجعه ونأخذ به ، وهل عُدَّتنا فى إيقاظ همة الحاضرين إلا أن نحدوهم بأمجاد الماضين ؟ ولعل الإشارة إلى هذا فى قول رسول الله ﷺ : « الناس معادن ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا » (١) فها أنت ذا ترى أن الإسلام لا يمنع من القومية بهذا المعنى الفاضل النبيل .

وإذا قُصِدَ بالقومية أن عشيرة الرجل وأُمته أولى الناس بخيره وبره وأحقهم بإحسانه وجهاده فهو حق كذلك ، ومن ذا الذى لا يرى أولى الناس بجهوده قومه الذين نشأ فيهم ونما بينهم ؟

لَعمرى لرهط المرء خير بقية عليه وإن عالوا به كل مركب

---

(١) متفق عليه عن أبى هريرة كما فى صحيح الجامع الصغير .

وإذا قُصدَ بالقومية أننا جميعاً مبتلون مطالَبون بالعمل والجهاد ، فعلى كل جماعة أن تحقق الغاية من جهتها حتى تلتقى إن شاء الله فى ساحة النصر فنِعْمَ التقسيم هذا ، ومَن لنا بمن يحدو الأمم الشرقية كتائب كل فى ميدانها حتى نلتقى جميعاً فى بحبوحة الحرية والخلاص ؟

كل هذا وأشباهه فى معنى القومية جميل معجب لا يأباه الإسلام ، وهو مقياسنا ، بل ينفسح صدرنا له ونحض عليه .

أما أن يُراد بالقومية إحياء عادات جاهلية درست ، وإقامة ذكريات بائدة خلت وتعفية حضارة نافعة استقرت ، والتحلل من عُقدة الإسلام ورباطه بدعوى القومية والاعتزاز بالجنس ، كما فعلت بعض الدول فى المغالاة بتحطيم مظاهر الإسلام والعروبة ، حتى الأسماء وحروف الكتابة وألفاظ اللغة ، وإحياء ما اندرس من عادات جاهلية ، فذلك فى القومية معنى ذميم وخيم العاقبة سيئ المغبة ، يؤدى بالشرق إلى خسارة فادحة يضيع معها تراثه وتنحط بها منزلته ويفقد أخص مميزاته وأقدس مظاهر شرفه ونبله ، ولا يضر ذلك دين الله شيئاً : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُواْ أَمْثَالَكُمْ ﴾ (١) .

وأما أن يُراد بالقومية الاعتزاز بالجنس إلى درجة تؤدى إلى انتقاص الأجناس الأخرى والعدوان عليها والتضحية بها فى سبيل عزة أمة وبقائها ، كما تنادى بذلك ألمانيا وإيطاليا مثلاً ، بل كما تدَّعى كل أمة تنادى بأنها فوق الجميع . فهذا معنى ذميم كذلك ليس من الإنسانية فى شىء ، ومعناه أن يتناحر الجنس البَشرى فى سبيل وهم من الأوهام لا حقيقة له ولا خير فيه .

الإخوان المسلمون لا يؤمنون بالقومية بهذه المعانى ولا بأشباهها ولا يقولون فرعونية وعربية وفينيقية وسورية ولا شيئاً من هذه الألقاب والأسماء التى يتنابز بها الناس ، ولكنهم يؤمنون بما قال رسول الله ﷺ الإنسان الكامل بل أكمل

---

(١) محمد : ٣٨

معلم علَّم الإنسان الخير : « إنَّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظُّمَها بالآباء ، الناس لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى »(1) ما أروع هذا وأجمله وأعدله ، الناس لآدم فهم فى ذلك أكفاء ، والناس يتفاضلون بالأعمال فواجبهم التنافس فى الخير ؛ دعامتان قويمتان لو بنيت عليهما الإنسانية لارتفعت بالبَشر إلى علياء السموات ؛ الناس لآدم فهم إخوان فعليهم أن يتعاونوا وأن يسالِم بعضهم بعضاً ، ويرحم بعضهم بعضاً ، ويدل بعضهم بعضاً على الخير ، والتفاضل بالأعمال . فعليهم أن يجتهدوا كل من ناحيته حتى ترقى الإنسانية ، فهل رأيت سمواً بالإنسانية أعلى من هذا السمو أو تربية أفضل من هذه التربية ؟



● خواص العروبة :

ثم يقول الأستاذ البنا رحمه الله : « ولسنا مع هذا ننكر خواصٌ الأمم ومميزاتها الخُلُقية ، فنحن نعلم أن لكل شعب مميزاته وقسطه من الفضيلة والخُلُق ، ونعلم أن الشعوب فى هذا تتفاوت وتتفاضل ، ونعتقد أن العروبة لها من ذلك النصيب الأوفى والأوفر ، ولكن ليس معنى هذا أن تتخذ الشعوب هذه المزايا ذريعة إلى العدوان ، بل عليها أن تتخذ ذلك وسيلة إلى تحقيق المهمة السابقة التى كُلِّفها كل شعب ، تلك هى النهوض بالإنسانية ، ولعلك لستَ واجداً فى التاريخ مَن أدرك هذا المعنى من شعوب الأرض كما أدركته تلك الكتيبة العربية من صحابة رسول الله ﷺ » اهـ .

وبهذا لم ير الإمام البنا أن يقيم تعارضاً لا ضرورة له بين العروبة والإسلام .



---

(1) رواه أبو داود فى الأدب (5116) ، والترمذى فى المناقب وحسَّنه (3950) ، وأحمد والبيهقى عن أبى هريرة . انظر : كتابنا « المنتقى من الترغيب والترهيب » ط . حديث (1792) .

بناء الدولة الصالحة

وكما حرص الإسلام على إنشاء الأمة الصالحة المصلحة ، ذات الرسالة الربانية الإنسانية الأخلاقية العالمية ، هدف كذلك إلى أن تحكم هذه الأمة دولة صالحة ، تحقق أهدافها ، وتنمى خصائصها ، وتحافظ على رسالتها ، وتعمل على غرسها فى الداخل ، ونشرها فى الخارج .

ولقد استطاع الاستعمار الذى حكم أكثر بلاد المسلمين - أن يغرس فى الكثيرين منهم فكرة دخيلة ، مؤداها أن الإسلام دين لا دولة . « دين » بالمفهوم الغربى لكلمة « الدين » أما شئون الدولة فلا صلة له بها . وإنما ينظمها العقل الإنسانى وفقاً لتجاربه وظروفه المتطورة !

لقد أرادوا أن يُطبِّقوا على الإسلام فى الشرق ، ما طُبِّقَ على المسيحية فى الغرب . فكما أن النهضة هناك لم تتم إلا بعد التحرر من سلطان الدين ، فكذلك يجب أن تقوم النهضة فى شرقنا العربى الإسلامى على أنقاض الدين !

مع أن الدين هناك معناه الكنيسة وسلطة البابا ، واستبداد رجال الكهنوت بالضمائر والأرواح . فأين هذا من الدين هنا ، وليس فيه بابا ولا كهنوت ولا استبداد بالضمائر والأرواح ؟! (١) .

على كل حال ، لقد نجح الاستعمار فى خلق فئات تؤمن أن الدين لا مكان له فى توجيه الدولة وتنظيمها ، وأن الدين شىء والسياسة شىء آخر ، وأن هذا يجرى على الإسلام ، كما جرى على المسيحية . وكان من

---

(١) انظر : فصل « دين لا دولة » من كتاب « الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى » للدكتور محمد البهى ، وانظر : فصل « دولة إسلامية لا دولة دينية » من كتابنا « بينات الحل الإسلامى وشبهات العلمانيين والمتغربين » .

الشعارات المضللة التى شاعت أن « الدين لله والوطن للجميع » ! وهى كلمة حق يُراد بها باطل ، ويمكن أن تقلب على كل الوجوه . فنستطيع أن نقول : إن الدين لله والوطن لله ، أو : الدين للجميع والوطن للجميع ، أو : الدين للجميع والوطن لله !

وإنما مرادهم بكلمة « الدين لله » أن الدين مجرد علاقة بين ضمير الإنسان وربه ، ولا مكان له فى نظام الحياة والمجتمع .

وكان أبرز مثل عملى لذلك هو « الدولة العلمانية » التى أقامها كمال أتاتورك فى تركيا ، وفرضها بالحديد والنار والدم على مجموع الشعب التركى المسلم ، بعد تحطيم الخلافة العثمانية آخر حصن سياسى بقى للإسلام بعد صراع القرون ، مع الصليبية واليهودية العالَمية .

وقد أخذت الحكومات فى البلاد الإسلامية الأخرى تقلد تركيا الجديدة ، على درجات متفاوتة ، فأقصى الإسلام عن الحكم والتشريع فى الأمور الجنائية والمدنية ونحوها ، وبقى محصوراً فيما سمى « الأحوال الشخصية » كما أقصى عن التوجيه والتأثير فى الحياة الثقافية والتربوية والاجتماعية إلا فى حدود ضئيلة . وفسح المجال كل المجال للتوجيه الغربى والثقافة الغربية والتقاليد الغربية .

وكان من أبرز المظاهر لنجاح الغزو الثقافى الغربى أن « الفكر العلمانى » الدخيل الذى ينادى بفصل الدين عن الدولة ، لم يقف عند الرجال « المدنيين » وحدهم ، بل تعدَّاهم إلى بعض الذين درسوا دراسة دينية فى معهد إسلامى عريق كالأزهر ، كما تجلى ذلك فى كتاب الشيخ على عبد الرازق « الإسلام وأصول الحكم » .

ومن الإنصاف أن نقول : إن هذا الكتاب قد أحدث ضجة هائلة حين صدوره ، فى المجتمع عامة ، وفى الأزهر خاصة ، وقد شُكِّلت هيئة من كبار علماء الأزهر لمحاكمة مؤلفه ، فقضت بتجريده من شهادة العالِمية ، وإخراجه

من زُمرة العلماء ، كما رد عليه كثير من العلماء والمفكرين أزهريين وغير أزهريين [1] .

كان لا بد إذن من تأكيد الوقوف فى وجه العلمانية ودعاتها ومبرريها ، بتأكيد شمول الإسلام ، وإبراز هذا الجانب الحى من أحكامه وتعاليمه : جانب الدولة ، وتنظيمها وتوجيهها بأحكامه وآدابه ، وإعلان أن ذلك جزء لا يتجزأ من نظام الإسلام .



● **الدليل من نصوص الإسلام :**

ولم يكن هذا ابتكاراً من الحركة الإسلامية ومؤسسها ودعاتها . بل هو ما تنطق به نصوص الإسلام القاطعة ، ووقائع تاريخه الثابتة ، وطبيعة دعوته الشاملة .

أما نصوص الإسلام فحسبنا منها آيتان من سورة النساء : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الأَمَانَات إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالعَدْل ، إِنَّ اللهَ نعمَّا يَعظُكُم به ، إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُولِى الأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُول ﴾ [2] .

فالخطاب فى الآية الأولى للولاة والحكَّام : أن يرعوا الأمانات ويحكموا بالعدل ، فإنَّ إضاعة الأمانة والعدل نذير بهلاك الأمة وخراب الديار . ففى الصحيح : « إذا ضُيِّعَت الأمانة فانتظروا الساعة » . قيل : وكيف إضاعتها ؟ قال : « إذا وُسِّدَ الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » [3] .

---

(١) ممن ردوا عليه العلامة المجاهد محمد الخضر حسين ، شيخ الأزهر الأسبق فى كتاب سماه « نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم » ، والعلامة الشيخ محمد بخيت المطيعى مفتى مصر فى زمنه .

(٢) النساء : ٥٨ - ٥٩

(٣) رواه البخارى فى كتاب العلم (حديث ٥٩ الفتح : ١/ ١٤١) عن أبى هريرة . وكرره فى كتاب « الرقاق » .

والخطاب فى الآية الثانية للرعية المؤمنين : أن يطيعوا « أُولى الأمر » بشرط أن يكونوا « منهم » وجعل هذه الطاعة بعد طاعة الله وطاعة الرسول ، وأمر عند التنازع برد الخلاف إلى الله ورسوله ، أى إلى الكتاب والسُّنَّة . وهذا يفترض أن يكون للمسلمين دولة تهيمن وتُطاع ، وإلا لكان هذا الأمر عبثاً .

وفى ضوء الآيتين المذكورتين ألَّف شيخ الإسلام ابن تيمية كتابه المعروف « السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية » والكتاب كله مبنى على الآيتين الكريمتين .

وإذا ذهبنا إلى السُّنَّة ، رأينا الرسول ﷺ يقول : « مَن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » (١) . ولا ريب أنَّ من المحرَّم على المسلم أن يبايع أى حاكم لا يلتزم بالإسلام . فالبيعة التى تنجيه من الإثم أن يبايع مَن يحكم بما أنزل الله . . فإذا لم يوجد ذلك فالمسلمون آثمون حتى يتحقق الحكم الإسلامى ، وتتحقق به البيعة المطلوبة . ولا ينجى المسلم من هذا الإثم إلا أمران : الإنكار - ولو بالقلب - على هذا الوضع المنحرف المخالف لشريعة الإسلام . .

والسعى الدائب لاستئناف حياة إسلامية قويمة ، يوجهها حكم إسلامى صحيح .

وجاءت عشرات الأحاديث الصحيحة عن الخلافة والإمارة والقضاء والأئمة وصفاتهم وحقوقهم من الموالاة والمعاونة على البر ، والنصيحة لهم وطاعتهم فى المنشط والمكره ، والصبر عليهم ، وحدود هذه الطاقة وهذا الصبر ، وتحديد واجباتهم من إقامة حدود الله ورعاية حقوق الناس ، ومشاورة أهل الرأى ، وتولية الأقوياء الأمناء ، واتخاذ البطانة الصالحة ، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . . إلى غير ذلك من أمور الدولة وشئون الحكم والإدارة والسياسة .

---

(١) رواه مسلم عن ابن عمر فى كتاب الإمارة - حديث رقم (١٨٥١) .

ولهذا رأينا شئون الأمة والخلافة تُذكر فى كتب العقائد وأصول الدين ، كما رأيناها تُذكر فى كتب الفقه ، كما رأينا كتباً خاصة بشئون الدولة الدستورية والإدارية والمالية والسياسية ، كالأحكام السلطانية للماوردى ، ومثله لأبى يعلى، والغياثى لإمام الحرمين ، والسياسة الشرعية لابن تيمية ، وتحرير الأحكام لابن جماعة ، والخراج لأبى يوسف ، ومثله ليحيى بن آدم ، والأموال لأبى عبيد ، ومثله لابن زنجويه . . . وغير ذلك مما أُلِّف ليكون مرجعاً للقضاة والحكَّام كالطُرق الحكمية ، والتبصرة ، ومعين الحكَّام . وما شابهها .



• الدليل من تاريخ الإسلام :

أما تاريخ الإسلام . . فينبئنا أن رسول الله ﷺ سعى بكل ما استطاع من قوة وفكر - مؤيَّداً بهداية الوحى - إلى إقامة دولة للإسلام ، ووطن لدعوته ، خالص لأهله ، ليس لأحد عليهم فيها سلطان ، إلا سلطان الشريعة . ولهذا كان يعرض نفسه على القبائل ليؤمنوا به ويمنعوه ويحموا دعوته ، حتى وفَّق الله « الأنصار » من الأوس والخزرج إلى الإيمان برسالته ، فلما انتشر فيهم الإسلام جاء وفد منهم إلى موسم الحج مكوَّن من ٧٣ رجلاً وامرأتين ، فبايعوه - صلى الله عليه وسلم - على أن يمنعوه مما يمنعون أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم ، وعلى السمع والطاعة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . . إلخ . . فبايعوه على ذلك . . وكانت الهجرة إلى المدينة ليست إلا سعياً لإقامة المجتمع المسلم المتميِّز ، تشرف عليه دولة مسلمة متميزة .

كانت « المدينة » هى « دار الإسلام » وقاعدة الدولة الإسلامية الجديدة ، التى يرأسها رسول الله ﷺ فهو قائد المسلمين وإمامهم ، كما إنه نبيهم ورسول الله إليهم .

وكان الانضمام إلى هذه الدولة ، لشد أزرها ، والعيش فى ظلالها ، والجهاد تحت لوائها ، فريضة على كل داخل فى دين الإسلام حينذاك . فلا

يتم إيمانه إلا بالهجرة إلى دار الإسلام ، والخروج من دار الكفر والعداوة للإسلام ، والانتظام فى سلك الجماعة المؤمنة المجاهدة التى رماها العالَم عن قوس واحدة . يقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وِلَايَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ ﴾ (١) . ويقول فى شأن قوم :

﴿ فَلا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ اللهِ ﴾ (٢) .

كما نزل القرآن الكريم يندد أبلغ تنديد بأولئك الذين يعيشون مختارين فى دار الكفر والحرب ، دون أن يتمكنوا من إقامة دينهم وأداء واجباتهم وشعائرهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِى أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الأَرْضِ ، قَالُواْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ، فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَسَاءَتْ مَصِيراً * إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ، وَكَانَ اللهُ عَفُوّاً غَفُوراً ﴾ (٣) .

وعند وفاة النبى ﷺ كان أول ما شغل أصحابه رضى الله عنهم ، أن يختاروا « إماماً » لهم ، حتى إنهم قدَّموا ذلك على دفنه – صلى الله عليه وسلم – فبادروا إلى بيعة أبى بكر ، وتسليم النظر إليه فى أمورهم ، وكذا فى كل عصر من بعد ذلك ، وبهذا الإجماع التاريخى ابتداءً من الصحابة والتابعين – مع ما ذكرنا من النصوص – استدل علماء الإسلام على وجوب نصب الإمام الذى هو رمز الدولة الإسلامية وعنوانها .

ولم يعرف المسلمون فى تاريخهم انفصالاً بين الدين والدولة إلا عندما نجم

---

(١) الأنفال : ٧٢

(٢) إن بديل الهجرة إلى الدولة المسلمة هو الانضمام إلى الجماعة المسلمة التى تعمل لإقامة دولة الإسلام ، فهو فريضة على كل مسلم بحسب وسعه – والآية من سورة النساء : ٨٩

(٣) النساء : ٩٧ – ٩٩

قرن العلمانية فى هذا العصر ، وهو ما حذر الرسول ﷺ منه ، وأمر بمقاومته كما فى حديث معاذ : « ألا إنَّ رحى الإسلام دائرة ، فدوروا مع الإسلام حيث دار ، ألا إن القرآن والسلطان سيفترقان (أى الدين والدولة) فلا تفارقوا الكتاب . ألا إنه سيكون عليكم أمراء يقضون لأنفسهم ما لا يقضون لكم ، فإن عصيتموهم قتلوكم ، وإن أطعتموهم أضلوكم » . قالوا : وماذا نصنع يا رسول الله ؟ قال : « كما صنع أصحاب عيسى ابن مريم : نُشِروا بالمناشير ، وحُملوا على الخُشب . موت فى طاعة الله خير من حياة فى معصية الله » (١) .



● الدليل من طبيعة الإسلام :

أما طبيعة الإسلام ورسالته ، فذلك أنه دين عام ، وشريعة شاملة ، وشريعة هذه طبيعتها لا بد أن تتغلغل فى كافة نواحى الحياة ، ولا يتصوّر أن تهمل شأن الدولة ، وتدعها للمتحللين والملحدين ، أو الفسقة ، يديرونها تبعاً للهوى .

كما إن هذا الدين يدعو إلى التنظيم وتحديد المسئولية ، ويكره الاضطراب والفوضى فى كل شىء ، حتى رأينا الرسول ﷺ يأمرنا فى الصلاة أن نسوِّى الصفوف وأن يؤمَّنا أعلمنا ، وفى السفر يقول : أمِّروا أحدكم .

---

(١) رواه إسحاق بن راهويه فى مسنده عن سويد بن عبد العزيز ، وهو ضعيف ، وأحمد بن منيع ورواته ثقات كما قال البوصيرى فى « الإتحاف » . انظر : المطالب العالية لابن حجر بتحقيق الشيخ حبيب الرحمن الأعظمى - نشر أوقاف الكويت جـ ٤ حديث (٤٤٠٨) ، ورواه الطبرانى ، وفيه يزيد بن مرثد لم يسمع من معاذ ، ووثَّقه ابن حبان وغيره وضعَّفه جماعة ، وبقية رواته ثقات . انظر : مجمع الزوائد للهيثمى : ٥/ ٢٣٨

يقول الإمام ابن تيمية فى « السياسة الشرعية » : يجب أن يُعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين ، بل لا قيام للدين ولا للدنيا إلا بها . فإن بنى آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع ، لحاجة بعضهم إلى بعض ، ولا بد عند الاجتماع من رأس . حتى قال النبى ﷺ : « إذا خرج ثلاثة فى سفر ، فليؤمِّروا أحدهم » (رواه أبو داود من حديث أبى سعيد وأبى هريرة) (١) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو أن النبى ﷺ قال : « لا يحل لثلاثة أن يكونوا بفلاةٍ من الأرض إلا أمَّروا عليهم أحدهم » فأوجب صلى الله عليه وسلم تأمير الواحد فى الاجتماع القليل العارض فى السفر ، تنبيهاً بذلك على سائر أنواع الاجتماع .

« ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة ، وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل ، وإقامة الحج والجُمَع والأعياد ، ونُصرة المظلوم ، وإقامة الحدود ، لا تتم إلا بالقوة والإمارة . ولهذا روى : « إن السلطان ظل الله فى الأرض » . ولهذا كان السَّلَف كالفضيل بن عياض وأحمد بن حنبل وغيرهما يقولون : لو كانت لنا دعوة مجابة ، لدعونا بها للسلطان » (٢) . وذلك لأن الله يُصلح بصلاحه خلقاً كثيراً .

ثم إن طبيعة الإسلام باعتباره منهجاً يريد أن يسود ويقود ويُوجِّه الحياة ، ويحكم المجتمع ، ويضبط سير البَشر وفق أوامر الله ، لا يُظن به أن يكتفى بالخطابة والتذكير والموعظة الحسنة ، ولا أن يدع أحكامه ووصاياه وتعليماته فى شتَّى المجالات إلى ضمائر الأفراد وحدها ، فإذا سقمت هذه الضمائر أو ماتت ، سقمت معها وماتت تلك الأحكام والتعاليم . وقد قال الخليفة الثالث رضى الله عنه : « إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » .

---

(١) ورواه الطبرانى عن عبد الله ، ورجاله رجال الصحيح كما فى مجمع الزوائد : ٥/ ٢٤٩

(٢) السياسة الشرعية ، ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : ٢٨/ ٣٩٠ ، ٣٩١

فمن الناس مَن يهديه الكتاب والميزان ، ومنهم مَن لا يردعه إلا الحديد والسنان . ولذا قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ (١) .

قال ابن تيمية : فمن عَدَل عن الكتاب عُدِّلَ بالحديد ، ولهذا كان قوام الدين بالمصحف والسيف (٢) .

وقال الإمام الغزالى : الدنيا مزرعة الآخرة ، ولا يتم الدين إلا بالدنيا ، والملك والدين توأمان ، فالدين أصل ، والسلطان حارس ، وما لا أصل له فمهدوم ، وما لا حارس له فضائع ، ولا يتم الملك والضبط إلا بالسلطان (٣) .

إن نصوص الإسلام لو لم تجئ صريحة بوجوب إقامة دولة للإسلام ، ولم يجئ تاريخ الرسول وأصحابه تطبيقاً عملياً لما دعت إليه هذه النصوص - لكانت طبيعة الرسالة الإسلامية نفسها تحتم أن تقوم للإسلام دولة أو دار ، يتميَّز فيها بعقائده وشعائره وتعاليمه ومفاهيمه ، وأخلاقه وفضائله ، وتقاليده وتشريعاته .

فلا غنى للإسلام عن هذه الدولة المسئولة فى أى عصر ، ولكنه أحوج ما يكون إليها فى هذا العصر خاصة . هذا العصر الذى برزت فيه « الدولة الأيديولوچية » ، وهى الدولة التى تتبنى فكرة ، يقوم بناؤها كله على أساسها ، من تعليم وثقافة وتشريع وقضاء واقتصاد ، إلى غير ذلك من الشئون الداخلية والسياسة الخارجية . كما نرى ذلك واضحاً فى الدولة الشيوعية والاشتراكية . وأصبح العلم الحديث بما وفره من تقدم تكنولوچى فى خدمة الدولة ، وأصبحت الدولة بذلك قادرة على التأثير فى عقائد المجتمع وأفكاره وعواطفه وأذواقه

---

(١) الحديد : ٢٥ (٢) مجموع الفتاوى : ٢٨/ ٢٦٤

(٣) إحياء علوم الدين : ١/ ٧١ ، كتاب « العلم » .

وسلوكه بصورة فعَّالة ، لم يُعرف لها مثيل من قبل . بل تستطيع الدولة بأجهزتها الحديثة الموجهة أن تغيِّر قيم المجتمع ومُثُله وأخلاقه رأساً على عقب ، إذا لم تقم فى سبيلها مقاومة أشد .

إن دولة الإسلام « دولة فكرية » ، دولة تقوم على عقيدة ومنهج ، فليست مجرد « جهاز أمن » يحفظ الأمة من الاعتداء الداخلى أو الغزو الخارجى ، بل إن وظيفتها لأعمق من ذلك وأكبر . وظيفتها تعليم الأمة وتربيتها على تعاليم ومبادئ الإسلام ، وتهيئة الجو الإيجابى والمناخ الملائم ، لتحول عقائد الإسلام وأفكاره وتعاليمه إلى واقع عملى ملموس ، يكون قدوة لكل مَن يلتمس الهدى ، وحُجَّة على كل سالك سبيل الردى .

ولهذا يُعرِّف ابن خلدون « الخلافة » بأنها : حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ، ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة . فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به [(١)] .

ولهذا وصف الله المؤمنين حين يمكَّن لهم فى الأرض ، وبتعبير آخر حين تقوم لهم دولة ، فقال : ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ أَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ وَأَمَرُواْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [(٢)] .

إن شعار دولة الإسلام ما قاله ربعى بن عامر لرستم قائد الفُرس : إنَّ الله بعثنا لنُخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

ثم إن هذه الدولة الفكرية ليست ذات صفة محلية ، ولكنها دولة ذات رسالة عالَمية ، لأن الله حمّل أمة الإسلام دعوة البَشرية إلى ما لديها من

---

(١) مقدمة ابن خلدون : ٥١٨/٢ ، طبعة لجنة البيان العربى بتحقيق د . على عبد الواحد وافى .

(٢) الحج : ٤١

هدى ونور ، وكلّفها الشهادة على الناس ، والأستاذية للأمم ، فهى أمة لم تنشأ بنفسها ولا لنفسها فحسب ، بل أُخرجت للناس ، أخرجها الله الذى جعلها خير أمة وخاطبها بقوله سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (١) .

ومن هنا وجدنا النبى ﷺ حين أُتيحت له أول فرصة - بعد صلح الحديبية - كتب إلى ملوك العالَم وأمراء الأقطار فى أركان الأرض يدعوهم إلى الله ، والانضواء تحت راية التوحيد ، وحمّلهم إثم أنفسهم وإثم رعيتهم إذا تخلّفوا عن ركب الإيمان ، وكان يختم رسائله بهذه الآية : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللهِ ، فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٢) .



● حاجتنا إلى دولة تحتضن الإسلام :

إن أول ما تحتاج إليه الدعوة الإسلامية فى هذا العصر أن تقوم « دار للإسلام » أو « دولة للإسلام » تتبنى رسالة الإسلام عقيدة ونظاماً ، وحياة وحضارة . وتقيم حياتها كلها : المادية والأدبية ، على أساس من هذه الرسالة الشاملة ، وتفتح بابها لكل مؤمن يريد الهجرة من ديار الكفر والظلم والابتداع .

هذه الدولة المنشودة ضرورة إسلامية ، وهى أيضاً ضرورة إنسانية ، لأنها ستقدِّم للبَشرية المثل الحى ، لاجتماع الدين والدنيا ، وامتزاج المادة بالروح ، والتوفيق بين الرقى الحضارى ، والسمو الأخلاقى ، وتكون هى اللبنة الأولى لقيام دولة الإسلام الكبرى ، التى توحِّد الأمة المسلمة تحت راية القرآن ، وفى ظل خلافة الإسلام . ولكن القوى المعادية للإسلام ، تبذل جهوداً جبارة

---

(١) البقرة : ١٤٣ (٢) آل عمران : ٦٤

مستميتة دون قيام هذه الدولة فى أى رقعة من الأرض ، وإن صغرت مساحتها وقَلَّ سكانها .

قد يسمح الغربيون بدولة ماركسية ، وقد يسمح الشيوعيون بدولة ليبرالية ، ولكن لا هؤلاء ولا أولئك يسمحون بدولة إسلامية صحيحة الإسلام ، ولا غرو أن نراهم اليوم يوجهون رماحهم وسهامهم إلى دولة السودان ، لإعلانها التمسك بالإسلام عقيدة وشريعة . وكذلك حالوا فى الجزائر بين الإسلاميين والوصول إلى الحكم ، رغم فوزهم بالأغلبية فى انتخابات حرة فى ظل التعددية الديمقراطية .

وحين تقوم حركة إسلامية ناجحة ، يُخشى أن تتحول إلى دولة ، سرعان ما توجِّه إليها قوى الكفر - العالمية والمحلية - ضرباتها المحمومة ، من تشريد وتجويع وتعذيب وتقتيل ، وتشويه وتمويه ، ولا تكاد تفيق من ضربة حتى يباغتوها بأخرى ، لتظل دائماً فى شغل بآلامها عن آمالها ، وبمتاعبها عن مطالبها ، وبجروحها عن طموحها .



الدعوة إلى خير الإنسانية

لا يفهم من دعوة الإسلام إلى إقامة (أمة متميزة) بأهدافها وقيَمها ومناهجها ، ذات رسالة متميزة ، بمقوماتها ومثلها وخصائصها : أن الإسلام دين منغلق على نفسه ، وأن أمته تعيش لنفسها ، متقوقعة على ذاتها ، لا تهتم بغيرها من الناس ، صلحوا أو فسدوا ، اهتدوا أو ضلوا ، ارتقوا أو هبطوا .

كلا ، فالإسلام منذ فجر دعوته كان رسالة عالمية ، ودعوة للناس كافة ، ورحمة لكل عباد الله ، عرباً كانوا أو عجماً ، ولكل بلاد الله ، شرقاً كانت أم غرباً ، وإلى جميع الألوان بيضاً كانوا أم سوداً .

فى القرآن المكى نقرأ آيات كريمة من كتاب الله تقرر بوضوح عالمية الدعوة : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١) .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ (٢) .

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ (٣) .

﴿ قُلْ : لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٤) .

﴿ قُلْ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ﴾ (٥) .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ (٦) .

وأمة الإسلام مكلفة بحمل هذه الرسالة العالمية إلى العالَم ، فلا يجوز لها أن تحتكر الخير والنور لنفسها ، بل عليها بعد أن اهتدت بنور الله أن تهدى

---

(١) الأنبياء : ١٠٧ (٢) الفرقان : ١ (٣) ص : ٨٨

(٤) الأنعام : ٩٠ (٥) الأعراف : ١٥٨ (٦) سبأ : ٢٨

الآخرين إليه ، وبعد أن صلحت بالإيمان والعمل الصالح أن تصلح الأمم وتدعوها إلى الخير الذى أكرمها الله به .

ولهذا وصف الله أمة الإسلام وأثنى عليها فى كتابه حين خاطبها بقوله : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﴾ (١) .

فالتعبير القرآنى بقوله : « أخرجت » يدل على أن هناك من أخرج هذه الأمة ، وهو الله جل جلاله ، فلم تنبت هذه الأمة من نفسها كنبات البرية ، بل أنبتها منبت بذر بذرتها ، وتولى رعايتها .

وهى لم تخرج لنفسها ، بل أخرجت للناس ، لهداية الناس ، ولنفع الناس ، وإصلاح الناس ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور .

فهى - فى المقام الأول - أمة دعوة ورسالة مبعوثة مما بعث به رسولها إلى الناس ، ولذا قال عليه الصلاة والسلام : « إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين » (٢) .

لهذا قال تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٣) .

وسواء كانت (من) فى قوله تعالى « منكم » للتجريد ، بمعنى : لتكونوا جميعاً أمة يدعون إلى الخير ، كما تقول : ليكن لى منك الصديق الوفى ، ليكن منك الأسد الهصور . . أى لتكن أنت . أم كانت (من) للتبعيض ، بمعنى : كوّنوا منكم أمة أى جماعة قوية مترابطة تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف . . إلخ . . فعلى كلا المعنيين : الأمة هى المسؤولة عن الدعوة

---

(١) آل عمران : ١١٠

(٢) رواه البخارى والترمذى والنسائى فى كتاب الطهارة عن أبى هريرة .

(٣) آل عمران : ١٠٤

والأمر والنهى ، ولو بتكوين هذه الجماعة وتقويتها وإمدادها وتهيئتها لوظيفتها ، ومراقبتها فى أدائها ، ولهذا خوطبت بهذا التكليف .

وهذا ما فقهه الصحابى الكريم ربعى بن عامر - رضىّ الله عنه - حين سأله رستم قائد جيوش الفرس فى معركة القادسية : من أنتم ؟ فقال له فى عزة مؤمنة ، وفى إيمان عزيز : نحن قوم ابتعثنا الله ، لنخرج من نشاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا ، إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

فلخص هذا الصحابى - الذى لم يتخرج فى جامعة ، ولم ينقب فى الكتب ، ولم يختلف إلى المعلمين - الأهداف الكلية الكبرى للإسلام فى هذه الكلمات الموجزة ، وإنما تعلمها فى المدرسة المحمدية ، التى خرجت هذه الصفوة من البشر ، وهذه النماذج الربانية التى لم تر عين الدنيا مثلها .

كانت رسالة الإسلام العالمية (رحمة عامة) كما وصفها الله ، ودعوة إلى خير الإنسانية ، وهذه الرحمة أو هذا الخير يتجلى فى جملة مبادئ أو قيم عليا دعا إليها الإسلام أهمها وأبرزها ما يلى :

١ - تحرير الإنسان من العبودية للإنسان :

أول هذه المبادئ : أن الإسلام - بدعوته إلى التوحيد الخالص ، ومقاومته للشرك بكل ألوانه ومستوياته - حرر الإنسان من العبودية للإنسان ، كما حرره من العبودية للأشياء ، أو للأوهام ، أو للذات .

أسقط الإسلام الآلهة المزيفين الذين قدسهم الناس ، واتخذوهم أرباباً من دون الله أو مع الله ، سواء كانوا من رجال الدين أم من رجال الدنيا والسلطان ، كما قال تعالى فى شأن أهل الكتاب : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (١) .

---

(١) التوبة : ٣١

وكانت الآية التى ختم بها الرسول الكريم رسائله إلى قيصر والمقوقس والنجاشى ، وغيرهم من أمراء النصارى قول الله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللهِ ﴾ (١) .

وكانت هذه الكلمة « لا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله » إيذاناً بميلاد جديد للبشرية ، فلا يتأله بعضهم على بعض ، ولا ينحنى بعضهم لبعض ، ولا يسجد بعضهم لبعض ، ارتفعت الجباه ، فلا تسجد إلا لخالقها ، واستقامت الظهور فلا تركع إلا لبارئها ، ، وعز الناس فلا يذلون إلا لله الواحد القهار .

الله وحده هو الذى تتجه إليه القلوب راجية خائفة ، ﴿ يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ وهو الذى تمتد إليه الأيدى والألسن سائلة ضارعة ، وهو الذى يملك وحده العطاء والمنع ، والخفض والرفع ، والحياة والموت .

وهو وحده الذى يملك حق التشريع المطلق للبشر ، بحكم خلقهم إياهم ، وإمدادهم بالنعم التى لا تحصى ، فهو الذى يملك أن يحرم عليهم ، وأن يحل لهم ، فهو الذى (له الحكم) ، و(له الخلق والأمر) ، ﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِى حَكَماً وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً ﴾ ؟ (٢) .

٢ – الأخوة والمساواة الإنسانية :

ومن ثمار التوحيد الذى دعا إليه الإسلام : الأخوة البشرية ، ومن لوازمها : المساواة الإنسانية .

وهذه الأخوة مبنية على أمرين :

الأول : أن الناس جميعاً ، بمقتضى دعوة التوحيد ، عبيد لرب واحد ، هو الذى خلقهم فسواهم ، فهم متساوون فى مرتبة العبودية لله .

---

(١) آل عمران : ٦٤ (٢) الأنعام : ١١٤

والثانى : أنهم جميعاً أبناء لأب واحد ، فهم - مهما اختلفت ألوانهم وتباعدت أوطانهم ، وتباينت ألسنتهم وتفاوتت طبقاتهم - أبناء آدم . فهم متساوون فى مرتبة البنوة لآدم .

وهذا ما بلغه النبى ﷺ للأمة فى حجة الوداع حين قال فى جموع الناس : « أيها الناس ، إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب : لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى » (١) .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (٢) .

وروى الإمام أحمد عن زيد بن أرقم أن النبى ﷺ كان يقول فى دبر كل صلاة هذه الدعوات الثلاث :

- « اللَّهم ربنا ورب كل شىء ومليكه ، أنا شهيد أنك الله وحدك لا شريك له » .

- « اللَّهم ربنا ورب كل شىء ومليكه ، أنا شهيد أن محمداً عبدك ورسولك » .

- « اللَّهم ربنا ورب كل شىء ومليكه ، أنا شهيد أن العباد كلهم أخوة » .

فهذا الدعاء النبوى الكريم يتضمن شهادات أساسية ثلاثاً : أولاها : شهادة لله بالوحدانية ، وثانيها : شهادة لمحمد بالعبودية والرسالة . وثالثها : شهادة للعباد كلهم بأنهم إخوة ، فهى أخوّة إنسانية عامة ، والأخوة تتكون من عناصر ثلاثة : المحبة ، والمساواة ، والتعاون .

---

(١) رواه أحمد فى مسنده : ٥/ ٤١١ ، عن أبى نضرة عمن سمع خطبة النبى ﷺ فى وسط أيام التشريق ، وصحّحه الألبانى فى تخريج الحلال والحرام .

(٢) الحجرات : ١٣

وقد يقول بعض الناس : إن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (١) ، ورسوله يقول : « المسلم أخو المسلم » فاعتبر الأخوة بالدين والإيمان لا بغيرها .

ونقول : إن الأخوة الدينية القائمة على الإيمان هى أخص أنواع الأخوة وأعمقها ، ولكنها لا تنافى وجود الأنواع الأخرى من الأخوة ، مثل الأخوة الوطنية والقومية ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ (٢) ، ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً ﴾ (٣) ، ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً ﴾ (٤) ، ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ : أَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ (٥) ، ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ : أَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ (٦) ، فأثبت القرآن هذه الأخوة ، بين هؤلاء الرُّسُل ، وأقوامهم ، وهم مكذِّبون لهم ، متمردون على رسالتهم ، لأنهم منهم ، وليسوا غرباء عنهم ، فهى أخوّة قومية .

وهناك الأخوة البَشرية بين أبناء آدم عامة ، وهى التى شهد بها الرسول فى حديثه السابق .

٣ - العدل لجميع الناس :

ومما دعا إليه الإسلام لخير الإنسانية : إقامة العدل بين الناس كل الناس ، فليس عدلاً للعرب وحدهم ، إنما هو عدل للناس كلهم جميعاً .

يقول تعالى فى بيان أهداف الرسالات السماوية : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (٧) ، وهكذا تبين أن إرسال الرُّسُل ، وإنزال الكتب إنما كانا لتحقيق هدف أساسى ، هو : أن يقوم (الناس) بالقسط ، وهو العدل ، الذى به يعطى كل ذى حق حقه .

---

(١) الحجرات : ١٠ (٢) هود : ٥٠ (٣) هود : ٦١
(٤) هود : ٨٤ (٥) الشعراء : ١٠٦ (٦) الشعراء : ١٦١
(٧) الحديد : ٢٥

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (١) .

هكذا بهذا التعميم « إذا حكمتم بين (الناس) لا بين المسلمين فحسب .

وقد أنزل الله تسع آيات فى سورة النساء عتاباً للرسول الكريم حين هم أن يدافع عن قوم من المسلمين الضعفاء أو من المنافقين ، اتهموا يهودياً ظلماً بالسرقة ، ولم يكن هو بالسارق ، وإنما هم السراق . قال تعالى :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً * وَاسْتَغْفِرِ اللهَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيماً * وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً . . . ﴾ (٢) الآيات .

وقد أمر الله المؤمنين أن يقوموا بالقسط شهداء لله ، لا يمنعهم من ذلك عاطفة حب لقريب ، أو بغض لبعيد ، فالعدل فوق عواطف المحبة والكره ، ويجب أن يكون لله .

يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾ (٣) . فهذا هو العدل مع من تحب ولو كان أحد والديك أو أقرب أقربائك ، بل لو كان نفسك ذاتها .

ويقول سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ، وَاتَّقُوا اللهَ ﴾ (٤) ، فهذا هو العدل مع من تكره من الناس ، ممن يحملون لهم (الشنآن) . والشنآن هو : شدة البغض والعداوة . ولكن هذا لا يجوز أن يحمل المؤمنين على الظلم ، فإن الله لا يحب الظالمين ، ولا يهديهم ، ولن يفلحوا أبداً ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

(١) النساء : ٥٨ (٢) النساء : ١٠٥ - ١١٤
(٣) النساء : ١٣٥ (٤) المائدة : ٨

وقد طبق المسلمون هذا العدل مع الشعوب كلها ، فى عصر النبوة ، وفى العصور الراشدة ، وفى القرون الأولى - خير القرون - بصفة عامة ، ووجدنا عمر بن الخطاب يأمر لرجل قبطى مصرى بالقصاص من ابن الوالى على مصر : عمرو بن العاص . ويقول لعمرو كلمته التاريخية : يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟

وهذه الكلمة التى قالها عمر على البديهة ، أصبحت تفتح بها مواثيق حقوق الإنسان ودساتير الأمم المتقدمة فى العصر الحديث .

ومما يجب التنويه به هنا : أن الإسلام أشعر جماهير الناس ، أن العدل فريضة لا تهاون فيها ، وأن كل مظلوم سيأخذ حقه ممن ظلمه ، فلا غرو أن سافر الرجل من الفسطاط إلى المدينة - وهو سفر شاق طويل - ليطالب بحقه . وقد كان فى عهد الرومان يُضرب ويسلب وتنتهك حرماته ، فلا يرفع بذلك رأساً ، لأنه لا يجد من يشكو إليه ، ولو وجده فلن يستمع إليه . . وفى عهد علىّ بن أبى طالب حكم قاضيه شريح لنصرانى على أمير المؤمنين ، لأنه لم يكن لديه بينة ، وهنا لم يملك النصرانى ، إلا أن يعلن إسلامه على الملأ . ويشهد أن علياً هو صاحب الحق ، ويقول : هذه أحكام أنبياء !

والأمثلة على ذلك كثيرة ، والتاريخ حافل بالشواهد .

٤ - السلام العالمى :

ومما دعا إليه الإسلام كذلك : السلام بين البَشر ، بدل الحروب والنزاع .

وربما كان هذا مستغرباً لدى بعض الناس ، فقد عرفوا أن الإسلام دين الجهاد فى سبيل الله ، وأن الجهاد فى سبيل الله أفضل الأعمال عند الله ، وإن الصائم الذى لا يفطر والقائم الذى لا يفتر ، لا يبلغ ثواب المجاهد فى سبيل الله .

وهذا صحيح ، ولكن الجهاد فى الإسلام إنما فرض للدفاع عن الدعوة إذا

اعتدى عليها ، أو فتن أهلوها ، ولقتال من يقاتل المسلمين ، ولإنقاذ المستضعفين فى الأرض ، وتأديب الناكثين للعهود ، المتعدين للحدود ، ولم يشرع الجهاد للعدوان ، على مسالم برئ لم يؤذ المسلمين ، ولم يقاتلهم أو يظاهر عدوهم عليهم .

وهذا واضح فى القرآن : ﴿ وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ، إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (١) .

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ، فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) .

والفتنة : تعنى اضطهاد الناس وتعذيبهم من أجل عقيدتهم .

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ : رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ وَلِياً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ نَصِيراً ﴾ (٣) .

﴿ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً ﴾ (٤) .

﴿ أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَأُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (٥) .

﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (٦) .

وتاريخ الدعوة الإسلامية يثبت أن الإسلام أوصى اتباعه بالصبر على الأذى

---

(١) البقرة : ١٩ (٢) البقرة : ١٩٣ (٣) النساء : ٧٥

(٤) النساء : ٩٠ (٥) التوبة : ١٣ (٦) الأنفال : ٦١

ثلاثة عشر عاماً فى مكة ، كان يقول لهم : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ (١) ، ﴿ لِى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ (٢) ، وهم يقولون له : لنا ديننا وليس لك دينك ، ولنا عملنا وليس لك عملك ، وصبوا عليه وعلى أصحابه سياط العذاب ، واشتدوا عليهم بالأذى فى أنفسهم وأهليهم وأموالهم ، واضطر الإسلام بعد هذه المدة أن يأذن لأهله بالدفاع عن أنفسهم : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَن يَقُولُوا : رَبُّنَا اللهُ ﴾ (٣) .

وكانت غزوات وسرايا اضطر المسلمون أن يدخلوها وهم كارهون ، كما قال تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

وفى غزوة بدر وصف الله حال المؤمنين بقوله : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ (٥) .

لم يكن المسلمون متعطشين للدماء كما يصورهم أعداء الإسلام ، بل كانوا مدافعين عن دين أستبيحت حرماته ، وطرد أتباعه من وطنهم ، وصودرت أموالهم ، وغُزُوا فى عقر دارهم ، كما فى أُحُد ، والخندق . ومع هذا يعقب القرآن على غزوة الخندق فيقول : ﴿ وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ (٦) .

فهذا التعليق القرآنى ﴿ وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ يبين أن هذه نعمة عظيمة من الله تعالى للمؤمنين : أن رد أعداءهم عنهم ولم يحققوا هدفهم من غزوتهم ، وأن الله كفاهم القتال ، وأراحهم من تبعاته وآثاره .

---

(١) الكافرون : ٨ (٢) يونس : ٤١ (٣) الحج : ٣٩
(٤) البقرة : ٢١٦ (٥) الأنفال : ٥ (٦) الأحزاب : ٢٥

وفى غزوة الحديبية يعقب القرآن على ما تم من صلح بين الرسول والمشركين ، فينزل فيه (سورة الفتح) وفيها يقول الله : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ﴾ (١) ، فيقول الصحابة : أفتح هو يا رسول الله ؟ فيقول : نعم .

ويمتن الله على المسلمين بقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ (٢) .

فانظر كيف امتن على المؤمنين بكف أيديهم عن المشركين ، كما كف أيدى المشركين عنهم ، دلالة على أن السلام فى ذاته نعمة يذكرها لهم فى معرض الامتنان .

ويقول رسول الله ﷺ : « أقبح الأسماء حرب ومرة » (٣) ، فدل على أنه يكره حتى كلمة (حرب) . . وقد كان أهل الجاهلية يسمون بذلك أبناءهم ، فنبه المسلمين على قبح هذا الاسم ، ولا يمكن أن يصدر ذلك من رجل محب للحرب ، متعطش للدم ، كما يقول الذين لا يعلمون ، أو الذين يتبعون أهواءهم .

٥ - التسامح مع غير المسلمين :

ومن المبادئ والقيَم التى دعا إليها الإسلام هنا : التسامح مع غير المسلمين ، والتعامل معهم بروح إنسانية عالية ، لا تتعصب ولا تحقد على من خالفها .

وهذا مع كل من خالف الإسلام من غير المسلمين ، ولكن لأهل الكتاب - من اليهود والنصارى - معاملة خاصة ، باعتبارهم أهل دين سماوى فى الأصل ، وينتسبون جميعاً إلى أبى الأنبياء إبراهيم ، ولهذا سماهم القرآن (أهل الكتاب) وأباح أكل ذبائحهم ، وتزوج نسائهم . كما قال تعالى :

---

(١) الفتح : ١ (٢) الفتح : ٢٤

(٣) رواه أبو داود فى « الأدب » عن أبى وهب الجشمى (٤٩٥٠) ، ونسبه المنذرى للنسائى أيضاً ، وعلل الإمام الخطابى قبح اسم (حرب) لما فى الحرب من المكاره .

﴿ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ ، وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ، وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ (١) .

والمصاهرة أحد رابطين أساسيين ربط بهما بين البَشر ، كما قال تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً ﴾ (٢) .

كما أن الزواج فى نظر القرآن يقوم على دعائم من السكون والمودة والرحمة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِه أَن خَلَقَ لَكُم مِّن أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَل بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (٣) .

ومعنى زواج المسلم من كتابية أن يكون أصهاره وأجداد أولاده وجداتهم وأخوالهم وخالاتهم ، وأولاد أخوالهم وخالاتهم من أهل الكتاب ، وهؤلاء لهم حقوق صلة الرحم وذوى القربى التى يفرضها الإسلام .

ولا نجد فى السماحة مع المخالف فى الدين أرحب ولا أعلى من هذا الأفق الذى وجدناه فى شريعة الإسلام .

وقد فرق القرآن تفريقاً واضحاً فى المعاملة : بين صنفين من غير المسلمين : صنف (المحاربين) المقاتلين لهم فى الدين ، الذين شردوهم من ديارهم ، وعاونوا على تشريدهم ، وصنف آخر مسالم لهم لم يشارك فى شىء من هذه الأعمال . وذلك فى آيتين كريمتين تعتبران دستوراً محكماً فى تحديد العلاقة بغير المسلمين ، يقول تعالى : ﴿ لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ . . وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٤) . والبر هو : الخير ، والقسط هو : العدل ، وقد نزلت

---

(١) المائدة : ٥
(٢) الفرقان : ٥٤
(٣) الروم : ٢١
(٤) الممتحنة : ٨ ، ٩

هاتان الآيتان فى شأن المشركين الوثنيين ، كما دلت على ذلك أسباب نزول السورة . فأهل الكتاب أولى بالبر والقسط من المشركين .

ثم إن المعاهدين صنفان :

(آ) من لهم عهد مؤقت ، وهؤلاء يتم إليهم عهدهم إلى مدتهم .

(ب) والثانى من لهم عهد دائم ومؤبد ، وهم الذين يسميهم المسلمون « أهل الذمة » بمعنى أن لهم ذمة الله تعالى ، وذمة رسوله ﷺ ، وذمة جماعة المسلمين . وهم الذين قال فيهم الفقه الإسلامى : لهم ما لنا ، وعليهم ما علينا ، أى فى الجملة إلا ما اقتضته طبيعة الاختلاف الدينى .

وأهل الذمة يحملون « جنسية دار الإسلام » وبتعبير آخر : هم مواطنون فى الدولة الإسلامية .

فليست عبارة « أهل الذمة » عبارة ذم أو تنقيص ، كما قد يتوهم بعض الناس ! بل هى عبارة توحى بوجوب الرعاية والوفاء ، تديناً وامتثالاً لشرع الله .

وإذا كان الإخوة المسيحيون يتأذون من هذا المصطلح ، فليغيَّر أو يحذف ، فإن الله لم يتعبدنا به ، وقد حذف سيدنا عمر رضى الله عنه ما هو أهم منه ، وهو لفظ « الجزية » ، رغم أنه مذكور فى القرآن ، وذلك استجابة لعرب بنى تغلب من النصارى ، الذين أنفوا من هذا الاسم ، وطلبوا أن يؤخذ منهم ما يؤخذ باسم الصدقة ، وإن كان مضاعفاً . فوافقهم عمر ، ولم ير فى ذلك بأساً ، وقال : هؤلاء القوم حمقى ، رضوا بالمعنى ، وأبو الاسم [1] .

وهذا تنبيه من الفاروق على أصل مهم ، وهو النظر إلى المقاصد والمعانى ، لا إلى الألفاظ والمبانى ، والاعتبار بالمسميات والمضامين لا بالأسماء والعناوين . ومن هنا نقول : إنه لا ضرورة للتمسك بلفظ « الجزية » الذى يأنف منه

---

(١) انظر : كتابنا « فقه الزكاة » : ٢/٧٠٨

إخواننا النصارى فى مصر وأمثالهم فى البلاد العربية والإسلامية ، والذين امتزجوا بالمسلمين ، فأصبحوا يكونون نسيجاً قومياً واحداً . فيكفى أن يدفعوا « ضريبة » مالية ، كما يدفع المسلمون « الزكاة » ، وأن يشتركوا بأنفسهم فى الدفاع عن الأمة والوطن ، كما يشترك إخوانهم من المسلمين .

وقد رأينا الإمام الأوزاعى يقف مع جماعة من أهل الذمة فى لبنان ضد الأمير العباسى قريب الخليفة .

وقد رأينا الإمام ابن تيمية يخاطب تيمور لنك فى فكاك الأسرى عنده ، فيعرض عليه أن يفك أسرى المسلمين وحدهم ، فيأبى إلا أن يفرج عن أهل الذمة معهم .



● أعلى درجات التسامح عند المسلمين وحدهم :

ثم إن التسامح الدينى والفكرى له درجات ومراتب :

فالدرجة الدنيا من التسامح : أن تدع لمخالفك حرية دينه وعقيدته ، ولا تجبره بالقوة على اعتناق دينك أو مذهبك .

والدرجة الوسطى من التسامح : أن تدع له حق الاعتقاد بما يراه من ديانة ومذهب ، ثم لا تضيق عليه بترك أمر يعتقد وجوبه أو فعل أمر يعتقد حرمته . فإذا كان اليهودى يعتقد حرمة العمل يوم السبت ، فلا يجوز أن يكلف بعمل فى هذا اليوم ؛ لأنه لا يفعله إلا وهو يشعر بمخالفة دينه [(١)] .

وإذا كان النصرانى يعتقد بوجوب الذهاب إلى الكنيسة يوم الأحد ، فلا يجوز أن يمنع ذلك فى هذا اليوم .

---

(١) فى غاية المنتهى وشرحه من كتب الحنابلة : « ويحرم إحضار يهودى فى سبته ، وتحريمه باق بالنسبة إليه ، فيستثنى شرعاً من عمل فى إجارة ، لحديث النسائى والترمذى وصححه : « وأنتم يهود عليكم خاصة ألا تعدوا فى السبت » : ٢/ ٦٠٤

والدرجة التى تعلو هذه فى التسامح : ألا تضيق على المخالفين فيما يعتقدون حله فى دينهم أو مذهبهم ، وإن كنت تعتقد أنه حرام فى دينك أو مذهبك .

وهذا ما كان عليه المسلمون مع المخالفين من أهل الذمة ، إذ ارتفعوا إلى الدرجة العليا من التسامح .

فقد التزموا احترام كل ما يعتقد غير المسلم أنه حلال فى دينه ، ووسعوا له فى ذلك ، ولم يضيقوا عليه بالمنع والتحريم ، وكان يمكنهم أن يحرموا ذلك ، مراعاة لشريعة الدولة ودينها ، ولا يتهموا بكثير من التعصب أو قليل ؛ ذلك لأن الشىء الذى يحله دين من الأديان ليس فرضاً على أتباعه أن يفعلوه .

فإن كان دين النصرانى يحل له أكل الخنزير ، فإنه يستطيع أن يعيش عمره دون أن يأكل الخنزير ، وفى لحوم البقر والغنم والطير متسع له .

ومثل ذلك الخمر ، فإذا كان بعض الكتب المسيحية قد جاء بإباحتها ، أو إباحة القليل منها لإصلاح المعدة ، فليس من فرائض المسيحية أن يشرب المسيحى الخمر ، بل إن بعض المسيحيين يعتقدون حرمة الخمر فى ديانتهم .

فلو أن الإسلام قال للذميين : دعوا شرب الخمر ، وأكل الخنازير ، مراعاة لشعور إخوانكم المسلمين ، لم يكن عليهم فى ذلك أى حرج دينى ؛ لأنهم إذا تركوا هذه الأشياء لم يرتكبوا فى دينهم منكراً ، ولا أخلوا بواجب مقدس ، ومع هذا لم يقل الإسلام ذلك ، ولم يشأ أن يضيق على غير المسلمين فى أمر يعتقدون حله ، وقال للمسلمين : اتركوهم وما يدينون !



● روح التسامح عند المسلمين :

على أن هناك شيئاً آخر لا يدخل فى نطاق الحقوق التى تنظمها القوانين ، ويلزم بها القضاء ، وتشرف على تنفيذها الحكومات .

ذلك هو « روح السماحة » التى تبدو فى حسن المعاشرة ، ولطف المعاملة ،

ورعاية الجوار ، وسعة المشاعر الإنسانية من البر والرحمة والإحسان ، وهى الأمور التى تحتاج إليها الحياة اليومية ، ولا يغنى فيها قانون ولا قضاء . وهذه روح لا تكاد توجد فى غير المجتمع الإسلامى .

تتجلى هذه السماحة فى مثل قول القرآن فى شأن الوالدين المشركين اللذين يحاولان إخراج ابنهما من التوحيد إلى الشرك : ﴿ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً ﴾ (١) .

وفى ترغيب القرآن فى البر والإقساط إلى المخالفين الذين لم يقاتلوا المسلمين فى الدين كما فى آية الممتحنة (٢) .

وفى قول القرآن يصف الأبرار من عباد الله : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ﴾ (٣) ولم يكن الأسير حين نزلت الآية إلا من المشركين .

وفى قول القرآن يجيب عن شبهة بعض المسلمين فى مشروعية الإنفاق على ذويهم وجيرانهم من المشركين المصرّين : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ﴾ (٤) .

وقد روى محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة ومدون مذهبه : أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث إلى أهل مكة مالاً لما قحطوا ليوزع على فقرائهم (٥) ، هذا على الرغم مما قاساه من أهل مكة من العنت والأذى هو وأصحابه .

وروى أحمد والشيخان عن أسماء بنت أبى بكر قالت : قدمت أمى وهى مشركة ، فى عهد قريش إذ عاهدوا (٦) ، فأتيت النبى ﷺ فقلت :

---

(١) لقمان : ١٥
(٢) الممتحنة : ٨
(٣) الإنسان : ٨
(٤) البقرة : ٢٧٢
(٥) شرح السير الكبير : ١/ ١٤٤
(٦) تعنى فى فترة صلح الحديبية .

يا رسول الله ؛ إن أمى قدمت وهى راغبة ، أفأصلها ؟! قال : « نعم ، صلى أمك » [(١)] .

وتتجلى هذه السماحة كذلك فى معاملة الرسول ﷺ لأهل الكتاب يهوداً كانوا أو نصارى ، فقد كان يزورهم ويكرمهم ، ويحسن إليهم ، ويعود مرضاهم ، ويأخذ منهم ويعطيهم .

وذكر ابن إسحاق فى السيرة : أن وفد نجران - وهم من النصارى - لما قدموا على رسول الله ﷺ بالمدينة ، دخلوا عليه مسجده بعد العصر ، فكانت صلاتهم ، فقاموا يصلون فى مسجده ، فأراد الناس منعهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دعوهم » فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم .



● الأساس الفكرى لتسامح المسلمين :

وأساس النظرة المتسامحة التى تسود المسلمين فى معاملة مخالفيهم فى الدين يرجع إلى الأفكار والحقائق الناصعة التى غرسها الإسلام فى عقول المسلمين وقلوبهم ، وأهمها :

١ - اعتقاد كل مسلم بكرامة الإنسان ، أياً كان دينه أو جنسه أو لونه . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ ﴾ [(٢)] وهذه الكرامة المقررة توجب لكل إنسان حق الاحترام والرعاية .

ومن الأمثلة العملية : ما رواه البخارى عن جابر بن عبد الله : أن جنازة مرت على النبى ﷺ فقام لها واقفاً ، فقيل له : يا رسول الله ؛ إنها جنازة يهودى ! فقال : « أليست نفساً » ؟! ، بلى ولكل نفس فى الإسلام حرمة ومكان ، فما أروع الموقف ، وما أروع التفسير والتعليل !

٢ - اعتقاد المسلم أن اختلاف الناس فى الدين واقع بمشيئة الله تعالى ،

---

(١) تفسير ابن كثير : ٤/٣٤٩ (٢) الإسراء : ٧٠

الذى منح هذا النوع من خلقه الحرية والاختيار فيما يفعل ويدع : ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (١) ، ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ (٢) .

والمسلم يوقن أن مشيئة الله لا راد لها ولا معقب ، كما أنه لا يشاء إلا ما فيه الخير والحكمة ، علم الناس ذلك أو جهلوه ، ولهذا لا يفكر المسلم يوماً أن يجبر الناس ليصيروا كلهم مسلمين ، كيف وقد قال الله تعالى لرسوله الكريم :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِى الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

٣ - إن المسلم ليس مكلفاً أن يحاسب الكافرين على كفرهم ، أو يعاقب الضالين على ضلالهم ، فهذا ليس إليه ، وليس موعده هذه الدنيا ، إنما حسابهم إلى الله فى يوم الحساب ، وجزاؤهم متروك إليه فى يوم الدين ، قال تعالى : ﴿ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * اللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (٤) .. وقال يخاطب رسوله فى شأن أهل الكتاب : ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ، وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللهُ من كِتَابٍ ، وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ، اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ، لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ، لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ، اللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ، وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (٥) .

وبهذا يستريح ضمير المسلم ، ولا يجد فى نفسه أى أثر للصراع بين اعتقاده بكفر الكافر ، وبين مطالبته ببره والإقساط إليه ، وإقراره على ما يراه من دين واعتقاد .

---

(١) الكهف : ٢٩ (٢) هود : ١١٨ (٣) يونس : ٩٩
(٤) الحج : ٦٨ ، ٦٩ (٥) الشورى : ١٥

٤ - إيمان المسلم بأن الله يأمر بالعدل ، ويحب القسط ، ويدعو إلى مكارم الأخلاق ، ولو مع المشركين ، ويكره الظلم ويعاقب الظالمين ، ولو كان الظلم من مسلم لكافر . قال تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ (١) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « دعوة المظلوم - وإن كان كافراً - ليس دونها حجاب » (٢) .

إن سماحة الإسلام مع غير المسلمين سماحة لم يعرف التاريخ لها مثيلاً ، وخصوصاً إذا كانوا أهل كتاب ، وبالأخصب إذا كانوا مواطنين فى دار الإسلام ، ولا سيما إذا استعربوا وتكلموا بلغة القرآن .



---

(١) المائدة : ٨

(٢) رواه أحمد فى مسنده .

الباب الخامس

مصادر الإسلام

١ – القرآن الكريم .
٢ – السُّنَّة النبوية .
٣ – بين السُّنَّة والقرآن .

تمهيدٌ

● القرآن والسُّنَّة مصدرا الإسلام :

الإسلام هو دين الله الذى أنزل به آخر كتبه ، وبعث به آخر رُسُله ، ليُخرج به الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد

وأحكام الإسلام هى مجموعة التكاليف والتعاليم التى دعا إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلَّغها لأمته مما أخبر الله به - فى كتابه أو على لسان رسوله - من حقائق الوجود وعوالم الغيب من كل ما يتصل بالألوهية أو النبوة أو الآخرة . . ومما أمر به سبحانه ، أو نهى عنه ، أو أباحه لعباده ، فى شئون الدين والحياة .

فأحكام الإسلام لا تقتصر على الجانب العملى أو التشريعى فحسب من العبادات والمعاملات ، مما يعالجه علم « الفقه » ، ولا على الجانب النظرى أو العقائدى فقط ، وهو ما يعالجه علم « التوحيد » أو « الكلام » ، ولا على الجانب الروحى ، أو الخُلُقى ، مما يعالجه علم « التصوف » أو « الأخلاق » ، وإنما يشمل ذلك كله فى توازن وتكامل واتساق .

والقرآن الكريم والسُّنَّة النبوية هما المصدران الأساسيان المعصومان اللذان تستمد منهما أحكام الإسلام جميعاً ، فالقرآن هو المصدر الأول ، والسُّنَّة هى المصدر الثانى .



● لماذا لم يذكر الإجماع والقياس ضمن مصادر الإسلام :

ويعرض هنا سؤال ، وهو : لماذا لم يذكر « الإجماع » و« القياس » ضمن مصادر المعرفة بالأحكام الشرعية ؟

والجواب ؛ أولاً : أن هذين المصدرين يُذكران - مع الكتاب والسُّنَّة - بالنسبة « للأحكام الفرعية العملية » ، التى يعنى بها « علم الفقه » . والحديث هنا عن أحكام الإسلام كلها التى تشمل - مع الأحكام الفقهية - العقائد والأخلاق والفكر والسلوك . وهذه تعتمد على المصدرين الأساسيين : القرآن والسُّنَّة .

وثانياً : أن هذين المصدرين - الإجماع والقياس - إنما استدل على إثباتهما بالقرآن والسُّنَّة ، وبهذا ثبتت حجيتهما لا بذاتهما . ومعنى هذا : أن الأصل فى الاستمداد والاستدلال هو القرآن والسُّنَّة .

وثالثاً : أن الكتاب والسُّنَّة هما المصدران القطعيان المعصومان اللذان لا يخالف مسلم صحيح الإسلام فى حُجِّيَتهما (١) بخلاف الإجماع والقياس ، ففيهما كلام كثير مذكور فى أصول الفقه . وإن كان جمهور الأمة يعتبرونهما .

هناك كلام فى الإجماع : فى إمكانه ، وفى وقوعه ، وفى العلم به إذا وقع ، وفى حُجِّيته بعد العلم به .

وهناك كلام فى القياس وحُجِّيته وشروط قبوله . ونزاع الظاهرية وغيرهم فى ذلك معلوم غير مجهول .

---

(١) قد يقول البعض : إن الشيعة الجعفرية الإثنا عشرية يقولون بأن القرآن الحالى لا يحتوى كل الوحى المنزَّل من عند الله . وهذا مذكور فى « الكافى » وفى بعض كتبهم . ولكن المحققين منهم يرفضون هذه الروايات ، ويعتبرونها من كلام « الأخباريين » والعمدة هم « الأصوليون » . ولهذا لا يوجد عند الشيعة مصحف غير مصحف سائر المسلمين ، فهو الذى يطبعونه ، ويحفِّظونه لأولادهم ، ويذيعونه فى إذاعاتهم وتلفازهم ، ويفسرونه فى كتبهم ، ويحتجون به فى كتبهم العقائدية والفقهية ، وهم مجمعون على أن ما بين دفتى المصحف كلام الله بيقين . أما السُّنَّة فهم لا يرفضونها من حيث المبدأ ، ولكن يشرطون أن تُرَوى عن طريق رجالهم وحدهم ، وهذا ما ننكره عليهم ، كما أنهم يضمون - إلى سُنَّة النبى ﷺ - سُنَّة الأئمة الاثنى عشر المعصومين فى اعتقادهم ، وهو ما نخالفهم فيه أيضاً .

وبهذا تحددت مصادر المعرفة بأحكام الإسلام ، وبعبارة أخرى : تحددت « المرجعية العليا » للإسلام .

فليست هى لمجمع من المجامع الدينية أو العلمية ، كما عُرِف ذلك عند النصارى ومجامعهم المسكونية المقدسة .

وليست هذه المرجعية لرئيس دينى ، مهما علا كعبه فى العِلم والتقوى ، فليس لدى المسلمين « باباً » يوصف بالقداسة والعصمة ، كما عند غيرهم .

وليست هذه المرجعية لمدرسة أو مذهب ، أو طريقة ، قلَّدها مقلِّدون فى مجال الاعتقاد والفكر ، أو فى مجال الفقه والشريع ، أو فى مجال التربية والسلوك .

فما وُجِدَ من ذلك فى تاريخ الإسلام وتراثه إنما هو اجتهادات بَشر غير معصومين ، فى فهم الإسلام والعمل به ، يُؤخذ منهم ، ويُرَد عليهم ، مَنْ أصاب منهم فله أجران ، ومَنْ أخطأ فله أجر ، ما دام هذا الاجتهاد صادراً من أهله فى محله ، مصحوباً بالنيِّة الصالحة .

تحددت المرجعية العُليا فى الإسلام للمصدرين الإلهيين المعصومين : القرآن والسُّنَّة ، اللذين أُمِرنا باتباعهما ، وأن نرد إليهما ما تنازعنا فيه .

وإن شئت قلت : هو مصدر واحد ، أو مرجع واحد ، هو « الوحى الإلهى » ، سواء أكان وحياً جلياً متلواً ، وهو القرآن ، أم وحياً غير جلى ولا متلو ، وهو السُّنَّة .

أما عمل « العقل الإسلامى » فى تفسير القرآن ، وشرح الحديث ، واستنباط الأحكام ، فلا عصمة له فى مفرداته وجزئياته . ولكنه - فى مجموعه - ضرورى لفتح المغاليق ، وتبيين الطريق ، وترشيد الفهم ، وتسديد الاستنباط والاجتهاد ، حتى لا تزل الأقدام ، وتضل الأفهام .



● لماذا أنزل الله القرآن ؟

إن الله تعالى لم ينزل القرآن العظيم لمجرد التبرك بتلاوته ، ولا لتزيين الجدران بآياته ، ولا لقراءته على الأموات ابتغاء أن يرحمهم ربهم .

إنما أنزل الله القرآن ليضبط بهدايته مسيرة الحياة ، ويحكمها بما أنزل الله من الهدى ودين الحق ، ويهدى بنوره البَشرية للتى هى أقوم ، ويُخرج الناس من الظلمات إلى النور .

فالقرآن لم يُنزله الله ليُتلَى على الأموات بل ليحكم الأحياء ، لم ينزله لتزدان به الجدران ، بل ليزدان به الإنسان .

وبركة القرآن إنما هى فى اتباعه والعمل به ، كما قال تعالى : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (١) .

حدد القرآن نفسه أهدافه التى أنزله الله ليحققها فى الحياة والناس فى عبارات أبين من فلق الصباح ، مثل قوله : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ ﴾ (٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُواْ بِاللهِ وَاعْتَصَمُواْ بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً ﴾ (٣) .

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٤) .

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً

---

(١) الأنعام : ١٥٥ — (٢) النساء : ١٠٥

(٣) النساء : ١٧٤ - ١٧٥ — (٤) المائدة : ١٥ - ١٦

عَلَيْهِ ، فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ (١) .

﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ ﴾ (٢) .

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٣) .

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ (٤) .

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً * وَأَنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ (٥) .

ومن الضرورى - لكى نُحسن العمل بالقرآن والاهتداء بهداه - أن نكون على بيِّنة مما يريده الله تعالى منا فى كتابه . وهذا يتوقف على حُسن فهمنا له ، واستقامة تفسيرنا لآياته وأحكامه ، حتى لا نُقوِّله ما لم يقل ، ونحمله ما لا يحتمل ، أو نزيد عليه ما ليس منه ، أو ننقص منه ما هو فيه ، أو نُقدِّم ما أخَّره ، أو نؤخِّر ما قدَّمه . وهذا ما يحتاج إلى قواعد وضوابط تمنع تلاعب المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، وتحريف الزائغين .



● يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض :

وهناك ممن يدَّعون الإسلام أناس يقولون : نحن نؤمن بالقرآن الكريم ، ونخضع لأحكامه ، ولكن فى بعض المجالات دون بعض ، فهم يقبلون

---

(١) المائدة : ٤٨ (٢) المائدة : ٤٩ (٣) يوسف : ٢
(٤) إبراهيم : ١ (٥) الإسراء : ٩ ، ١٠

أحكامه فى مجال العقائد والعبادات والأخلاق ، ولكن لا يقبلونها فى شئون التشريع والاقتصاد والسياسة وغيرها .

وبعضهم يقبل الأخذ بها فى التشريع ، ولكن فى محيط الأسرة والأحوال الشخصية لا فى محيط المجتمع ، وأمور الحكم والسياسة والاقتصاد ، والعلاقات الدولية .

والعجيب أن يصدر هذا ممن يدَّعى الإسلام ، ويزعم أنه رضى بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً ، وبالقرآن إماماً !

كيف يصدر هذا ممن يعتقد أن القرآن كتاب الله ، وأن كل ما بين دفتى المصحف كلام الله سبحانه ؟

هل يستدرك هؤلاء على ربهم ؟ أو هم يدَّعون أنهم أعلم منه بمصالح خلقه ؟ أو أبر بهم منه جَلَّ شأنه ؟

هل يحسب هؤلاء أنهم أنداد لله تعالى ، ينازعونه فى خلقه ، ويشاركونه فى حكمه ؟ ألا ساء ما يحكمون !

كيف يكون المخلوق نداً للخالق ؟ كيف يكون الإنسان المحدَث الفانى المحدود والعاجز ، نداً للرب الأعلى ، الأول بلا ابتداء ، والآخر بلا انتهاء . صاحب المشيئة المطلقة ، والقُدرة القاهرة ، الذى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ؟

ولقد رأينا مَن زعم أن « القرآن المكى » وحده هو الملزم لنا ، وأما « القرآن المدنى » فلا يلزمنا (١) ، لأنه يتعرض لأمور من أمور حياتنا قد تتغير وتتطور ، فلا يجوز أن نجمدها بقرآن ولا سُنَّة !

وهذا ما أنكره القرآن على بنى إسرائيل أشد الإنكار ، وقرعهم عليه أبلغ

---

(١) قال ذلك محمود محمد طه ، السودانى المرتد المعروف .

التقريع ، وتوعدهم عليه بأقسى الوعيد ، حين انتقوا من أحكام التوراة ما يعجبهم فأخذوا به ، وأهملوا منها ما لا يروق لهم فأعرضوا عنه ، فقال سبحانه : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ، فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ ، وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ ، فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (١) .

كما حذَّر الله تعالى رسوله ﷺ - وهو تحذير لكل أمته من بعده - أن يفتنه أهل الكتاب عن بعض ما أنزل الله إليه من الكتاب ، فلا يحكم به ، ولا يعمل بموجبه ، يقول تبارك وتعالى : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ ﴾ (٢) .

وذمَّ القرآن أبلغ الذم طائفة من المنافقين يرفضون حكم الله ورسوله إذا دُعوا إليه ولا يذعنون له إلا فيما يوافق أهواءهم ومصالحهم الخاصة ، ونفى عنهم الإيمان نفياً صريحاً .

يقول سبحانه : ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ ، وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُواْ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ * وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُواْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُواْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ، بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُواْ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٣) .

هذا هو موقف المؤمنين إذا دُعوا إلى حكم الله ورسوله : إذعان بلا تردد ، وطاعة بلا تلكؤ : ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

---

(١) البقرة : ٨٥ ، ٨٦ (٢) المائدة : ٤٩ (٣) النور : ٤٧ - ٥١

ذلك أن عقد الإيمان بالله رباً ، وبمحمد رسولاً ، وبالقرآن إماماً ، يقتضى ويوجب ويلزم الرضا بما رضيه الله ورسوله ، والالتزام بما ألزما به ، وإلا كان الإيمان لفظاً بلا معنى ، ودعوى بلا حقيقة : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (١) .

أما الآخرون الذين لا يُذعنون لحكم الله ورسوله ، إلا إذا كان لهم فيه حق ومصلحة وهوى ، فهم مرضى القلوب ، المرتابون : ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢) ، ﴿ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .



● **القرآن كل لا يتجزأ :**

والقرآن كل لا يتجزأ ، وتعاليمه وأحكامه مترابطة متكاملة ، بين بعضها وبعض ما يشبه الوحدة العضوية بين أعضاء الجسم الواحد ، فبعضها يُؤثِّر فى بعض . ولا يجوز أن يُفصل جزء أو أكثر منها عن سائر الأجزاء .

فالعقيدة تغذى العبادة ، والعبادة تغذى الأخلاق ، وكلها تغذى الجانب العملى والتشريعى فى الحياة .

ولا يسوغ فى منطق الإيمان ولا منطق العقل أن يقرأ المسلم قول الله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٤) ، فيقول : سمعنا وأطعنا . ولكنه إذا قرأ فى نفس السورة قوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ فِى الْقَتْلَى ﴾ (٥) قال : سمعنا وعصينا !!

ولماذا ؟ لأن الآية الأولى فى مجال العبادات ، والأخرى فى مجال العقوبات !

---

(١) الأحزاب : ٣٦ — (٢) المائدة : ٤٥ — (٣) النور : ٤٧

(٤) البقرة : ١٨٣ — (٥) البقرة : ١٧٨

ومعنى هذا أن الإنسان أصبح معقباً لحكم الله تعالى ، يأخذ منه ويَدَع ، ويقبل منه ويرد ، بهواه وحده ، والله لا معقب لحكمه .

أو يأخذ من سورة البقرة آية الكرسى : ﴿ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، الحَىُّ القَيُّومُ ، لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ . . . ﴾ الآية (١) .

ولا يأخذ منها آية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ ، وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ ﴾ (٢) .

لأن آية الكرسى فى الإلهيات ، وآيات الربا فى المعاملات !!

ومثل ذلك يقال فيمن يقبل من سورة المائدة قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى المَرَافِقِ ﴾ . . . الآية (٣) .

ويرفض من السورة قوله تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللهِ ، وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٤) .

ويقرأ قوله تعالى : ﴿ فَأَقِيمُواْ الصَّلاةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ ﴾ (٥) ، فيقول : آخذ الصلاة ولا آخذ الزكاة ، لأن الصلاة شعيرة روحية خالصة ، أما الزكاة ففريضة تتعلق بالمال والاقتصاد ، فأنا أقبل تلك ، ولا أقبل هذه !

يا لله العجب ! هل غداً العبد أعلم من ربه ؟ أو بات المخلوق أعلى من خالقه ؟!!

إنه لم يعد نداً لله فحسب ، بل زاد على ذلك ، فجعل من نفسه محكمة

---

(١) البقرة : ٢٥٥ (٢) البقرة : ٢٧٨ - ٢٧٩ (٣) المائدة : ٦
(٤) المائدة : ٣٨ (٥) الحج : ٧٨

عليا للتمييز ، أو للنقض والإبرام ، فينقض ما شاء له عقله أو هواه أن ينقض من أحكام الله ، ويُبرم ما شاء له أن يُبرم !

إن الشيء المؤكد الذى لا خلاف عليه ، وهو من المعلوم من الدين بالضرورة - بمعنى أنه لم يعد فى حاجة إلى إقامة أدلة عليه ، لأنه مما يشترك فى معرفته الخاص والعام - أن تعاليم القرآن كلها واجبة التنفيذ ، ولا فرق فيها بين ما يسمى « روحياً » وما يسمى « مادياً » ، ما يُعتبر من « شئون الدين » وما يُعتبر من « شئون الدنيا » ، ما يتعلق بحياة « الفرد » وما يتعلق بحياة « الجماعة » .

إن هذه التسميات والعناوين لا وجود لها فى كتاب الله تعالى ، ولا توجد فوارق معتبرة بين بعضها وبعض ، ما دامت كلها فى دائرة أمر الله سبحانه أو نهيه .

ومَنْ فتح المصحف وقرأ سورة الفاتحة ، ثم شرع فى سورة البقرة ، وجد أول ما يطالعه وصف المتقين المهتدين بكتاب الله بأنهم : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (١) ، فقرن بين الجانب الاعتقادى « الإيمان بالغيب » ، والجانب الشعائرى « إقامة الصلاة » ، والجانب الاقتصادى « الإنفاق مما رزق بالله » .

وهكذا نجد أوصاف المؤمنين وأهل التقوى والإحسان ، فى سائر سور القرآن لا تفرق بين جانب وجانب . كما نجد ذلك واضحاً فى أوائل سورة (الأنفال : ٢ - ٥) ، وأول سورة (المؤمنون : ١ - ١١) ، وفى أوسط سورة (الشورى : ٣٦ - ٣٩) ، وفى أوصاف عباد الرحمن من سورة (الفرقان : ٦٣ - ٧٦) ، وفى أوصاف المحسنين من سورة (الذاريات : ١٥ - ١٩) وغيرها .

---

(١) البقرة : ٣

ومثل ذلك نجده فى الأوامر والنواهى والوصايا القرآنية ، مثل : الوصايا العشر فى سورة الأنعام : ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ..... ﴾ (١) .

ووصايا الحكمة فى سورة الإسراء : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً .... ﴾ (٢) .

فهذه كلها تجمع بين العقيدة والعبادة والخُلُق والسلوك ، مما يتعلق بالدين وما يتعلق بالدنيا ، وما يتعلق بالفرد أو بالأسرة أو بالمجتمع ، فى سياق واحد ، ونسج واحد لا ينفصل بعضه عن بعض ، ولا يتميَّز بعضه عن بعض .

وأحياناً يستخدم القرآن صيغة واحدة فى طلب الأمور التى يعتبرها الناس مختلفة باختلاف مجالاتها ، مثل قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى ﴾ (٣) ، ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقاً عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ (٤) ، ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٥) ، ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ (٦) .

فهذه صيغة واحدة : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ﴾ وهى تفيد تأكيد الوجوب والفرضية استعملت فى القصاص وهو فى القانون الجنائى ، وفى الوصية وهى من الأحوال الشخصية وشئون الأسرة ، وفى الصيام وهو من شعائر العبادات ، وفى القتال وهو من شئون العلاقات الدولية .... وكلها مما كتبه وفرضه على المؤمنين .



(١) الأنعام : ١٥١ - ١٥٣ (٢) الإسراء : ٢٣ - ٣٩ (٣) البقرة : ١٧٨
(٤) البقرة : ١٨٠ (٥) البقرة : ١٨٣ (٦) البقرة : ٢١٦

● حجية السُّنَّة فى التشريع والتوجيه :

السُّنَّة : هى المنهج النبوى المفصل فى تعليم الإسلام وتطبيقه وتربية الأمة عليه ، والذى يتجسد فيه قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (١) .

ويتمثل ذلك فى أقواله صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته (٢) .

والسُّنَّة : هى المصدر الثانى للإسلام بعد القرآن الكريم .

فالقرآن هو الدستور الذى يحوى الأصول والقواعد الأساسية للإسلام : عقائده وعباداته ، وأخلاقه ، ومعاملاته ، وآدابه .

والسُّنَّة : هى البيان النظرى والتطبيق العملى للقرآن فى ذلك كله .

ولهذا يجب اتباعها والعمل بما جاءت به من أحكام وتوجيهات . وطاعة الرسول فيها واجبة ، كما يُطاع فيما بلَّغه من آيات القرآن .

دَلَّ على ذلك القرآن .

ودَلَّت على ذلك السُّنَّة نفسها .

ودَلَّ على ذلك إجماع الأُمة .

ودَلَّ على ذلك العقل والنظر .

وهذا موضح بأدلته فى كتبنا الأخرى (٣) .

* * *

---

(١) آل عمران : ١٦٤

(٢) انظر فى تعريف السُّنَّة ومحتواها ، كتابنا « المدخل لدراسة السُّنَّة النبوية » ص ٧ - ٣٨

(٣) انظر : المصدر السابق .

لا قرآن بغير سُنَّة

ومع ذلك ابتليت أمتنا - قديماً وحديثاً - بفئة قليلة العدّة ، ضعيفة العُدَّة ، قصيرة العرفان ، طويلة اللسان ، زعموا أننا فى غير حاجة إلى السُّنَّة ، وأن القرآن يغنينا عنها ، وأنه وحده مصدر الدين كله ، عقائده وشرائعه ، ومفاهيمه وقِيَمه ، وأخلاقه وآدابه .

● **شُبهات أعداء السُّنَّة :**

واستندوا فيما زعموا - ككل صاحب بدعة وضلالة - إلى شبهات حسبوها أدلة ، وهى مردودة عليهم بحجج أهل العلم التى لا تخلو الأرض منهم .

استدل الذين يزعمون أنهم أهل القرآن وأنصاره بما يلى :

١ - قول الله تعالى : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِن شَىْءٍ ﴾ (١) ، ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ (٢) .

٢ - أن الله تعالى تكفل بحفظ القرآن فقال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٣) ، ولم يتكفل بحفظ السُّنَّة .

٣ - أن النبى ﷺ جعل للقرآن كُتَّاباً يكتبونه منذ نزل به جبريل عُرِفوا باسم « كُتّاب الوحى » ، ولم يجعل ذلك للسُّنَّة ، بل صح عنه قوله : « لا تكتبوا عنى شيئاً غير القرآن » .

٤ - أن السُّنَّة من أجل ذلك دخلها المنكر والموضوع ، وما لا أصل له من الحديث ، فضلاً عن الضعيف والواهى وما لا يصلح للاحتجاج به ، واختلط الحابل بالنابل ، فلم يعد فى الإمكان التمييز بين ما يصح وما لا يصح .



---

(١) الأنعام : ٣٨ (٢) النحل : ٨٩ (٣) الحجر : ٩

• **حجج علماء السُّنَّة فى الرد عليهم :**

وهذه الشبهات كلها لا تصمد أمام التمحيص العلمى ، وكلها مردودة .

*** القرآن يبيِّن القواعد ، والسُّنَّة تفصِّل الأحكام :**

١ - أما قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ (١) ، فالمراد بهذه « الكلية » : ما يتعلق بالأصول والقواعد الكلية التى يقوم عليها بنيان الدين فى عقيدته وشريعته ؛ ومن هذه الأصول : أن الرسول مبيِّن لما نزل إليه ، وبعبارة أخرى : أن السُّنَّة مبيِّنة للقرآن : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (٢) .

ولم يفهم أحد - فى الأوَّلين ولا الآخرين - أن التبيان القرآنى تبيان تفصيلى ، وإلا فإن العبادة الأولى ، والفريضة اليومية ، والشعيرة الكبرى فى الإسلام (الصلاة) لا يُوجد فى القرآن أى تفصيل لها : لا عددها ، ولا مواقيتها ، ولا ركعاتها ، ولا كيفياتها ، ولا تفاصيل شروطها وأركانها ، وكلها عُرِفَ بالسُّنَّة ، وهو من المعلوم من الدين بالضرورة .



*** حفظ الله للقرآن يستلزم حفظ السُّنَّة :**

٢ - أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٣) يدل على حفظ القرآن بدلالة المطابقة ، ويدل على حفظ السُّنَّة المبيِّنة للقرآن بدلالة التضمن ؛ فإن حفظ المبيَّن يتضمن ويستلزم حفظ ما يبيِّنه ؛ لأن هذا من جملة الحفظ . كما بيَّن ذلك الإمام الشاطبى رضى الله عنه .

فالحفظ له مظهران : مظهر مادى وهو حفظ الألفاظ والعبارات أن تُنسى أو تُحذف أو تُبدَّل . ومظهر معنوى ، وهو حفظ المعانى أن تُحرَّف أو تُمسخ وتُشوَّه .

---

(١) النحل : ٨٩ (٢) النحل : ٤٤ (٣) الحجر : ٩

والكتب السماوية السابقة لم يتكفل الله بحفظها ، واستحفظها أهلها ، فلم يحفظوها ، فتعرَّضت لنوعين من التحريف : التحريف اللفظى بتبديل الألفاظ بأخرى أو إسقاطها ، والتحريف المعنوى بتأويلها بما يُبعدها عن مراد الله تعالى منها .

وقد حفظ الله القرآن من كلا التحريفين ، وكان البيان النبوى بالسُّنَّة من تمام حفظ الله تعالى لكتابه ، وتصديقاً لوعده بذلك حين قال : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ (١) .

ولقد أثبت التاريخ العلمى للمسلمين صدق ذلك ، وحفظ الله تعالى سُنَّة نبيه ، كما حفظ كتابه الكريم .

وقام فى كل عصر حُرَّاس أيقاظ ، يحملون عَلَم النبوة ، وميراث الرسالة ، يُورِّثونه للأجيال ، مشاعل تضئ ، ومعالم تهدى ، تصديقاً لتلك النبوءة المحمدية ، والبشارة المصطفوية : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ، ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » (٢) .



❊ أطوار تدوين السُّنَّة :

٣ - صحيح أن النبى ﷺ لم يجعل للسُّنَّة كُتَّاباً يكتبونها كالقرآن ، بل نهى عن كتابة غير القرآن فى أول الأمر ، لتتوفر الهمم على كتابة القرآن ، لقلَّة الكاتبين ، وقلَّة مواد الكتابة وتنوعها ، وعُسرها ، وخشية اختلاط القرآن بغَيره . ولكنه كتَب أشياء مهمة لتُبلِّغ عنه وتُنفِّذ ، مثل كتبه فى الصدقات والديات وغيرها ، وأذن لبعض الصحابة أن يكتبوا ، مثل عبد الله بن عمرو

---

(١) القيامة : ١٩

(٢) انظر : تخريجنا لهذا الحديث ، وكلامنا عنه فى كتابنا « كيف نتعامل مع السُّنَّة النبوية » .

وغيره . وحثَّ على تبليغ الأحاديث لمن لم يسمعها بدقة وأمانة ، وجاء فى ذلك حديثه المستفيض ، بل المتواتر عند بعض العلماء : « نَضَّرَ الله امرءاً سمع مقالتى ، فوعاها ، فأدَّاها كما سمعها ، فرُبَّ مُبلَّغ أوعى من سامع » ، وفى رواية : « فرُبَّ حامل فقه إلى مَنْ هو أفقه منه » .

ومن الثابت بيقين لدى الباحثين المتخصصين اليوم : أن تدوين السُّنَّة لم يبدأ فى رأس المائة الأولى للهجرة ، كما قيل يوماً ، بل إن للتدوين أطواراً بدأت منذ عصر النبوة ، ونمت بعد ذلك فى عصر الصحابة فمن بعدهم ، كما دلت على ذلك الدراسات العلمية الموضوعية .



* جهود علماء الأمة فى خدمة السُّنَّة وتنقيتها :

٤ - من المؤكَّد أن هناك مَنْ كذبوا على رسول الله ﷺ متعمدين لدوافع شتَّى ، فاستحقوا أن يتبوءوا مقعدهم بين عينى جهنم ، ولا غرو ، فهناك مَن افتروا الكذب على الله ذاته ، ومَن قال : أُوحِيَ إلىّ ولم يوح إليه شيء ! ولكن من المؤكد أن علماء الأمة وصيارفة السُّنَّة ، تصدَّوا لهؤلاء الدجالين ، وكشفوا أستارهم ، وفضحوا زيفهم ، وقد قيل للإمام عبد الله بن المبارك : هذه الأحاديث الموضوعة ؟ قال : تعيش لها الجهابذة !

ولقد عاش لها الجهابذة النُقَّاد بالفعل ، وطاردوها كما يطارد الخبراء النقود الزائفة فى الأسواق ، فقد تروج لدى بعض العوام ، وتمر من يد إلى يد ثانية فى غفلة عن الأعين الساهرة ، ثم لا تلبث أن تُضبط وينكشف زيفها وغشها .

وضع علماء الحديث القواعد الضابطة ، ورفعوا المنارات الهادية ، وأسسوا علوم الحديث ومصطلحه ، واشترطوا لقبول الحديث شروطاً أشرنا إليها من قبل . وهو ما لم تفعله أمة سبقت لحفظ تراث نبيها من الضياع أو التزوير .

وما قيل من أن الصحيح قد التبس بالضعيف ، والحابل اختلط بالنابل ،

فهو ادعاء مَن لم يغص فى بحار هذا العلم الشريف ، ولم يسبر أغواره ، ولم يطلع على الجهود الضخمة التى بذلتها عقول كبيرة ، ومَلَكات عالية ، ومواهب خارقة ، نذرت نفسها لخدمته وتجليته والدفاع عنه . فأسسوا علوم الرجال والطبقات والتواريخ ، للثقات والمقبولين ، وللضعفاء والمجروحين ، وصنَّفوا فى نحو تسعين علماً ابتكروها عرفت باسم « علوم الحديث » ، وكانت هى للحديث بمثابة « الأصول » للفقه . وأفردوا الصحيح من غيره ، وعنوا بأحاديث الأحكام ، وألَّفوا فى الأحاديث الواهية والموضوعة . وكذلك فى علل الأحاديث ونقدها .

إن التاريخ لم يسجل لأمة فى حفظ تراث نبيها ما سجَّل لهذه الأمة الخاتمة . ووجود أحاديث زائفة لا يجعلنا نلقى الأحاديث كلها فى سلة المهملات . هل يقول عاقل بإلغاء النقود السليمة وتحريم التعامل بها ، أو اعتبارها عديمة القيمة ، لأن هناك من المزوِّرين مَن زيَّفوا بعض العملات ، وروَّجوه لدى بعض الغافلين ؟!



● الاستغناء عن السُّنَّة بالقرآن مخالف للقرآن :

ثم إن الذين يزعمون الاستغناء عن السُّنَّة بالقرآن يخالفون - أول ما يخالفون - القرآن ذاته مخالفة صريحة .

فالقرآن يأمر بطاعة الرسول ، بجوار طاعة الله تعالى ، وذلك فى عدد من الآيات الكريمة .

بل اعتبر القرآن الكريم طاعة الرسول طاعة لله تعالى ، كما اعتبر بيعته بيعة لله تعالى : ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ (1) ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ (2) .

---

(1) النساء : ٨٠ (2) الفتح : ١٠

وهذه بعض الآيات الآمرة بطاعة الرسول مع طاعة الله :

﴿ وَأَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَاحْذَرُواْ ، فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (١) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ (٢) .

﴿ قُلْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ ، فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ، وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ ، وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (٣) .

﴿ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ (٤) .

﴿ وَأَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ ، فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (٥) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ، فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ (٦) .

ولو كانت طاعة الرسول تعنى اتباع القرآن وحده ، لم يكن هناك معنى لعطف الأمر بطاعته على طاعة الله تعالى ، إذ العطف يقتضى المغايرة ، وقد طلب الطاعة - فى غير موضع - لكل منهما . فأفاد أن لكل منهما طاعة مستقلة .

وللعلامة ابن القيم كلام جيد فى معنى الآية التى ذكرناها من سورة النساء .



---

(١) المائدة : ٩٢ (٢) الأنفال : ٢٠ (٣) النور : ٥٤
(٤) الأحزاب : ٧١ (٥) التغابن : ١٢ (٦) النساء : ٥٩

● جل أحكام الفقه مرجعها السُّنَّة :

والحق الذى لا مراء فيه : أنَّ جل الأحكام - التى يدور عليها الفقه فى شتَّى المذاهب المعتبَرة - قد ثبت بالسُّنَّة .

ومَن طالع كتب الفقه تبيَّن له ذلك بكل جلاء ! ولو حذفنا السُّنَن ، وما تفرَّع عليها واستُنبط منها من تراثنا الفقهى ، ما بقى عندنا فقه يُذكر !!

ولهذا كان مبحث « السُّنَّة » - باعتبارها الدليل التالى للقرآن - فى جميع كتب أصول الفقه ، ولدى جميع المذاهب المعتبَرة مبحثا إضافياً طويل الذيول ، يتناول حجيِّتها وثبوتها وشروط قبولها ، ودلالتها ، وأقسامها ، إلى غير ذلك مما لا يخفى على الدارسين .

وهذا -- كما قلت - ينطبق على جميع المذاهب ، من مذهب داود وابن حزم الظاهرى المنكرين للقياس والتعليل ، إلى أبى حنيفة وأصحابه الذين يُعرفون باسم « مدرسة الرأى » فى تاريخ الفقه الإسلامى .



● بين السُّنَّة والقرآن :

وإذا كان كل من القرآن والسُّنَّة مصدراً ربانياً للهداية والتشريع ، فما لا ريب فيه أنهما ليسا بمنزلة واحدة ، وأن بينهما فروقاً أساسية :

(أ) فالقرآن كله قطعى الثبوت ؛ لأنه منقول بالتواتر اليقينى ، جيلاً عن جيل ، أما السُّنَّة فأقلها ما ثبت بالتواتر ، وأكثرها إنما ثبت بطريق الآحاد .

(ب) القرآن كله ثبت بطريق الوحى الجلى بواسطة نزول أمين الوحى - جبريل عليه السلام - على قلب النبى ﷺ : كما نطق بذلك القرآن نفسه : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ (٢) .

---

(١) الشعراء : ١٩٣ - ١٩٤ .

أما السُّنَّة فمنها ما ثبت بطريق الإلهام والنفث فى الرُّوع ، وما ثبت بالرؤيا الصادقة ، وكلا الطريقين ليس من الوحى الجلى . ومنها ما ثبت بطريق الاجتهاد ، الذى يقره الله تعالى عليه ، وهى ما يسمى « الوحى الباطن » ، فإن الله تعالى لا يقره على خطأ ، حتى لا يُتبع فيه .

(جـ) القرآن لفظه ومعناه من الله تعالى ، أما السُّنَّة - أعنى القولية منها - فلفظها من النبى ﷺ . ولهذا لا يجوز رواية القرآن بالمعنى ، بخلاف الحديث ، أو السُّنَّة .

(د) القرآن محفوظ بجملته وتفصيله ، بألفاظه ومعانيه ، بصريح وعد الله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١) .

أما السُّنَّة فهى محفوظة ضمناً ، بحفظ الله للقرآن ؛ باعتبارها بياناً له ، وحفظ المبيِّن يستلزم حفظ ما يبيِّنه ، كما أن حفظ السُّنَّة إنما هو حفظ لها فى الجملة لا فى التفصيل .

(هـ) القرآن متميز بالإعجاز ، فهو الآية العظمى لمحمد ﷺ ، بخلاف الحديث ، وإن كان فى قمة البلاغة البَشرية .



● السُّنَّة الصحيحة لا تعارض القرآن :

السُّنَّة - إذن - مبينة للقرآن ، أو مؤكدة له ، أو شارعة لأحكام مستقلة فى إطار مقاصده وكلياته ، وليست معارضة له ، ولا توجد سُنَّة صحيحة صريحة تعارض القرآن . وما وُجِد من ذلك فلا بد أنه صحيح غير صريح ، أو صريح غير صحيح . وغير الصحيح لا اعتبار له ، وغير الصريح يجب تأويله بما يتفق مع القرآن ، لأن القرآن هو الأصل ، والفرع لا يخالف أصله .

---

(١) الحجر : ٩

ويحسن بى أن أنقل هنا ما ذكره المحقق ابن القيم فى « إعلام الموقعين » عن علاقة السُّنَّة بالقرآن ، قال : « والسُّنَّة مع القرآن على ثلاثة أوجه :

أحدها : أن تكون موافقة له من كل وجه ، فيكون توارد القرآن والسُّنَّة على الحكم الواحد من باب توارد الأدلة وتضافرها .

الثانى : أن تكون بياناً لما أريد بالقرآن وتفسيراً له .

الثالث : أن تكون موجبة لحكم سكت القرآن عن إيجابه أو محرِّمة لما سكت عن تحريمه . ولا تخرج عن هذه الأقسام ، فلا تعارض القرآن بوجهٍ ما .

فما كان منها زائداً على القرآن فهو تشريع مبتدأ من النبى ﷺ تجب طاعته فيه ، ولا تحل معصيته ، وليس هذا تقديماً لها على كتاب الله ، بل امتثال لما أمر الله به من طاعة رسوله ، ولو كان رسول الله ﷺ لا يُطاع فى هذا القسم لم يكن لطاعته معنى ، وسقطت طاعته المختصة به ، وأنه إذا لم تجب طاعته إلا فيما وافق القرآن لا فيما زاد عليه ، لم يكن له طاعة خاصة تختص به ، وقد قال الله تعالى : ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ﴾ (١) .



● مرجع السُّنَّة إلى القرآن :

هذه هى منزلة السُّنَّة من الكتاب : منزلةُ البيان من المبيَّن ، فالقرآن هو الأصل والسُّنَّة شارحته وموضِّحته ، وكل ما فى السُّنَّة يرجع إلى الكتاب ، بوجه من الوجوه ، وقد أوضح ذلك الإمام الشاطبى فى الموافقات ، وأقام عليه الأدلة ، وضرب له الأمثلة .

فتحريم الجمع بين المرأة وعمتها ، أو المرأة وخالتها ، مثلاً - إنما هو ضرب من القياس على حكم القرآن فى تحريم الجمع بين الأختين ، للاشتراك فى العلَّة التى نبَّه عليها الحديث بقوله : « إنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم » .

وتوريث الجدة نصيب الأم عند فقد الأم قياس لها على الأم ، فهى أمّ من وجه .

---

(١) النساء : ٨٠ ، وانظر إعلام الموقعين : ٢/٣٢٣ ، ٣٢٤ - ط . مكتبة ابن تيمية .

وتحريم كل ذى ناب من السباع تطبيق لقوله تعالى : ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ (١) ، كما أشار إلى ذلك الإمام الشافعى رضى الله عنه .

وتحريم الأكل والشرب فى أوانى الذهب والفضة ، وما فى معناها تطبيق لما حفل به القرآن من الحملة على الترف والمترفين ، واعتبار الترف من أسباب الفساد والانحلال للأمة حتى يدمرها تدميراً .

وتحريم الخلوة بالأجنبية تطبيق لقول القرآن : ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ الزِّنَىٰ ، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ (٢) ، لأن النهى بقوله : ﴿ لَا تَقْرَبُواْ ﴾ يعنى النهى عن مقدمات الزنى ، والخلوة منه .

ومثل ذلك : أن النبى ﷺ لعن مع شارب الخمر تسعة آخرين ، وذلك يدخل فى قوله تعالى عن الخمر : ﴿ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ (٣) ؛ والاجتناب أبلغ من مجرد الترك ، فيتضمن العصر والسقى والحمل والبيع وما فى معناها .

وقال ابن برّجان (٤) : ما قال النبى ﷺ من شىء فهو فى القرآن ، وفيه أصله ، قَرُب أو بَعُد ، فهمه مَن فهمه ، وعَمِهَ عنه من عَمِه ، قال تعالى : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِن شَىْءٍ ﴾ (٥) .

فليس فى السُّنَّة شىء خارج عن القرآن ، فضلاً عن شىء يخالفه ويعارضه . وإنما فيها ما يبيِّن إجماله ، أو يخصص عمومه ، أو يقيِّد إطلاقه .

والحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً .



(١) الأعراف : ١٥٧ (٢) الإسراء : ٣٢ (٣) المائدة : ٩٠

(٤) نقله الزركشى فى البرهان : ٢/١٢٩

(٥) سورة الأنعام : ٣٨ ، وقد تأول بعض المفسرين الكتاب المذكور فى الآية أنه « اللوح المحفوظ » فالأولى الاستدلال بقوله تعالى فى سورة النحل : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ (النحل : ٨٩) .

الفهرس

الصفحة

الباب الثالث : خصائص الإسلام
(١٣١ - ١٩٠)

الباب الرابع : أهداف الإسلام
(١٩١ - ٢٨٨)

الصفحة



رقم الإيداع ٢٧٨٦ / ٩٦

الترقيم الدولى

977 - 225 - 092 - 6

كتب للمؤلف

* سلسلة نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام :
(١) شمول الإسلام .
(٢) المرجعية العليا فى الإسلام للقرآن والسنة .
(٣) موقف الإسلام من الإلهام والكشف والرؤى ، ومن التمائم والكهانة والرقى .
* سلسلة حتمية الحل الإسلامى:
(١) الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا
(٢) الحل الإسلامى فريضة وضرورة
(٣) بينات الحل الإسلامي وشبهات العلمانيين والمتغربين
(٤) أولويات الحركة الإسلامية فى المرحلة القادمة .
* سلسلة فقه السلوك فى ضوء القرآن والسنة « فى الطريق إلى الله »
(١) الحياة الربانية والعلم .
(٢) النية والإخلاص
(٣) التوكل .
* سلسلة عقائد الإسلام :
(١) وجود الله .
(٢) حقيقة التوحيد .
* سلسلة فى التفسير الموضوعى للقرآن الكريم :
(١) الصبر . . فى القرآن
(٢) العقل والعلم . . فى القرآن الكريم
* سلسلة رسائل ترشيد الصحوة :
(١) الدين فى عصر العلم .
(٢) الاسلام . . والفن .
(٣) مركز المرأة فى الحياة السياسية الإسلامية
(٤) النقاب للمرأة . . بين القول ببدعيته . . والقول بوجوبه .
(٥) فتاوى للمرأة المسلمة .
(٦) جريمة الردة . . وعقوبة المرتد فى ضوء القرآن والسنة
(٧) الأقليات الدينية . . . والحل الإسلامى
(٨) المبشرات بانتصار الإسلام
* إسلاميات عامة :
- الحلال والحرام فى الإسلام .
- الإيمان والحياة .
- الخصائص العامة للإسلام .
- العبادة فى الإسلام .
- ثقافة الداعية .
- فقه الزكاة « جزآن » .
- مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام .
- بيع المرابحة للآمر بالشراء ، كما تجريه المصارف الإسلامية
- غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى .
- التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا .
- رسالة الأزهر بين . . الأمس واليوم والغد .
- جيل النصر المنشود .
- نساء مؤمنات .
- ظاهرة الغلو فى التكفير .
- الناس والحق .
- درس النكبة الثانية : لماذا انهزمنا وكيف ننتصر ؟ .
- عالم وطاغية « مسرحية »
- مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية .
- الفقه الإسلامي بين الأصالة والتجديد .
- عوامل السعة والمرونة فى الشريعة الإسلامية .
- الوقت فى حياة المسلم .
- أين الخلل ؟
- الرسول والعلم .
- نفحات ولفحات « ديوان شعر » .
- الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه
- فتاوى معاصرة « جزآن »
- شريعة الإسلام
- الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف .
- قضايا معاصرة على بساط البحث .
- الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية
- المنتقى من الترغيب والترهيب «جزآن» .
- الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربى والإسلامى .
- الفتوى بين الانضباط والتسيب .
- من أجل صحوة راشدة .
- الإمام الغزالى بين مادحيه وناقديه .
- الدين فى عصر العلم .
- فوائد البنوك هى الربا الحرام .
- كيف نتعامل مع السنة .
- الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم .
- تيسير الفقه . . «فقه الصيام» .
- لقاءات ومحاورات حول قضايا الاسلام والعصر
- المدخل لدراسة السنة النبوية .
- يوسف الصديق «مسرحية شعرية» .
- قطوف دانية من الكتاب والسنة .
- الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة .
- المسلمون قادمون « ديوان شعر » .
- محاضرات الدكتور القرضاوى .
- ملامح المجتمع المسلم الذى ننشده .
- دور القيم والأخلاق فى الاقتصاد الإسلامى .
- السنة مصدر للمعرفة والحضارة .
- خطب الشيخ القرضاوى (جـ١) .
- دروس فى التفسير « تفسير سورة الرعد» .
- فى فقه الأولويات « دراسة جديدة فى ضوء القرآن والسنة »
- الإسلام . . حضارة الغد
- الأمة الإسلامية . . حقيقة لا وهم .